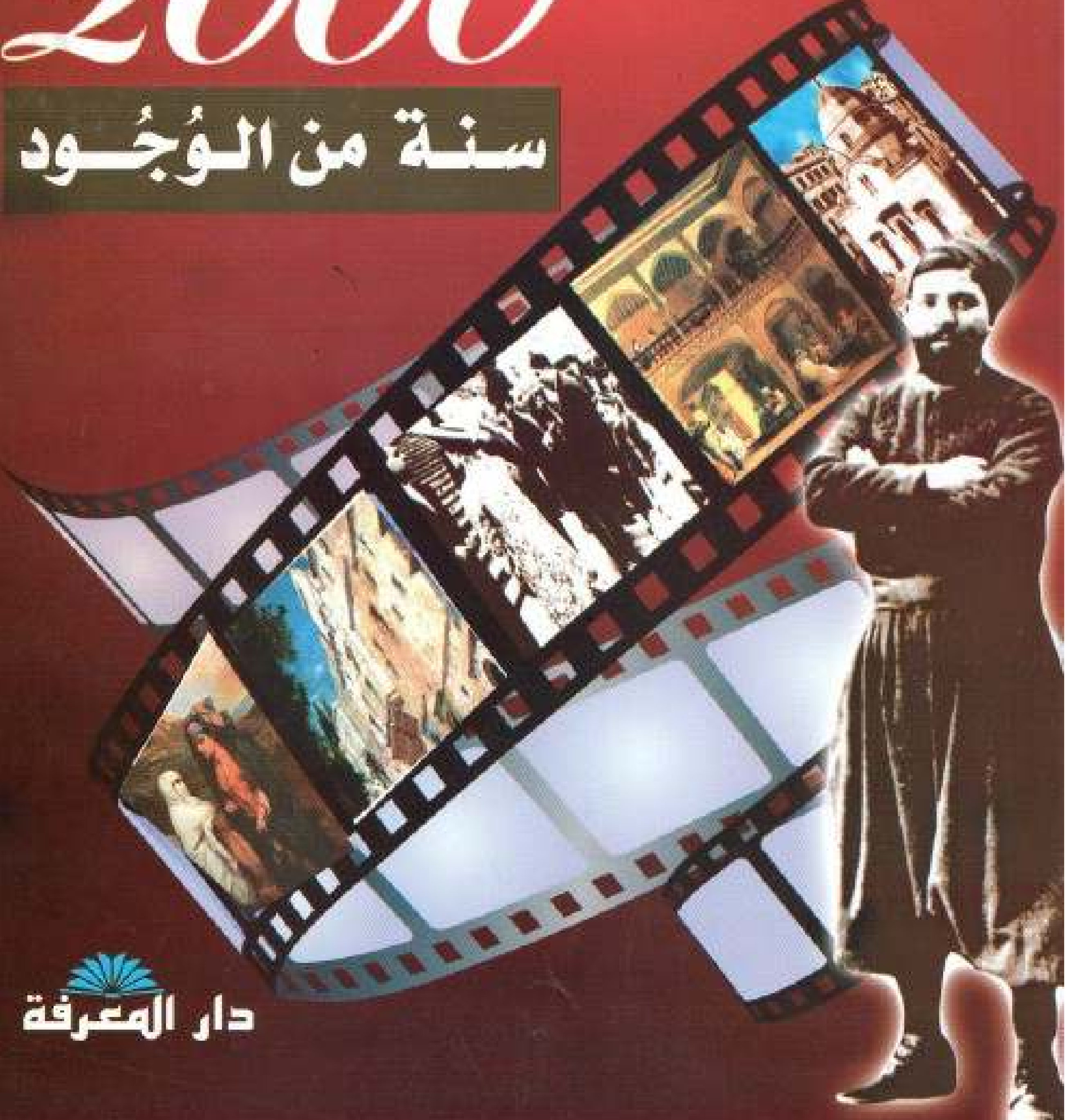
عيسى شنوف

يهود الجزائر 2000 سنة من الوُجُود



دار المعرفة

عيسى شنوف

يهود الجزائر

2000 سنة من الوجود

العنوان : يهود الجزائر "2000 سنة من الوجود"
الإعداد : عيسى شنوف
إخراج وتصميم : قسم التصفيف ، دار المعرفة .
ر.د.م.ك : 978-9961-48-474-6
الإيداع القانوني : 161/2008

حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار المعرفة

دار المعرفة

10 نهج عبد الرحمان ميرة باب الوادي الجزائر

http//www.elmarifa.com

عيسى شنوف

يهود الجزائر

2000 سنة من الوجود

دار المعرفة

مدخل

عندما أخبرني الناشر أنه ينوي تسليط الأضواء على تاريخ اليهود بالجزائر، أعترف أنني تفاجأت أمام اقتراحه. فخلال عشرين سنة من العمل في الصحافة والصحافة المكتوبة على وجه الخصوص تخللتها فترة انقطاع طويلة لم أجد من الأسرار أثناء التحقيق ما وجدته في هذه المغامرة العجيبة في تأليف هذا الكتاب.

ودون تردد ذهبت لاكتشاف تاريخ كان محظورا علينا، محظورا من المدرسة الابتدائية إلى غاية الجامعة.

وحسب علمي، لا توجد بالجامعة فروع مختصة في دراسة اليهودية وانعدام بحوث متعلقة بهذا الموضوع شيء أكيد.

وفيما يخص الوثائق فإن الواقع صحيح مما لا يسمح بإرواء ضمأ فضولنا أمام عدد محدود من المؤلفات يتم الاطلاع عليها في المكان نفسه في قاعة المطالعة بالمكتبة الوطنية.

2000 سنة من الوجود، إنها الفترة الزمنية التي قضاها اليهود ببلاد المغرب فحجمهم الزمني جد معبر بالنسبة لكل التشابه في العادات والتقاليد مع العرب، وقد خصص الكتاب فصلا لهذا الجانب وعند قراءة بعض الفقرات عن التقاليد نصيح بدهشة قائلين: "ولكن الأمر على نفس المنوال عندنا".

ونجد أن أهم مظهر في هذا المجال هو المظهر المتعلق "بالقراءة اليهودية للتاريخ الخاص بهم" ولكننا لم نعثر على كتابات يهودية دوّنها العرب تخدم هذا الاتجاه، فعندنا، ببلدنا، هذا النوع من الكتابات التي تكاد تنعدم هي عرضة في نفس الوقت لمجموعة من القيود.

فهذا العمل جمعه المؤلف من كتابات كتبها اليهود سمح لنا بإزاحة الغبار من على تاريخ قارة، تاريخ شمال إفريقيا. فهو يضع الحكومات أمام أحد المواضيع الأكثر حساسية والذي يصنع تاريخها وذاكرتها في وقت يمنع فيه ما تبقى من القرن الحالي السكوت عن تاريخ الشعوب، فالحقائق يجب أن تكتب وتقال ويتغنى بها وتحيى وتخلد.

فبإضفاء الغموض على تاريخنا فإننا نسلم أنفسنا مكتوفي الأيدي والأرجل لسحرة الأقلام الذين سيقولون عنا ما يحلو لهم كتابته بشأننا.

وكما نعلم اليوم أنه لأسباب "تاريخية" تم تجنب الكثير من أحداث الثورة لقطع الطريق بصفة محكمة عن الأبطال الحقيقيين للحركة الوطنية وحرب التحرير، فإن الكثير من الحقائق تم دفنها باسم ثقافة النسيان.

ودائما ضمن هذا المنطق، إذا تم إغفال حالات مشهورة في ترتيب ذكرها فمن العادي جداً أن يحدث نفس الأمر مع يهود الجزائر.

فمجرد الكلام يسبب الحرج... مع أن نهاية القرن تتطلب منا العودة إلى الحقائق الكبرى للتاريخ، حتى ندخل الألفية القادمة على أسس سليمة لا ترهن مستقبل الشعوب.

حتى وإن سعى اليهود على طول تاريخهم دائما لتوفير الحماية لأنفسهم والحماية لمجالهم الحيوي عن طريق الحيلة والتورط والاتفاق فإننا نجد منهم أيضا من تعاون مع فرنسا الاستعمارية ومنهم من تعاطف مع الثورة.

هؤلاء أعطتهم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ضمانات بحماية واحترام أشخاصهم وممتلكاتهم بعد أن تضع الحرب أوزارها فالمسألة قضية شرف بالنسبة لأعضاء الحكومة المؤقتة، لكن الكثير من هؤلاء غادروا البلاد ...

ومن الأهم أن نسجل اليوم سواء في إسرائيل أو غيرها من بقاع العالم أن اليهود يدرسون ويشرحون وفي نفس الوقت يعاينون تاريخنا. وفي مخابرهم يتفحصون بدقة وعناية تاريخ يهود شمال إفريقيا، وبمدارسهم وحتى

لا ينسى أحد منهم، منحت مادة التاريخ بموجب قانون أكبر المعاملات الدراسية: سبعة (07).

ولأن جزءا هاما من ذاكرتنا قد أهمل، فتاريخنا عرضة حسب أهواء المقررين للتأثير اليهودي الصهيوني. ففكرنا وفكر أبنائنا تحت رحمة هذه الإيديولوجية، مثلنا كمثل الحديد المحمي إلى درجة الليونة فيتخذ الحداد منه الأشكال التي يريد.

فلنعاين معا خط سير اليهود في شمال إفريقيا لنفهم الأمور فهما جيدا...

- ألفا سنة من الوجود، حضور مدعوم في شمال إفريقيا، عشرون قرنا على أرض منحتهم كل شيء، وغادرها الكثير منهم وملامح الأسى على وجوههم.

واليوم، كيف سنتعامل نحن الجزائريين مع القضية اليهودية ؟ فقد أصر أحد السياسيين - زعيم حزب جزائري كبير - في قوله على أنه: "علينا أن لا نخلط بين اليهود والصهاينة" "فاليهود عاشوا معنا في الجزائر في تعايش تام، وكان للبعض منهم موقف متعاطف مع الكفاح المسلح خلال الثورة كما أن البعض الآخر تعاون مع فرنسا الاستعمارية. وهكذا تسير الأمور دائما".

إلا أن العديد من العائلات فضلت عام 1962 البقاء بالجزائر وانصهرت في مجتمعنا في شكل مجموعات اجتماعية سرية تتأقلم مع كل المستجدات اليومية.

ومعاودة النظر في تاريخ اليهود تسمح لنا بفهم أفضل لبعض فترات تاريخنا.

فمنذ روايات التوراة والإنجيل التي تذكر فرار "الشعب المختار " من مصر وإنقاذه بمعجزة موسى، قاد التاريخ شعب اليهود من المشرق إلى شمال إفريقيا أين يوجد الفينيقيون من قبل...

مقدمة

يوم 18 نوفمبر 1998: معلومتان تصلان إلى السامع عبر موجات الإذاعة العمومية، القناة الثالثة في النشرة الإخبارية على الساعة السابعة: وزير الإعلام يكذب خبرا مفاده أن اتصالات تمت بين الوزير الجزائري للشؤون الخارجية ونظيره الإسرائيلي ....

وفي نفس النشرة يذكر الصحفي الوفاة بالأمس (أي يوم 17 نوفمبر) لـ: "رينات الوهرانية عن عمر يناهز الثمانين سنة. وقدم سفير الجزائر بباريس تعازيه لعائلة الفقيدة مؤكدا أنها ساهمت في إثراء الديوان الموسيقي العربي الأندلسي بالجزائر".

في المعلومة الأولى يتمثل الجديد في كون - وزير الإعلام هو الذي كذّب الخبر دون أن تدون الصحافة المستقلة المكتوبة سطرا عن ذلك (مع أن الصحافة المستقلة أكثر تتبعا للأحداث). وقد كلفنا أنفسنا عناء البحث عبر صفحات كل الجرائد الصادرة من 10 إلى 17 نوفمبر، فلم نجد جريدة واحدة عمومية تتكلم عن الاتصال الجزائري - الإسرائيلي على أي مستوى كان، فهل كان الغرض من الخبر فقط جس نبض الرأي العام؟ بالتأكيد ... (لكون السلطة هي الوحيدة التي تعرف سرّ هذه الممارسة).

وفي المعلومة الثانية أغفل الصحفي أمرا يعرفه عدد كبير من الناس هو أن رينات الوهرانية باسمها الحقيقي رينات سلطانة داوود من أصل يهودي، فهذه التيارتية المولد جعلت من الديوان الشعبي عربون افتخارها الكبير بمجرد وصولها إلى التراب الفرنسي بعد نزوح 1962.

غدا سيتكلم الناس في الشارع ونقرأ في الجرائد أن ابن قسنطينة البار غاستون - غيريناسيا (أنريكو ماسياس) توفي تاركا وراءه تراثا موسيقيا للشيخ ريموند

عمره وصديق محمد الطاهر الفرقاني وكأنه سنفونية لم تكتمل، لأننا لم نوفر المطلوب لجعل ديوان المالوف محلّ احترام يستحقه هذا النوع من الموسيقى.

فماذا يمكن أن تمثله هاتان المعلومتان على التوالي ؟ هل هما إشارتان لانفتاح على آفاق جديدة؟ فهذه الفرضية جزء من المعطيات الجديدة بالشرق الأوسط وتمثل المقياس الصحيح لنوعية العلاقات التي قد تتخذها دولة عربية مع إسرائيل.

ستة أيام إذا بعد هذه المعلومات وبالضبط يوم 24 نوفمبر 1998 حدث ما حرك سماء غزة، إنه الافتتاح الرسمي للمطار الدولي.

وفي طبعتها لليوم الموالي كتبت صحيفة الوطن في قسمها الدولي عن الحدث تحت عنوان: " نافذة تفتح على العالم " ونجد في صلب الموضوع هذه الأسطر: "إنه يوم تاريخي للفلسطينيين يؤكد زعيم منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات عند استقباله لأعضاء الحكومة المصرية الأربعة الذين وصلوا على متن أول طائرة".

وكان هذا الحدث ينبئ بفتح مساحات اقتصادية جديدة في المنظمة ستحدث تغييرا جذريا في نظرة العواصم العربية للشرق الأوسط الذي يبقى قبل كل شيء سوقا مزدهرة.

وفيما يعنينا فالكتابة عن الأقليات اليهودية بالجزائر كانت في أول الأمر مجرد فضول ثم تحولت إلى تحد يدفعنا إلى ذكر ضمن هذا التأليف هذه الشعوب التي سكنت بلاد المغرب منذ ما يقارب الآن الألفي سنة.

فالكتاب الذي بين أيديكم كان إنجازه صعبا، صعبا نظرا للموضوع الذي يعالجه، ومتعبا للصبر الذي يتطلبه ومقلقا نظرا للوثائق الهزيلة المتعلقة بيهود الجزائر.

فعندما يسأل أحدنا محيطه المباشر عن إمكانية ميلاد علاقة جزائرية إسرائيلية، أول جواب يتلقاه عن سؤاله هو الدهشة. فهل من المعصية النطق بهذه الأحرف السبع؟

لماذا كل ما يتعلق باليهود يثير الجميع من أبسط الناس في الشارع إلى السياسي المولع؟

فإن سألت هذه الملايين من الشباب المولودين بعد 1962 فستعتريهم الدهشة عندما يعرفون أن آباءهم وأجدادهم قد عاشوا لفترة طويلة إلى جانب اليهود في جو بهيج.

وبعد الدهشة تقرأ تعبيرا آخر للوجه لدى الشخص الذي سئل، تقرأ هذا العجز عن تفسير هذا التشوش الذي يشعر به الواحد منا في رأسه بمجرد الحديث عن اليهود.

فهل هذا انبثاق لمحنة تجد جذورها في التاريخ البعيد؟ هذا ما سيؤكله الذين جعلوا من التاريخ مصدرا للقيم الانتقائية.

فهل التعايش مع اليهود مجرد هرطقة؟ "نعم إذا انطلقنا من مبدأ أنهم مازالوا يحتلون الأراضي المقدسة بالقدس، أورشليم، وهم أعداؤنا، ويبقى الهدف إذا هو التحطيم المباشر لهؤلاء الناس".

"ظالما أو مظلوما، أنا مع الشعب الفلسطيني" هكذا صرح الرئيس الراحل هواري بومدين وهو على قيد الحياة. وبقيت هذه العقلية سائدة على الرغم من عدم وجود إجماع بشأنها، والدليل في ذلك المقومات التي حملتها لائحة بيانات بلحث من الباحثين.

فالمجتمع حسب رأيه تم "ترويضه" من مختلف التيارات التي اعتمدت على دعائم إيديولوجية لتشويه وتحطيم صورة اليهودي، وتم تلقيحها في الشعور الجماعي "ليهود حاشاكوم"، "ليهود حاشا دين محمد".

"قبل تاريخ 1960 لم يعتبر اليهودي مشكلة ولكن ابتداء من عام 1963 احتاج الرئيس بن بلة إلى متنفس لسياسته، فاختار القبائلي وكانت النتيجة خروج آيت أحمد للجبال وبداية المقاومة وولادة جبهة القوى الإشتراكية.

وفي أكتوبر 1967 أظهرت الهزيمة التي تلقتها الجيوش العربية ظاهرة المجتمع "المروض". فالخطاب الرسمي والحماسي لتلك الفترة كان يخدر الأذهان

على "أن العدو الإسرائيلي هو مستعمر أرض عربية " وعليه استنتج المجتمع أن "إسرائيل دولة يجب تحطيمها".

واليوم ظهرت آراء أخرى صدمت هذه التبريرات لأن الفترة الحالية لم تعد توافق الوطنية المهيّجة والصلبة، فنحن نعيش تقلص العقاب العدائي الذي يكنه الجزائريون لليهود، وكان للزمن أيضا دور، ولم يبق على ضفاف مصير الشعوب سوى المصالح المختلفة سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو رياضية أو جغرافية أو ثقافية ....

وحدث أن نشر صحفيون جزائريون من الصحافة المستقلة (الوطن، لوماتان) استجوابات أثارت ضجة مع شخصيات سياسية يهودية، فلاحظنا اهتمام القراء لهذا النوع من الأحداث التي كانت حكرا خاصا بالسلطة وفيما بعد وجهت دعوة لصحفي جزائري من جريدة الوطن (1995) للدخول إلى الأراضي المحتلة، فأحدثت هذه المهمة الفريدة من نوعها شبه زلزال في الحكومة. وفي الجانب الاقتصادي فنحن نعلم على الأقل أن اليهود وسطاء تجار محنّكون إلى درجة مكنتهم اليوم من التحكم في مفاتيح المالية العالمية الكبرى. فهم يتحكمون في وسائل النقل البحرية ويستخلصون فوائد جمة من الصفقات التجارية التي يديرونها بمهارة في العالم العربي والشرق الأوسط. ونجدهم في كل مكان به المال أو تتداول به العملة أو تحصل منه الفوائد، وهم ينسجمون بسهولة في نموذج المجتمع الذي هم مطالبون بالعيش فيه.

وذكرني أحد الأصدقاء مؤخرا بقوله: "إذا سمحت ليهودي بالإقامة في قريتك فيكفيها بعض الأعوام القليلة حتى تصبح قريتك يهودية" وكان يريد أن يقول لي أن اليهود شعب مهاجر عريق وأنهم ينصهرون في جميع أصناف المجتمعات التي يتبنونها.

اليهود يعني أيضا التفوق على مستوى المؤسسات المالية الدولية الكبرى - البنك العالمي، صندوق النقد الدولي - وكذا التفوق على مستوى أهم البنوك الأمريكية والأوروبية.

والغريب أن الثقافة الشعبية تمثل صورة اليهودي في ذلك الشخص ذي الأنف المعقوف والمشعر الذي يمارس الربا والذي إذا وعد أخلف والذي لايتوانى في الخيانة إذا سنحت له الفرصة ويقال عنه: "ليهودي كي الفار ماتوريلوش باب الدار" "اليهودي كالجرذ فلا تقربه من عتبة الباب".

وأتجرأ على إثارة نظرة مروعة للتاريخ في كتاب مناضل في حركة الشباب، كمال بوشامة وزير الرياضات سابقا حين قل: "لنغتنم الفرصة لكتابة التاريخ بما أمكن من التفصيل وبأقصى حد من النزاهة مع استحضار في أذهاننا هذا الشعور النبيل بالتعليم والتربية لشباب ينتظر منا الكثير.

فلنكتبها إذا بكثير من الصدق دون أي ميل عاطفي وخاصة دون المساس بشرف أحد".

إن حرية القول وإطلاق العنان للفكر بالتفكير تشحذ الفضول البشري مشيدة بذلك بداية سلسلة من التساؤلات، وهكذا أصبح كل فعل يجر رد فعل، وتم تجاوز الكثير من المحظورات منذ زلزال أكتوبر 1988 فتغيرت الأمور منذ ذلك التاريخ، حتى وإن كانت ثمار هذا الانقلاب في الأوضاع لم تجن إلا سنوات بعد ذلك.

في مسار تطور المجتمعات يبقى التاريخ قيمة ثابتة ومعلم تمثيل وإثبات هوية يماثل في قوته قوة الدين، فاحتقار هذه القيمة يعني فك الرباط القائم بين الحاكم والمحكوم وقطع العلاقة بين السلطة والمواطنين.

وهكذا ستفرض السلطة، بزهو إرادتها بتسيير الأمور من الأعلى بطريقة متسلطة، الإجابة التي تقدمها للشعب، لأنها تستأثر بحق الملكية على التاريخ.

وبهذه الصورة ستكون لنا قراءة يهودية للسلطة سواء كانت يهودية، أو فرنسية أو جزائرية....الخ، حسب الظروف القائمة، فكل سلطة تقدم محتوى "تاريخها" ومن أجل كسر الاحتكار ستحاول مراكز اهتمام أخرى تغيير الأوضاع.

واليوم سمحت حرية القول للرأي العام أن تكون له صورة مشوهة عن بعض حكامنا، ومن بينهم ذلك المستشار السابق لرئيس الجمهورية اللواء في

وقته، أو وزير العدل ذاك الذي سحقته الصحافة المكتوبة المستقلة خلال نهاية سنة 1998، صحافة تستمد قوتها وروعتها من معركة قادتها في معترك الديمقراطية، وبفضلها انتصرت الجزائر على مستوى جبهات كثيرة.

في مكان ما في بعض محافل السلطة التي أهانتها صحافة هجومية قبلت العقول المتصلبة والمهددة، بكل ألم ريح الحرية هذه التي شككت في كثير من الامتيازات المتحصل عليها خارج الشرعية.

في هذا الجو فقط قد نتمكن من الكلام عن المسألة اليهودية لدى ضيوف السلطة دون خطر التعرض للزجر، نعم في تراثنا الوطني نجد أن اليهود كانوا جزءًا من التاريخ وتبقى هذه حقيقة كحقيقة تعرض هذا البلد لسلسلة من الغزوات كغزو الفينيقيين أو الوندال أو الرومان أو الأتراك أو الفرنسيين، وبهذا الانتماء لأحداث التاريخ حقيقة مثلها مثل سيران تاريخ العالم المعاصر دون أن نتمكن من محو الأحداث البشعة التي هزت العالم.

وأن عائلات باسم بكري وبوشناق قد شاركت في الغزو الفرنسي للجزائر وأن اليهود عاشوا بمعزل عن المستوطنين قبل أن يلتحق البعض منهم صف المتطرفين عام 1961 وأنهم اعتمدوا خلال كامل إقامتهم ببلاد المغرب نمط الحياة العربي الإسلامي ثم بعدها النمط الغربي وكل هذه الحقائق جزء من الأحداث المتنوعة للتاريخ.

وإخفاء هذه الحقائق عن أعين الرأي العام هو قتل له ومن المؤسف والمحزن وفي بعض الأحيان من المحرج أن.نستمر في سماع الغير يتكلم عنا وعن تاريخنا وعن هويتنا وعن شخصيتنا، وسواء سعدنا أو تألمنا لهذه الحقيقة فإنه يجب ذكرها "حتى وإن كانت مرة".

وما لا يقبل ولا يعقل هو أن نتلقى مقابل الصمت صمتا آخر ومقابل الذكرى التي نحاول، إحياءها ذاكرة غير أكيدة تنمحي بمجرد تشكلها ، فمسار هذا القدر هو الذاكرة، ذاك الميراث الذي يجب أن لا تنمحي آثاره.

لا يمكن تصور تاريخ مخدر أو ممحي أو حتى مصحح وغالبا ما نستغرب الجو الحزين الذي نحتفل فيه بأعيادنا الوطنية، وهذا راجع لرغبة السلطة في فرض "تاريخها" من أعلى والتي وجدت نفسها في آخر المطاف عاجزة عن تقدير محتواه، فما يقدم على أنه رسمي لا علاقة له بالواقع.

وهذه الطريقة في التصرف هي عملية متداولة أيضا عند الغير، فحتى اليهود في هذه الحالة سيصنعون "تاريخهم" حسب نظرتهم لن يكون حتما التاريخ الذي تريد الجهات الرسمية تسجيله.

والضحية طبعا هو القارئ الجزائري الذي لن يجد في السوق المحلية للكتاب شيئا عن اليهود، ومرة أخرى يكون اللجوء إلى أعمال الغير، مع كل الأخطار التي قد تنجر عن ترك غيرنا يكتب ويصنع تاريخنا مخضعا إياه لمختلف أنواع المضاربات والمزايدات.

فتاريخنا اليوم دون أي تكلف، يتيم، خاضع للافتراضات والتشويهات فهل نبقى مكتوفي الأيدي؟ أم العكس كتابة هذا التاريخ وتركه لمن بعدنا حتى تحمل أقلام أخرى المشعل بعدنا.

كتلك الشفاه التي بقيت غير مضمومة فهي تتكلم وتتكلم باستمرار. لقد وقعت أحداث مروعة خلال ثورة التحرير ولكن إلى غاية اليوم التاريخ الرسمي الملقن والمدون لا يذكرها حتى بالإشارة.

ونتأسف لحقيقة التاريخ التي كانت ستنتصر ولو ببسط بساط الوضوح تحت أقدامنا، فكل ما حدث إذا لصالح أقلية تتجول في أروقة السلطة، إيديولوجيتها هي سيطرة حقيقتها هي على الهيئات العليا، وكل همّ هؤلاء هو محو الذكريات الأليمة في حياتهم وحياة الأمة حتى لا تبقى في التاريخ إلا ما يستلذون هم سماعه وقراءته. مثلهم كمثل ذلك السجين الذي شرع بمجرد خروجه من السجن في قتل زملائه في الزنزانة خشية أن يفضحوه، لأنه سيأتي يوم قريبا كان أم بعيدا يصبح فيه الشخص الأول في المدينة، وسيقال عنه في سيرة حياته أنه شخص "مهم".

"لقد اندمج اليهود اندماجا كبيرا في المجتمع وكانوا يعيشون معنا وإلى غاية يومنا هذا لم تشهد هذه العلاقة انقطاعا لأنهم لا يزالون معنا، عددهم أكبر مما نتصور، إنهم معنا، وإنهم نحن" هكذا تحدث وعبر ذلك العالم الاجتماعي الأستاذ الجامعي.

وهذا يعني أيضا أن تاريخ اليهود بالجزائر لا يخلو من الخيانات والانقسامات والتآمر ضد المسلمين، لكن ما هو مؤكد هو أنه ليس من واجبنا ولا من اختصاصنا الحكم على أحداث تاريخية، بل أقول فقط إن أحداث التاريخ كانت وكائنة وستكون.

فهناك أشخاص ذوو مصداقية كان بإمكانهم الحديث عن اليهودية في الجزائر فضلوا الصمت المطبق على الرغم من التطمينات التي قدمناها لهم لحمايتهم من كل تشهير.

وبالنسبة لكل الجيل المولود بعد 1962 فمن المفيد تسجيل ما إذا كان الشباب مهتمين أو غير مهتمين بيهود الجزائر، إلا أننا لا يمكننا قياس حرارة الآراء بسبب غياب وسائل سبر آراء مناسبة.

وسيأتي ربما اليوم الذي يكون هذا العمل موضوع تحقيقات وتحليلات جادة.

وبصفة عامة فإن الجزائري لا يريد أن يعرف بالضبط عدد اليهود الذين يعيشون بالجزائر، ولكننا متأكدون من شيء واحد هو أنهم يعلمون بوجودهم وأنهم جزائريون وأنهم يعرفون كل شيء عن الجزائر، لكن الجزائر لا تعرف شيئا عنهم.

بباب الوادي وعلى بعد عشرة أمتار من مسجد السنة يعيش إلى يومنا هذا في بيعة عائلات يهودية بالنسبة لسكان الحي هم جزء من المحيط.

وبهذا الصدد نسجل في وثائق الأرشيف أن قادة سابقين في جبهة التحرير الوطني خلال فترة الثورة التحريرية قد وجهوا نداء لليهود يدعونهم للبقاء على هذه الأرض واعدين إياهم بحمايتهم في أنفسهم وحماية ممتلكاتهم

من أي اعتداء، لكن الكثير منهم فضّل الهجرة ابتداء من 1962 وبقي منهم العديد أيضا.

إلا أنه إذا كان الكلام عن اليهود بهذا الحذر الشديد، أو عدم الكلام عنهم إطلاقا، أليس خوفا من كشف ما أثير حول الأكاذيب والصمت الطويل استراتيجيات الإبقاء على الامتيازات؟ وهكذا تعود إلى أذهاننا تلك النغمة المحزنة "اصمتُوا إننا نسير! اصمتُوا إننا نوجه القوات العاملة! اصمتُوا إننا نفكر لكم! اصمتُوا إننا نتداول أموال البترول من أجلكم " فالجزائر لم تعد راشدة بعد إنها قاصرة، إذا نحن نفكر من أجلها.

فالتاريخ الرسمي هو تاريخ مصطنع ومركب من أجزاء مختلفة وذكر لي إطار سام في الدولة مؤخرا أنه بفضل هذا النظام صنعت طبقة من الأغنياء لا وجود لها في أي مكان آخر.

ففي غضون سنوات قليلة جمعت ثروات طائلة دون أن يستطيع القانون أن يقول : "أيها الغني، من أين لك هذا؟" (أخذا عن قول عمر بن الخطاب).

والآن والأمور قد سارت كيف التصرف تجاه السلام في الشرق الأوسط؟ فهل علينا أن نكون ملكين أكثر من الملك ؟ وهذا الزّعم تدفعنا إليه آراء متعددة. فهي ترى أن الفلسطينيين قد قبلوا السلام، فلماذا لا تقبل به الدول العربية الأخرى؟ فلماذا علينا أن نكون عربا أكثر من العرب ومسلمين أكثر من المسلمين؟ أكيد أنها ميزة من طبعنا ولدنا بها لأنه يحدث معنا يوميا أن نتصرف وكأننا أجزاء من الثقافات الأخرى كالشرق الأوسط أو أوروبا، حسب الظروف.

صحيح أن القوة المتعجرفة للإسرائيليين كانت لها الكلمة الأخيرة أمام جبن الدول العربية التي فترّت عزيمتها هزائم 1967 و1973، وأسالت هذه الوضعية الكثير من الحبر والدمع.

ولكنها الحرب ....

ولكن هل هذا ينسينا أن اليهود مازالوا إلى يومنا هـذا شـركاء ممتـازين للشركات الخاصة والعمومية الجزائرية؟ علاقات اقتصادية هائلة مربوطة معهـم عن طريق الفاكس دون أن نغادر الحدود.

البعض يقول أنه يشعر بارتيـاح عنـدما لا يـراهم أحـد ولا يلاحظهـم شخص ساعة ربط علاقات صداقة، أو علاقـات اقتصـادية أو مهنيـة مـع يهـود بعيدين عن حدودنا.

فهل علينا أن نتفاعل مع اليهود بموضـوعية ورويـة أم سـلبيا وبرعونـة باللعب على الجانب العاطفي؟.

هناك الكثير من الكره وكثير من العاطفة في طريقة تصور تحليل ظاهرة اليهود وهذا ما سيشوه حتما الأحداث ويخرجها عن طبيعتها ويـدفع إلى تصـور عناصر تحليل في ظل زاوية ضيقة لنظرة منخنقة.

في 1988 أرسلت السلطة علامات تهدئة وسكينة، فقد التقى الـوزير الجزائري للشؤون الخارجية بفيينا سفير إسرائيل في الوقت الذي كانـت تضـم الحكومة من بين وزرائها غازي حيدوسي، وزير الاقتصاد ....

وهنا تتبادر عدة أسئلة إلى الذهن تسـجل في "التساؤل عـن الهويـة" وهو مفهوم جاء به فريق من الباحثين في التراث.

إذا خوضوا غمار هذا الكتاب لتفهموا أحداثا تاريخية وللعثور علـى معـالم تحديد الهوية وتواريخ وأحداث تمكنكم من الفهم الأفضل للتاريخ المعاصر.

ربما وجدتم في مكان ما تفصيلا منحكم مفتاح فهم أمور تقع بالقرب منكم.

عبر التاريخ

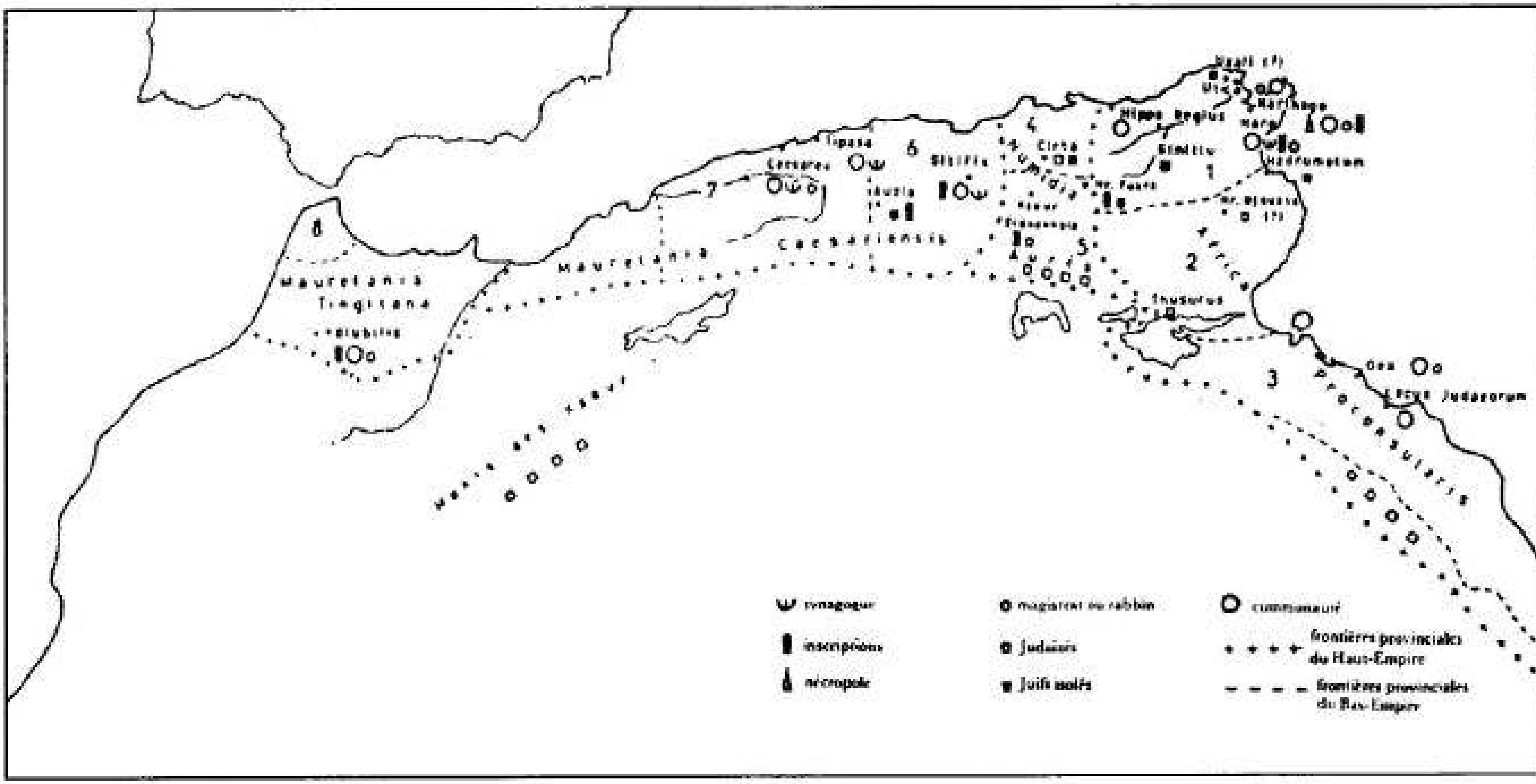
❶. الفينيقيون والعبريون

❷. الكاهنة

❸. سطورة، سرور بن حايم

❹. صدام الثقافات

❺. الذمة أو العقد الإسلامي



المستعمـــرات اليهودية في إفريقيا الرومانية (حسب الدفاتر التونسية ج 18، 1970)

اليهود في المغرب عبر التاريخ :

لقد تكونت اليهودية بالجزائر - التي تعد جزء لا يتجزأ من الديانة اليهودية بشمال إفريقيا - نتيجة تكثف علة هجرات وإلى غاية اليوم وعلى عكس الأخرى لم تخصص لها دراسات كثيرة.

فالجزائر لم تكن موجودة ضمن الحدود المماثلة لحدود الجمهورية الجزائرية الحالية إلا منذ إقامة السلطة التركية بمدينة الجزائر عام 1516.

ففي السابق تعرض هذا البلد، المغرب الأوسط لنفس مصير الأقطار المغربية مع الاحتلال الروماني والبيزنطي والعربي الذي حمل معه شعوبا وأنظمة وأديانا مختلفة.

وكان الفرنسيون أول من استعمل كلمة الجزائر إبتداء من عام 1831. وبالنسبة لبعض فترات تاريخ اليهود بالجزائر فإن مصادر المعلومات منعدمة فيضطر المؤرخ إلى اللجوء إلى الفرضيات أو التفكير بالقياس عما يعرفه عن البلدان المجاورة. وهذا هو الحال بالنسبة لمسألة الأصول.

❶. الفينيقيون والعبريون :

كوّن الفينيقيون والعبريون خلال القرن XI مجموعة واحدة، بلغة واحدة وممارسات دينية مشتركة.

وحلّ الفينيقيون محل سكان جزر كريت في التجارة البحرية بالبحر الأبيض المتوسط وشاركوا إلى جانب العبريين في استعمار بلدان ما وراء البحر ويفترض أن يكون هؤلاء وراء تأسيس أرصفة هيبو ريجوس (عنابة) إيجلجلي (جيجل) تيبازة، إيول (شرشال)، إيكوزيوم (الجزائر)، كونوغو (قوراية) .... قبل أن تدعم قرطاجة بكثير أرصفتها الخاصة.

ويُحمل أن يكون هؤلاء اليهود قد بلغوا شمال إفريقيا برا عبر طريق مصر قادمين من هجرة فلسطينية نتيجة غزو المصريين للأرض المقدسة.

وقام الملك المصري هيجخيبري II سينيتيري IX سيراك I (950 إلى 929) عام 930 بنهب مدينة أورشليم وأخذ اليهود الأسرى إلى منطقة وادي النيل ومن هناك كان بإمكانهم التنقل إلى شمال إفريقيا.

وحسب فلافيوسي جوزيف فإنه خلال غزو بطليموس الأول سوتر عام 301 قبل الميلاد يفترض أنه نقل مائة ألف يهودي إلى مصر، ومن هناك عبروا إلى ليبيا وإلى البلدان الأخرى بشمال إفريقيا.

وأخيرا عام 18 تزوجت كلافيرا، أرملة أحد أبناء الملك اليهودي حيرود الجبار من يوبا الثاني ملك موريطانيا.

وفي السنة 40 من عهدنا ألحقت روما موريطانيا بأراضيها وقسمتها إلى مقاطعتين، الواحدة منها وهي القيصرية تضم شمال محافظات مدينة الجزائر ووهران والشمال الغربي لمحافظة قسنطينة.

وسمحت نهضة البلد بنمو نسبة السكان الحضر خاصة خلال الهجرة الكثيفة لليهود خلال النصف الأول من القرن II مع الهاربين من القمع الذي مسّ اليهود الليبيين ومصر المنتفضين ضد روما.

ويشهد على هذه الفترة العديد من الكتابات اليهودية، ففي سيرتا (قسنطينة) هناك كتابان مقبريتان لاتينيتان لشخص باسم جوليوس أنيانوس جوديوس وآخر بومبيوس رستيتوس جوديوس، وبخلفون (بالقرب من سطيف) وعوزية (عومل)، وبسطيف كانت هناك بيعة خلال القرن III كما تؤكده كتابة مهداة لـ "أفيلا أستر جوديا م. أفيليوس جانورياريوس باتر سيناغوغ". وخلال القرن IV ثم بناء بيعة بتيبازة، وحسب القديس جيروم (347 - 420) ففي زمانه كانت هناك سلسلة متواصلة من المستوطنات اليهودية ابتداء من موريطانيا إلى غاية المشرق.

فقد مارس اليهود نفس المهن التي مارسها البربر والقرطاجيون والرومان ووصفهم القديس أوغستان (354 - 430) بالكسلاء لأنهم يمتنعون عن العمل يوم "الشاباط".

والرجال اليهود يعملون في الحقول بينما النساء يغزلن الصوف ويخطن الثياب.

عام 429 اجتاح الوندال، الذين اعتنقوا الخرافة الآرية، بلاد المغرب وتحالفوا مع اليهود الذين استفادوا في ظل حكم جنسيريك وخلفائه فيما بعد من حرية دينية كاملة.

وبعد استعادة بيزنطة لبلاد المغرب عام 533 خضع اليهود لقوانين حددت من حرياتهم، وقلص الإمبراطور جوستينيات الأول (482 - 565) دائرة الصلاحيات للسلطات الدينية اليهودية بفرضه على اليهود قراءة الكتب المقدسة في لغة البلد التي يفهمها كل الحضور ومنع المبشرين إعطاء النصوص المقروءة خلال أيام الفروض الدينية معنى "يبتعد بها عن معناها" أي المعنى الذي يريده المسيحيون، وتم كذلك منع دراسة «ميسناح».

وفي المجال الاقتصادي لم يعد بإمكان اليهود كسب العبيد، فخسر ملاّك عقاريون ثروتهم واضطرهم الأمر إلى الهجرة ربما نحو الجنوب أو إلى الجهة الغربية للجزائر الحالية التي أفلتت من السيطرة البيزنطية.

وتم تحويل بيع مثل بيعة تيبازة إلى كنائس، إلا أنه وعلى الرغم من هذه التحديدات فقد كان اليهود أحسن حالا مما كانوا عليه في إسبانيا خلال القرن VII بما أن يهودا جاؤوا للإقامة بشمال إفريقيا بعدما أصدر ملوك بإسبانيا مراسيم معادية لليهود.

❶. الكاهنة:

شرع العرب في غزو بلاد المغرب عام 688 وعلى رأسهم سيدي عقبة، الهجوم الأول عام 665 مني بالفشل. فقد هزموا البيزنطيين بكل سهولة بينما ألحق بهم البربر الهزائم المتتالية من 688 إلى 708 وبالأخص في الأوراس بقيادة امرأة، هي الكاهنة.

وحسب المؤرخين العرب أمثال البكري (نحو 1040 - 1094)، الأدريسي (1100 - 1166)، ابن أبي زار (خلال النصف الأول من القرن XIV) فإن العديد من القبائل البربرية كانت تعتنق الديانة اليهودية.

ولكن تناقضات عديدة تتخلل شهاداتهم، فبالنسبة للإدريسي فإن قبيلة "نفوسة" كانت مسيحية بينما يراها ابن خلدون على الديانة اليهودية، وكتب يقول: "كان جزء من البربر يمارسون الشعائر اليهودية وهي الديانة التي تلقوها من جيرانهم الأقوياء إسرائيليو سوريا، ومن بين البربر اليهود يمكن تمييز قبيلة

جراوة التي اتخذت الأوراس موطنا لها وتنتمي إليها الكاهنة، المرأة التي قتلها العرب خلال الغزوات الأولى. أما القبائل اليهودية الأخرى فهي نفوسة، بربر إفريقيا، فندلاوة، مديونة، بهلولة، غياطة، فزاس، وبربر المغرب الأقصى".

إلا أن هذه الكتابات والروايات عن اليهود البربر تحتوي نواة تاريخية على الرغم من انعدام مراسلات متبادلة بهذا الصدد ما بين إسبانيا وشمال إفريقيا والحكماء البابليون.

وقد كان لليهود تأثير على البربر إلى درجة أن بعض القبائل تهودت في بداية العهد المسيحي عندما كان اليهود وثنيين ثم تهودوا.

وحسب ما جاء في إحدى الروايات التقليدية فإن مجموعة من سبعة من أحبار اليهود قدموا من الأرض المقدسة في تلك الفترة لتهويد السكان البربر، وبالمقابل تبربر اليهود بتبنيهم لعادات البربر كعادة التسريب الكبير للمياه خلال حفلة "شافورت" (عيد العنصرة) فهناك قديسون وأولياء يحظون بتبجيل مشترك من اليهود والمسلمين كمولاي أنريد بعين تمازير ومولاي تاماران بآيت بوزو ومولاي البيت بآيت شعيب والحبر إحيا الحلو بقصر السوق.

واعتنق جزء من البربر المتهودين الديانة المسيحية عند بداية العهد المسيحي ثم الإسلام بعد هزيمة الكاهنة التي ماتت في أرض المعركة.

واعتنق أبناؤها بعدها الديانة الإسلامية وبقوة قوامها اثنا عشر ألف فارس واصلوا فتح شمال إفريقيا وأسلمت جميع سكانه، ويفترض أن بقية اليهود البربر قد انتقلوا إلى ميزاب بجنوب إفريقيا الشمالية للإقامة هناك.

وقد يعطي التزاوج بين اليهود البربر واليهود تفسيرا للملامح الجسدية لبربر المناطق الشمالية للمغرب والجزائر المتميزة عن باقي ملامح سكان الصحراء أو التجمعات اليهودية الأخرى.

وعرف المغرب الأوسط منذ بداية القرن VIII إلى غاية نهاية القرن XIV فترة عدم استقرار سياسي دائم بسبب وجود مختلف الطوائف والأسر الحاكمة المتعددة.

ومن القرن VIII إلى غاية القرن XI كانت حياة الجاليات اليهودية غامضة ولا نعرف عنها سوى أنه بعد واقعة الكاهنة، لم يعد هناك وجود في البلاد لجالية يهودية نشيطة.

ولوحظت هجرة يهود العراق وسوريا التي رافقت الهجرة الكبرى لتلك الفترة لجموع مسلمي المشرق نحو المغرب وإسبانيا بسبب تصحر المناطق التي ينحدرون منها.

ومع الموحدين ، بربر أصوليين، الذين أرادوا إسلام جميع "الذميين" (أهل الكتاب: اليهود والنصارى الذين يتمتعون بصفة محميين) ثم القضاء على عدة جاليات يهودية . ففي عام 1142 تم القضاء على جاليات الضواحي الجنوبية وفي عام 1145 جالية وهران وفي عام 1146 جالية تلمسان وتذكرها مرثية ابراهيم إبن عزرا بوصف الاختيار الصعب الذي كان على اليهود القيام به ما بين الردة والموت وفي عام 1147 جاليات تلمسان لأن هذه الأخيرة اخترقت القوانين السارية المفعول.

وبعد هذه الاضطهادات فإننا لا نعلم الكثير عن إعادة بعث الديانة اليهودية وحياة الجاليات اليهودية النشطة إلى غاية قدوم اليهود الأسبان سنة 1391.

إلا أننا نعلم أن يهودا يعيشون بالجزائر العاصمة والعشير وبسكرة وبجاية وحامد وحنين والقلعة ومجانة والمسيلة ومستغانم وميزاب ووهران وورقلة وتابلاط وتيارت وتلمسان وتوات أين اشتهر البناؤون اليهود وتوقرت والجبال وسط البربر وبالهضاب وفي واحات الصحراء أين يمارس اليهود الزراعة وتربية المواشي.

وأهم منطقتين لوجود أحبار اليهود بالجزائر هما تيارت وتلمسان، ففي تيارت نجد من علمائهم الحبر يوبا ابن قريش الذي وضع علم اللسانيات المقارنة بتطبيقه على العبرية، بينما الاهتمام بتلمسان منصب على المسائل التطبيقية. وفيما يخص الحياة ضمن الجاليات بالمغرب الأوسط فإنها خاضعة لتأثير الحكم الإسلامي.

❸. سطورة، سرور بن حاييم ... :

لقد عرفت الجاليات اليهودية بالمغرب الأوسط تحولا حقيقيا كذلك بقدوم المهاجرين من شبه الجزيرة الإيبيرية عام 1391 بعد الثورات الإجرامية التي قام بها الحرفيون والفلاحون والبحارة والبرجوازيون والفرسان من 6 إلى 13 أوت بمدينتي كاستيون وأراغون ضد الأحياء اليهودية.

ومن قبل، في عام 1287 هاجرت مجموعة من مايورقة بعد احتلال المسيحي جاك أراغون الأول للجزيرة.

وحسب لوجييه دي تاسي كانت هناك هجرة يهودية من إيطاليا عام 1342 ومن الأراضي المنخفضة عام 1350 ومن فرنسا عام 1403 ومن انجلترا عام 1422 ومن اسبانيا عام 1462 وكلها نحو المغرب الأوسط.

وقد تمت الهجرة من إسبانيا ما بين سنة 1391 وسنة 1492 وهو تاريخ صدور مرسوم الطرد بتحويل يهودية شمال إفريقيا خلال القرن XV.

وأقام هؤلاء اليهود الإسبان أساسا بالجزائر العاصمة ووهران وقسنطينة ومستغانم ومليانة وبجاية وتنس وتلمسان "جوهرة المغرب" أين تذكر أسطورة مؤثرة وصول الحاخام إفراييم عنكاوا. وعند وصولهم شكل اليهود الإسبان تجمعات منعزلة.

وكان يعرف اليهود الأهالي بمدينة الجزائر باسم "حاملي العمائم" واليهود الإسبان باسم "حاملي القلنسوة أو البرنيطة".

وحسب رواية محلية فإن ست عائلات قد يكون أصلها إسباني وهي: سطورة وتنحدر من ابنه الحبر إسحاق بار شيشيت المدعو بارفات والمعروف أكثر بمختصر اسمه ريباك وعائلات دوران وسرور وابن حاييم المنحدرة حسب الاعتقاد مباشرة أو بالقرابة من الحاخام الأكبر سيمون بن سيماح دوران وعائلات وليد وعياش.

وقد فرضت نخبة الأحبار سلطتها وإصلاحاتها على الجاليات الموجودة فنجد أن في الجزائر العاصمة كانت سلطة ريباك (1329 - 1408) وسيمون بن سيماح دوران (1361 - 1442) هي السائدة بينما نجد في وهران راشباك،

وعمران بن مرواس الفاراتي بقسنطينة مع جوزيف بن منير (حاسيد) وميمون بن سعدية نلجار وبتلمسان إبراهيم بن حكيم وإفرايم عنكاوة.

ومن بين هؤلاء الأحبار نجد أن ريباك وبن سيماح دوران هما صانعا نهضة حقيقية لليهودية بالجزائر.

وقد أسفر عن المعارضة الشديدة التي أبداها دوران تجاه ريباك الذي عينه سلطان تلمسان حاخاما أكبر على مدينة الجزائر، منع أية "سلطة خارجية" من تعيين الحاخامات.

فلم تعد السلطة داخل الجالية حكرا على شخص واحد بل آلت إلى مجلس قدماء.

وتبعا لطلب مختلف الجاليات مراجعة قوانين الزواج والميراث وتوحيد التقاليد المعمول بها في شمال إفريقيا، حرر سيمون بن سيماح دوران أوامر عرفت باسم: "تاقانوت" مدينة الجزائر.

ففرض هذا النص، ابتداء من تلك اللحظة تشريعا للزواج - لا يزال يعمل به إلى يومنا هذا في غالبية الجاليات اليهودية.

وتؤكد هذه الأوامر سلطة القضية المنتخبة و "المعلن عنها في البيعة يوم شباط قبل مغادرة سفر التوراة".

فبفضل "ريسبونسا" سيمون بن سيماح دوران بإمكاننا اليوم أن نطلع عن الوضعية السياسية والاجتماعية لليهود خلال بداية القرن XV والتي يمكننا أن نصفها بأنها "مناسية". وكان معظم اليهود يتعاطون حرفة التجارة وإعادة بيع نفس المنتجات والبيع بالتجوال. وهو النشاط الذي استمروا عليه فيما بعد خلال فترة حكم الأتراك.

❹. صدام الثقافات :

خلال فترة الحكم العثماني، كان من الأهمية بمكان التأكيد على الدور الهام الذي أداه اليهود "اللفورنيون" ومن المؤكد طبعا أن نتساءل عن الطبيعة الليفورنية لهؤلاء اليهود بل أكثر من ذلك نتساءل عن التعريف الذي نعطيه لليفورني.

فالواحد من اليهود يكون ليفورنيا بالولادة أو حتى بالانضمام إلى جاليه ليفورت، ولكن هذا التعريف غير كاف.

فأن يكون الواحد ليفورنيا، يعني أن يكون له تصرف مختلفا تماما عن تصرف اليهود الأهالي ويتخد أساسا صفة "اليهود الأحرار" ويكون الغرض منه المحافظة على الكرامة (ويبرز من ناحية اللباس في ارتداء الثوب الأوربي).

وبكلمة بسيطة فإن ما يميز الليفورني عن الأهلي ليس الأصل الجغرافي (بما أن الليفورنيين حديثو النشأة يعودون إلى بلدهم الأصلي) وإنما هو الانتساب إلى ثقافتين مختلفتين: الثقافة العبرانية والثقافة الأوربية.

فحظوة وامتيازات الليفورنيين تعود في غالبيتها إلى التأثير الذي مارسته مدينة ليفورن الإيطالية على يهودي محيط البحر الأبيض المتوسط بما فيها يهود شمال إفريقيا.

ويعود هذا التأثير في نطاقه الواسع للوضعية الاستثنائية المواتية لليهود في هذه المدينة التوسكانية بفضل المنشور الصادر في 10 جوان 1593 والذي عرف باسم "ليفورنينا" واصدره فرديناند دي ميديسيس الأول الدوق الأكبر لتوسكانيا (1587 - 1607) الذي كان يلزم الأجانب وعلى وجه الخصوص اليهود بالقدوم إلى الموانئ الحرة لبيزة وليفورن والإقامة بها.

خلال فترة حكم الأتراك دأب يهود مدينة الجزائر على تنظيم قوافل لتنقل إلى قسنطينة وإلى كل الأقاليم الواقعة تحت سلطة الداي كلا من الحرير والأقمشة والخردوات الأوروبية.

وحسب بيير دان فإن اليهود كانوا يصلون خلال القرن XVII بسلعهم إلى تونس وجربة وطرابلس وعنابة وقسنطينة، وهران، تلمسان، فاس وتيطوان وبلغوا في تجوالهم هذا حتى القسطنطينية.

خلال القرن XVIII وحسب الكتاب المسيحيين فإن اليهود هم دائما الذين كانوا يشترون غنائم القراصنة البربريين وينقلونها إلى مدينتي جنوة وليفورن.

وحتى يجنبوا أنفسهم عواقب الكراهية التي يضمرها لهم المسيحيون، عرف اليهود كيف يجلبون اهتمام شخصيات هامة مثل الداي نفسه إلى عملياتهم التجارية.

كما شكلت المتاجرة في العبيد النشاط الثاني الذي نتج عن أعمال القرصنة. وقد احتكر اليهود الليفورنيون تصدير بعض المواد (القمح الصلب، الشمع، الجلود وريش النعام ...)، بينما الواردات (الموصلية الهندية والسكر والبن ...) فكان مصدرها الأساسي مدينة ليفورن.

وباستثناء بعض العائلات التي جمعت أموالا طائلة من نشاطها التجاري، فإن السواد الأعظم من اليهود يركع تحت وطأة بؤس مدقع ويزاول كل الحرف الممكنة من أجل رفع هذا الغبن.

فحسب شهادة ب. دان الذي أقام بمدينة الجزائر خلال الفترة مابين 1634 – 1635 فإن "هناك من اليهود من يبيع لوازم مختلفة عبر الشوارع حاملا بين ذراعيه سلالا أو علبا وهو ينادي"، "من يريد الاقتناء؟" ، "وآخرون في جهات أخرى صانعو حلي مرجانية أو باعة عقاقير".

ولاحظ ريهبندر خلال القرن XIII أنه "عبر شارع متسخ بالقرب من قصر الداي هناك على جنبتي الطريق دكاكين يمارس بها اليهود فقط صناعة الذهب والفضة، ولكن أغلبهم يكسبون القليل لتعاملهم مع أهل المدينة وأعمالهم فنية ورائعة".

❺. الذمة أو العهد الإسلامي :

لقد خضع يهود الجزائر مثلهم مثل جميع اليهود في البلدان التي اعتنقت الإسلام، خلال الفترة التي حكم فيها الأتراك لنوع من العقد عرف باسم الذمة يجدد باستمرار والذي تمنح بموجبه الجالية المسلمة المأوى والحماية لأعضاء الديانات السماوية الأخرى (أهل الكتاب شريطة أن يحترم هؤلاء

السلطة التي تمثلها الديانة الإسلامية). إلا أن هذه القوانين التي تنص عليها السلطة الإسلامية تخضع في مجملها من ناحية التطبيق للسلطة المحلية.

وحتى يتم العرف على اليهود فرض عليهم لباس معين، فقد منعوا من ارتداء الثوب الأخضر (المخصص لسلالة النبي) أو الأحمر (لون الراية التركية) ومنع عنهم كذلك ارتداء الشاشية والعمامة البيضاء والبرنوس الأبيض.

ولم يسمح لهم إلا بارتداء أثواب ذات ألوان داكنة وذات أكمام مفرطة وفوق قمصانهم كان يرتدي الرجال سراويل عريضة وفضفاضة وكانت برانيسهم في أغلب الأحيان زرقاء.

وكتب الحاخام كاهن يقول أن برنوس اليهود بمدينة الجزائر كان أزرق قاتما بينما كان بإقليم التيطري رماديا داكنا، وبإقليم قسنطينة سمح لهم لفترة محدودة بارتداء البرانس ونوع من العمائم وأحذية مماثلة لأحذية العرب.

هذا الترخيص العارض سرعان ما سحب منهم لأن الأمر كله كان خاضعا لأهواء ورغبات الداي، فلم يكن يسمح لليهود إلا بانتعال النعال التي تكون أقصر من القدم بحيث أن العقب يلامس ويمسح باستمرار بلاط الأرض.

وحدث أن تمّ في 13 ديسمبر 1788 توقيف بمدينة الجزائر جميع اليهود المخالفين لقانون المنع هذا وجلدوا 300 جلدة على أخمص أقدامهم.

ولا يمكنهم بشوارع مدينة الجزائر حمل الأسلحة أو الخروج ليلا بفانوس مشتعل، والإنارة الوحيدة المسموح بها هي ضوء شمعة تمسك باليد والتي غالبا ما يطفئها الريح.

وبعد السادسة مساء لا يمكنهم التنقل إلا إذا كانت لديهم رخصة صادرة عن السلطة العليا.

وبصفة عامة كان لهم الحق فقط في اكتساب الحمير والبغال كدابة للركوب ولكن دون استعمال السروج بينما يمنع عنهم اكتساب الحصان كونه حيوان ذو أصل نبيل.

وإذا التقى أحد اليهود مسلما في سيره عليه أن يفسح له الطريق جهة اليمين ويتنحى هو جهة اليسار وهذا كإشارة لاحترامه له.

وعند المرور أمام مسجد أو مدرسة دينية عليهم خلع نعالهم وإذا صادف وكان الباب مفتوحا فعليهم غض الطرف والنظر إلى الجهة المقابلة حتى لا يشاهدوا المؤمنين وهم يؤدون الصلاة وفي حالة المخالفة يتعرضون للضرب، ويصل الأمر بهم أن يكونوا في بعض الأحيان محل تهكم السكان.

كما منعوا من زيارة الأماكن العمومية التي يتردد عليها المسلمون باستثناء المتاجر العامة، وعند منابع الماء عليهم فسح المجال أمام المسلم في كل الأحوال إلا إذا كان هذا الأخير قد وصل بعدهم.

وفيما يخص الخلافات القائمة بين اليهود والمسلمين فإنها من اختصاص القاضي الذي يتعين على اليهود تقبيل يده، وشهادة اليهود وأقوالهم لا تبطل بمجرد إنكار المسلم لصحتها، وبالنسبة للخلاف بين اليهود أنفسهم فيما يتعلق بقضايا الزواج أو الطلاق أو الميراث فإن الفصل فيها يعود للحاخامات خلال جمع علني برحبة البيعة.

فصلاحيات محكمة الأحبار بالنسبة لليهود هي نفس صلاحيات القاضي بالنسبة للمسلمين، فهم يفصلون في القضايا "الجنائية والمدنية" وأحكامهم غير قابلة للاستئناف، وتحت تصرف الأحبار قوة خاصة من الشرطة تمكنهم من تنفيذ أحكامهم كالغرامات والجلد والحبس وكذا قرار التهميش في المجتمع.

وعلى رأس هيئة القضاء يوجد في كل مدينة رئيس للأمة اليهودية يعينه الداي ويدعى المكدم (أو المقدم ويعني الموضوع على رأس الأمة) ويتمثل دوره في إدارة شؤون الأقلية اليهودية باسم الداي، فهو يحصّل الرسوم والضرائب حسب ثروة كل يهودي ويقدمها "عن يد وهو صاغر".

وعند تسليم الجزية "يتلقى المقدم لطمة أو ضربة بقبضة اليد على رأسه من باب الخضوع والطاعة لتعاليم القرآن".

الغارة على المدن الكبرى

❶. الجزائر العاصمة

❷. وهران الإسبانية

❸. تلمسان الفاسي، "الأرض الموعودة"

❹. الأغنياء و الفقراء

❶. الجزائر العاصمة :

يعود تاريخ وجود اليهود بالجزائر العاصمة إلى فترة إفريقيا الرومانية، حينما كانت تعرف الجزائر باسم إيكوزيوم، فهذا المكان لم يكن بعد سوى ميناء صغير محصن ذا سكان قلائل وحسب ما يبدو فإن اليهود لم يقيموا بها سوى في القرن III.

وبعد مدة وجيزة من نشر النبي محمد صلى الله عليه وسلم الإسلام في شبه الجزيرة العربية، أصبح الفاتحون العرب سادة "المغرب الأوسط"، فهذا البلد الذي توافق حدوده بالتقريب حدود الشمال الجزائري الحالي سيخضع لسلطة الخلفاء الأمويين.

وكانت عاصمة خلفاء الرسول هؤلاء بدمشق ودام حكمهم من 650 إلى غاية 750.

وخلال فتوحاتهم، كان الفرسان العرب يصطحبون معهم ممونين وتجارا يضمنون لهم إمداد فرقهم، وبين هؤلاء كان هناك يهود من اليمن الجنوبي ومصر من أتباع الاعتقاد "البابلي" وأقام البعض منهم بإيكوزيوم.

واعتبر القرن X الأندلسي العصر الذهبي للتعاون وفي بعض الأحيان التكافل بين اليهود والعرب، فكل ما كان يحدث بقرطبة كان له عظيم الأثر خلال القرن X على الأحياء العتيقة للمغرب الأوسط وفي هذه الفترة بالذات توسعت إيكوزيوم التي كانت لمدة طويلة ميناء ثانويا وأصبحت مدينة جديدة كبيرة تعرف باسم الجزائر.

فتجمع بالجزائر اليهود الذين كانوا إلى غاية تلك الفترة أقلية بإيكوزيوم في جالية منظمة ("جماعة اليهود").

فأقامت هذه الأخيرة خلال القرن XI روابط ناجحة مع الجاليات اليهودية بالمدينتين -بجاية (بوجي) وتلمسان- اللتين استولى عليهما المرابطون وأقاموا بهما إداريين مسيرين مثقفين وفي بعض الأحيان متسامحين (ولكن ليس في غالبية الوقت).

وفي بداية القرن XII ارتبطت الثقافة اليهودية بالجزائر مباشرة بثقافة تلمسان التي أصبحت بحاخاماتها العارفين بعلوم التلمود وبفلاسفتها وأطبائها المشهورين أكثر المراكز إشعاعا لليهودية بالمغرب الأوسط.

إلا أن "زمن الاحتقار" والاضطهاد وفي بعض الأحيان حتى عمليات الذبح عاد من جديد.

فقد نازع خلفاء جدد محتلين وهم الموحدون، بربر المغرب العربي (المغرب الحالي) سلطة آخر خلفائهم وقضوا نهائيا على قواته عام 1147 وزحفوا نحو الشرق محتلين واحدة تلو الأخرى مدن تلمسان والجزائر وبجاية، وكان الموحدون ينصّبون في كل منطقة جديدة يصلون إليها (وسيبلغ توسعهم تونس ونواحي طرابلس الليبية) إدارة عسكرية معادية كل العداء لليهود.

ابتداء من عام 1140 سيعملون على تفريق شمل الجاليات اليهودية التي كانت تعيش جنوب المغرب الأوسط والتي سيفر البعض منها نحو الجزائر المدينة.

فبهذه المدينة أين فرض عليهم ممثلوا الخليفة أبو يوسف المنصور ارتداء ثوب أسود بأكمام طويلة، انطوى اليهود المضطهدون والمضعفون على أنفسهم في أحيائهم، وانصهر عدد كبير منهم بالتدريج في جموع المسلمين وتخلوا عن ممارساتهم وعن الحديث بالعبرية وحتى عن معرفتها.

كما وجد البعض الأخر منهم الملجأ لدى البربر المتهودين منهم وغير المتهودين بمنطقة القبائل المجاورة، وكان القرن XII مرحلة قاتمة بالنسبة ليهود الجزائر.

فيما بعد بين أعوام 1250 و1260 انهارت وتفككت الخلافة العظمى التي كانت توحد العالم العربي من الفرات إلى المحيط الأطلسي مدة خمسة قرون مضت.

فاستفادت الجاليات اليهودية التي شرعت في إحياء قوانينها من الفوضى الناتجة عن هذا التفكك، وغالبا ما كانت تتحصل من السلطات على حق إعادة تنظيم شؤونها وتنميتها ولكن دون أن يعاد النظر طبعا في قانون "الذمة"، وعرف هذا النمو تسارعا كبيرا خلال القرن XIV.

وستشهد الجاليات اليهودية بتلمسان وبجاية توسعا اقتصاديا كبيرا بفضل تجارتها مع اسبانيا.

راشباك وريباك :

بالجزائر المدينة كان الاندفاع الاقتصادي أقل حدة بينما عرف الجانب الديني والثقافي نموا معتبرا، ويعود هذا النمو الذي عرفته اليهودية في غالبيته إلى الجهود التي بذلها عالم تقي وهو إسحاق بن شيشيت المدعو "بارفات" والمعروف باسم "ريباك" الذي كان حاخاما أكبر ببرشلونة، ثم سراغوسة قبل أن ينتقل إلى الجزائر ويصبح الحاخام الأكبر لمدينة الجزائر.

فوحد ريباك الجالية اليهودية بمدينة الجزائر التي تعجّ بالتيارات المختلفة، فأحيى التقاليد العبرية وأملى على يهود مدينة الجزائر قواعد سير نسخها عن القوانين المعمول بها لدى اليهودية الأسبانية "فالعادة القشطلية" تولّد "العادة اليهودية لمدينة الجزائر" التي سيستلهم منها فيما بعد القانون العرفي لليهودية الجزائرية.

بعد وفاة ريباك بمدينة الجزائر عام 1400 واصل إنجازه عالم آخر مشهور هو سيمون بن سيماح دوران المعروف باسم راشباك المولود عام 1361 والمنحدر من عائلة يهودية من لنغدوك مقيمة بمايورقة. مارس راشباك مهنة الطب ببرشلونة قبل لجوئه إلى مدينة الجزائر فراراً من الاضطهاد الكاثوليكي حيث سيصبح الحاخام الأكبر بعد موت ريباك.

وكان لنشاط راشباك قولا وكتابة بالجزائر المدينة عظيم الأثر في نهاية القرن XIV والجزء الأول من القرن XV، فسيكون له دور خلال عامي 1420 و1421 في إعداد "إتفاقية تقع في اثنا عشر مادة تتعلق بالزواج والميراث عند اليهود" ونجد كذلك أثره في "تاقانوت" (تعليمات الحاخامات) التي ستجمع وتنشر عام 1444، أي قبل وفاته بسنتين.

بعد وفاته وري جثمانه التراب بجانب جثمان ريباك بالمقبرة اليهودية الكبرى لتلك الحقبة بالقرب من باب الوادي، وسيتحول قبرا هذان القديسان بالنسبة للكثير من اليهود مزارا وهذا إلى غاية القرن XIX حتى بعد نقل رفاتهما إلى مقبرة القديس أوجين ببولوغين أين يمكن أن نرى قبريهما إلى غاية اليوم خلال ضريح يحميهما (ببولوغين الحالية).

* **التوشافيم والميغوراشيم :**

في نهاية القرن XIV بعد الأحداث المناوئة لليهود سنة 1391 بمدينتي أراغون وقشتالة لجأ الكثير من اليهود إلى المغرب الأوسط فراراً من الاضطهاد المسيحي باسبانيا.

ومنذ هذه الفترة كان الانشطار الذي ميز عن طريق الهيئة واللباس بين الميوراشيم (اليهود اللاجئين القادمين من اسبانيا) والتوشافيم أو بالأحرى اليهود العرب.

ففي الجزائر المدينة يضع الميغوراشيم على رؤوسهم برنيطة بينما يلف التوشافيم رؤوسهم بلحاف من القماش واستمر هذا التمايز ضمن تقليد حافظت عليه بعض العائلات اليهودية بمدينة الجزائر إلى غاية القرن XX، وخلال الشباط الذي يلي حفل الزفاف يتم إحياء هذا التمايز القديم ليوم واحد، فبعد حفل الزفاف يضع الأشخاص الحاضرون على رؤوسهم إما برنيطة أو عمامة.

وخلال القرنين XIV وXV كان يعيش التوشافيم بمدينة الجزائر مركب نقص واضح تجاه الميغوراشيم ذوي المستوى الثقافي الأعلى وأبدى التوشافيم قابلية للتأثر بهم.

وزادت هذه الظاهرة حدة خلال نهاية القرن XV عندما أنهيت عملية "إعادة الفتح" وطرد "الملوك المتسامحين جدا" من مملكتهم بموجب منشور 31 مارس 1492 كل اليهود الذين لازالوا يقيمون بالأراضي الإسبانية (ما بين 150.000 و 200.000).

فوجد الكثير من الفارين ملجأ بمدن المغرب الأوسط وبالخصوص مدينة الجزائر، وهنا سيكون لمساهمتهم الثقافية عظيم الأثر في إحياء وإثراء اليهودية المحلية التي أبرزوا فيها البعد "الإسباني".

وفي عام 1516 أطاح بابا عروج ("بربروس") بالأسرة الحفصية الحاكمة بتونس وجعل من الجزائر عاصمة الإقليم الواقع تحت سيطرته وجعله رهن إشارة وسلطة الإمبراطورية العثمانية.

سنتان فيما بعد عندما قتل هذا القائد الحربي بتلمسان خلفه أخوه خير الدين الذي أعلن نفسه تابعا للسلطان العثماني سليمان الأول و"باشا على الجزائر المدينة" محددا أن المقصود من هذه التسمية كل الإقليم الخاضع لمركز قيادة مدينة الجزائر، وهو الإقليم الجغرافي لما سيتعارف عليه الأوروبيون باسم الجزائر بتمييزها عن عاصمتها مدينة الجزائر حتى لا يكون هناك خلط بين الإثنين.

فالسادة والحكام الجدد أقوياء لأن علاقتهم بالسلطان العثماني بقيت دائما "رخوة" وحرية تصرفهم كبيرة.

فهؤلاء الحكام الظلمة عاملوا اليهود بقسوة إلا أن هؤلاء وبما فيهم الميغوراشيهم الذين لا يزالوا يتذكرون بألم شديد الاضطهاد الذي تعرض له أجدادهم بإسبانيا يفضلون السلطة التركية العربية على الحكم الإسباني الكاثوليكي، فاتخذوا موقفا معاديا لملك إسبانيا شارل الخامس ومؤيدا لحاكم مدينة الجزائر خير الدين.

وفي 23 أكتوبر 1541 عندما أخفق شارل الخامس في محاولته الأخيرة للاستيلاء على مدينة الجزائر اتخذت الجالية اليهودية بالعاصمة من هذا اليوم "يوم صوم واستبشار"، فهذا "البوريم" لمدينة الجزائر سيتحول إلى عيد محلي تقليدي سيتم إحياؤه لسنوات طويلة في بعض العائلات اليهودية في "هيشفان" 4.

*** اليهود النصارى :**

سيحتل يهود ليفورت أو "اليهود النصارى" (ومن بينهم رؤساء العائلات الكبرى: بوشناق، سرور، بوشاره، كومين - بكري، أبو كاية، بكري) مركز الحياة السياسية بمدينة الجزائر خلال القرنين XVII و XVIII.

فقد شاركوا عن كثب على سبيل المثال في المفاوضات مع الحكم التركي بخصوص "المقدم" أي بمعنى آخر رئيس "الأمة اليهودية" للمدينة. "فالمقدم" ينتمون في أغلب الأحيان إلى العائلات الكبيرة التي تنظم تجارة

نشيطة تتخذ شكل المثلث ما بين ليفورت الإيطالية ومرسيليا ومدينة الجزائر خاصة خلال القرن XVIII .

فهذه العائلات الكبيرة هي التي تسير النشاطات الاقتصادية لخمسة عشر ألف يهودي المقيمين بالعاصمة بينما تشهد النشاطات الدينية لليهودية بمدينة الجزائر تأثير كبار الحاخامات، العلماء النشطين ويمكننا أن نذكر من بينهم الحاخام بن يامين دوران والحاخام أبو الخير والحاخام سيدون والحاخام مراتي والحاخام توبيانا.

وأغلب هؤلاء الحاخامات من أنصار إصلاح عصري للممارسة الدينية وهو الأمر الذي لم يرق في عمومه " للمقدم " المعروفين بطبعهم المحافظ.

* **باب الوادي " مكان للعذاب "** :

كان أحد أدوار المقدم خلال القرن XIX تهدئة الروح العدائية لدى المسلمين تجاه اليهود عندما يزداد هذا العداء حدة، ففي بعض الأحيان كانوا ينجحون في مهمتهم هذه ولكن في غالب الأحوال كان الإخفاق حليفهم، وعلى الرغم من توسل المقدم، قام أحد الدايات بتخريب جميع البيع القائمة بمدينة الجزائر عام 1807 لأنه استاء من تباطئ الجالية في تسديد الضريبة الاستثنائية المفروضة عليهم. وأن التسديد لم يتم بالسرعة المطلوبة.

ونجد فيما بعد دايا آخر يضخم من الإجراءات التي تسمح بتوقيف اليهود المتهمين أو حتى المشكوك فيهم بعدم احترامهم للدين الإسلامي. فاليهود الذين ثبتت في حقهم " الجنحة " يتم جلدهم بباب الوادي . فمهمة المقدم في غاية من الأهمية والحساسية مما جعل دايات مدينة الجزائر يعملون على إضعاف الجالية اليهودية بدس الخلافات مابين العائلات الكبرى التي يتعاملون معها.

فهم يستغلون بصفة عامة الخصومات القائمة بين العائلات الكبيرة "لليهود الأسبان" الذين رفضوا أن يصبحوا "يهودا نصارى" أو لم يتمكنوا من ذلك والعائلات الأخرى التي تمكنت من ذلك الامتياز.

ويحدث للدايات أيضا التوغل داخل كل واحدة من هاتين المجموعتين والمراهنة على المعارك المريرة القائمة بين جانبي العائلتين (على سبيل المثال داخل مجموعة "اليهود النصارى" نجد جانب بوشناق وجانب بكري اللذين يعتبر الخصام بينهما تقليديا). وخلال القرن XIX اتخذت سياسة "فرق تسد" التي اتبعها دايات مدينة الجزائر وقادة الإنكشاريين - جنود حرس الحاكم الطاغي - طابعا إجراميا وغالبا ما كانت الشخصيات اليهودية الكبيرة التي كانت تطمع في منصب مقدم تفقد حياتها.



يهودية من مدينة الجزائر
خلال فترة الحكم التركي



يهودي من مدينة الجزائر
خلال فترة الحكم التركي



باب الوادي خلال 1830: سيشيد في هذا الموقع فيما بعد ثانوية بيجود (ثانوية الأمير عبد القادر)
وحي نيلسون (مقابل المديرية العامة للأمن الوطني).

❷. وهران الإسبانية :

بموقعها على أبواب المغرب، وهران قريبة جدا من إسبانيا ....

ويبدو أن تاريخ الوجود اليهودي بالمدينة إلى جانب تنمية المنطقة قد طبعا بختم التأثيرين المغاربي والإسباني وهو تأثير كاد أن يمتزج خلال فترة حكم المسلمين لإسبانيا.

ففي القرن XI ربطت إعادة الاحتلال المسيحي لإسبانيا رباطا وثيقا مصير المسلمين واليهود فالكثير منهم اضطر للهجرة.

فانطووا في بادئ الأمر على أنفسهم بالأندلس ومن هناك وبعد طردهم نحو الجنوب، ركب بعضهم البحر نحو وهران، فحمل المسلمون واليهود إليها معا حضارة أندلسية مشتركة، وجاءت هذه المساهمة لتدعم ما كان موجودا في مدينة أسسها من قبل قادة عسكريون أندلسيون خلال القرن X.

وفور وصولهم إلى وهران ساعد اليهود الأسرة البربرية الحاكمة للمرابطين على استمرار جهود الحرب ضد مسيحيي اسبانيا، فخضعوا للجزية،

ولكن مساهمتهم لم تقتصر على الجانب المالي، فهم حاربوا إلى جانب المرابطين وكانت هناك فرقة من المرتزقة اليهود ضمن جيش المرابط يوسف.

وفي عام 1145 عند استيلاء الأسرة الحاكمة للموحدين على وهران التي وحدت تمت سيطرتها على المغرب بكامله يذكر المؤرخ العربي ابن بيداق أنه وقعت أزمة عدم تسامح ديني بوهران، فقد قرر الموحدون فرض الإسلام بالقوة على كل الذميين (المحميين) المقيمين بمملكتهم، فمنع اليهود من التصرف وفق هويتهم علنا.

فقد بهذه الصورة كل أثر للوجود اليهودي بوهران إلى غاية قدوم موجة جديدة من المهاجرين اليهود من اسبانيا وهم الناجون من الاضطهاد الأكبر المعلن بالأندلس عام 1391.

فتحولت وهران إلى ميناء مزدهر بمثابة المنفذ البحري لمدينة تلمسان عاصمة الزيانيين (1235 - 1393) التي كانت تربطها باسبانيا وبغيرها من بلدان الجهة الغربية للبحر الأبيض المتوسط تبادلات وعلاقات تجارية.

إلا أن النازحين الجدد من إسبانيا وجزيرة مايورقة حملوا معهم مهارتهم التجارية التي اكتسبوها في الأسواق الأوروبية، ومنهم من كان يتمتع بالعيش الرغيد، فالبعض منهم تمكن خلال فراره من نقل جزء من ثروته معه وبفضل تقدمهم التقني والعلمي تحولوا بسرعة. إلى منافسين لا يستهان بهم لليهود الأصليين المشاركين في التجارة والنشاط التجاري للمدينة كما أحدث مجيئهم أزمة عميقة في صفوف الجالية اليهودية.

فقد عاش اليهود الأصليون قرونا عدة في اتصال دائم مع العالم الإسلامي فهم يتكلمون اللغة العربية وعاداتهم تقربهم من المسلمين، أما اليهود الإسبان فقد حملوا معهم لغتهم وحقوقهم الزوجية وكل ماضيهم الإسباني بما فيه أساطير مشهورة عن "خروجهم من إسبانيا"، فالصدام بين الثقافتين كان عنيفا.

فحاول الحاخام عمرام مرواس إفرتي، المقيم بوهران منذ عام 1391 على سبيل المثال محاربة عادة البكاء لسبعة أيام في المقابر المأخوذة عن المسلمين،

إلا أن حكماء طرفي الجالية سعوا بكل صدق إلى الحفاظ على الوحدة "فعرف اليهود (الإسبان) حاملي البرنيطة كيفية وضع العمامة".

وإدراكا منهم للتجديد الذي حمله اليهود الإسبان قلّص ملوك عبد الويد الذين خلفوا الموحدين في حكم المنطقة الغربية للجزائر الجزية المفروضة عليهم إلى النصف.

وتم تسهيل العمليات التجارية مع إسبانيا وإيطاليا وكذا نوع من الانتعاش الاقتصادي لمدينة وهران. وعرفت حركة هجرة اليهود من شبه الجزيرة الأيبيرية استئنافا معتبرا عام 1492 بعد سقوط غرناطة وسينتج عنها اندفاع جديد للمدينة خلال سنوات 1500.

لكن الكثافة السكانية لليهود بقيت متواضعة وعددهم القليل لا يسمح لهم بإنشاء جالية قانونية مستقلة فيهود وهران لا يملكون "ديان" (قاضي ديني) وعليهم التنقل إلى تلمسان للفصل في القضايا الهامة.

في عام 1505 استغل الإسبان ضعف وانقسام الأسرة البربرية الحاكمة واستولوا على مرسى الكبير ثم على وهران عام 1509.

ولم تغب الأهمية الإستراتيجية والتجارية للمدينة عن المفتش الأكبر وقنصل إسبانيا الكاردينال كزيمينيز دي سيسنروس، الذي كان يرغب في نفس الوقت بإنشاء مصرف تجاري بها ومقاومة القراصنة الأتراك الذين شرعوا منذ نهاية XIV في بسط النفوذ العثماني شيئا فشيئا على المدن الساحلية.

وخلال هذا الاحتلال الإسباني الأول سيعرف مصير الجالية اليهودية بوهران وضعا متناقضا. فالسلطة الإسبانية التي طردت اليهود نحو وهران، ستظهر خلال هذه الفترة بصفة المتسامح معهم، بل أكثر من ذلك ستعتبرهم "أهلا للثقة والمحبة وتبادل المصلحة" فكيف يا ترى يمكن تفسير هذا التحول؟

وعند قدوم الأسبان تعاون اليهود والمسلمون على الفرار ولجؤوا إلى الأقاليم الواقعة تحت السلطة التركية خشية القانون الديني المسيحي، وبالفعل فرض الإسبان التحول عن الدين وجعلوا من المساجد كنائس وأنشؤوا الدير المسيحية.

وقاموا بترميم الحصون وأعادوا بناء "كاستيو فييخو" (البيت القديم) على أنقاض وفي مكان الحصن الذي هدموه وبعيدا نحو الغرب أقيم أول مركز عسكري إسباني "للبيانكا" حول الكنيسة و "بلازا مايور" (ساحة مايور).

فتم عزل مدينة وهران خلف هذه الأسوار المتينة، إنها ساحة معزولة عن الجهة الداخلية للأراضي، صحيح أنها تحولت إلى موقع استراتيجي للمراقبة بإفريقيا وكذلك قاعدة بحرية ولكنها تحولت أيضا إلى مدينة فقيرة مهددة في أغلب الأحوال بالمجاعة لأن تموينها لا يمكن أن يتم عن طريق البحر.

وكان يعيش وراء الأسوار "موروس دي باز" "العرب المسالمون" الذين يضمنون التموين بالقمح والماشية ولكن بمشقة كبيرة، لأن القوافل غالبا ما كانت تتعرض للحجز أو النهب.

وأمام عزلة المدينة لم تستغرق سلطة فيليب II وقتا طويلا حتى تدرك الأهمية والمنفعة اللتان يمكن استخلاصهما من نوع من التسامح مع اليهود الذين يعتبرون الوسطاء الأكفاء بين المسيحيين وأعدائهم المسلمين.

واعتلى بعض اليهود الذين بقوا بالمدينة على الرغم من الأخطار المحدقة بهم مكانة هامة وقدم آخرون للإقامة بالمدينة أيضا، فأغلبهم يعيشون من التجارة (من التاجر الجوال إلى أكبر المفاوضين) أو من الحرف التقليدية لليهود في أرض الإسلام كالدباغة وحرفة الإسكافي والصياغة.

وبصفتهم مفاوضين فقد كانوا يتحكمون في تموين الحامية وإعادة بيع الغنائم من الغارات الإسبانية في أراضي العدو وفي بعض الأحيان يكونون وسطاء في تجارة العبيد.

والأهم أنه بفضل تاريخهم الذي منحهم فرصة تعلم اللغات ومعرفة ذهنيات وأهداف أعدائهم سواء المسيحيين أو المسلمين سيحتل اليهود الوهرانيون أمثال يعقوب كانسينو أو الحاخام الشهير يعقوب ساسبورتاس مواقع هامة كتراجمة رسميين أو جواسيس، وتأثيرهم لا يمكن إغفاله فهم

بإمكانهم التفاوض مباشرة مع الأتراك في حالة تعرض إخوانهم في الدين لهجوم خلال أسفارهم.

وكان السكان اليهود يعيشون في معزل عن الحي الإسباني في حي منفصل محاط بجدران وتسهر على أمنه سرية مسلحة.

وشيئا فشيئا نشأت روابط بين الجاليات، فخلال بعض الحفلات تتم استضافة المسيحيين في البيوت اليهودية وبالنسبة للنساء اليهوديات فإنهن لا يخرجن إلا في المناسبات القليلة فهن معروفات بطابعهن المتحفظ ولكن يحدث أن يزرن وهن مرفوقات ببعض الصديقات المسيحيات.

ومع ذلك هناك بعض ما يعكر هذا الجو وهي المسائل الاضطرارية المتعلقة بالدين كمنع توسيع البيعة أو وجوب البقاء ضمن حدود اليهودي وعدم مغادرتها خلال الأسبوع المقدس.

وابتداء من النصف الثاني من القرن XVI شكلت وهران البقعة الوحيدة لإسبانيا المسيحية المتشددة أين ينعم اليهود بروح التسامح وأكثر من ذلك يثيرون الإعجاب.

فأثار هذا الوضع تهجمات داخل الحكومة واستؤنف إزعاج اليهود من جديد والذي أدى بالبعض إلى تحويل دينه كما حدث مع ابن الحاخام يعقوب ساسبورتاس عام 1650.

وفي رسالة وجهها حاكم وهران إلى المحقق الإسباني الأكبر طالبه أن "يطهر البلاد من ذرية الشيطان"، فتم إصدار أمر بالطرد بتاريخ 31 مارس 1668، وبتاريخ 16 أفريل 1669 حسب ما يذكر الحاخام هارون سيبوني اضطرت عاصفة "سماوية" الباخرة المقلة لليهود المنبوذين إلى العودة إلى مرفأ ميناء مرسى الكبير.

ولكن في 22 أفريل من نفس السنة طرد 446 يهودي (أو 476 حسب المصادر) من وهران، وكان إسحاق كانسينو هو الوحيد الذي طلب التحول عن دينه وسمح له بعدها بدخول المدينة.

أما اليهود المطرودين فقد توزعوا على مدن ليفورت وفيل فرانش ونيس وفي عام 1678 شيدت كنيسة في موقع البيعة القديمة وسميت بكنيسة القديس مسيح الصبر وستصبح فيما بعد كنيسة القديس لويس. فالتحويلات المتتالية لهذا المكان تروي وتشير لنا إلى مصير يهود وهران إلى غاية الاحتلال الفرنسي.

ثم استولى باي معسكر المدعو بوشلاغم (الرجل ذو الشارب) على المدينة عام 1708 ولم يكن تعداد سكانها آنداك سوى ألفي نسمة، فتوافد عليها اليهود والمسلمون وعلى أطلال كنيسة القديس مسيح الصبر بعد هدمها سمح الأتراك ببناء بيعة جديدة ومارست الجالية اليهودية شعائرها الدينية بكل حرية وانتظمت في شكل قانوني يضمن لها استقلاليتها وفي هذا الجو زاد عددها إلى درجة سمح لها باكتساب ديانيم (قضاة دينيين) لها وحدها وهم على التوالي يوسف شوشانة وموسى إسرائيل.

*** 1790 الزلزال :**

إستطاع الإسبان استرجاع مدينة وهران في ظل حكم فيليب الخامس بعد الانتصار الدموي بعين الترك وألحقوا بفعلهم هذا ضررا بأعدائهم الإنجليز في البحر الأبيض المتوسط الذين اعتبروا مدينة وهران بمثابة قاعدة تجارية.

فكان اليهود على التوالي هدفا للأتراك والإسبان، فقد حرص الأتراك قبل فرارهم من المدينة على نهب ممتلكات منازلهم واعتبرهم الإسبان في صفوف المنهزمين فطردوهم من مدينة وهران فاضطر هؤلاء إلى الهجرة إلى تلمسان أو معسكر.

فحول الإسبان من جديد البيعة إلى كنيسة القديس لويس 1732 وأصبحت وهران منطقة جد معزولة بأرض العدو وضرب عليها الحصار الاقتصادي ولكن هذه المرة كان أشد يصعب فكه مما كان عليه قبل قرنين، فالتموينات عبر البر غير ممكنة اللهم إلا ما يتم الحصول عليه من الغارات،

فأغلب الأغذية كانت تصل عن طريق البحر انطلاقا من موانئ ألميرياس وقرطاجنة.

وبقي بعض اليهود بمدينة وهران على الرغم من الإشعار بالطرد أمثال موسى دلاس وداوود سليمان ويعقوب كوهين - سولان، وبما أن العرب المقيمين حول المدينة لا يمكنهم إقامة علاقات مع أعدائهم خشية إعدامهم، اكتشف الإسبان مثل أجدادهم أهمية وجود اليهود بمدينة وهران، فوجهت دعوة رسمية للأمة اليهودية عام 1734 للإقامة من جديد بالمدينة.

ولكن وقع زلزال عنيف عام 1790 أودى بحياة جزء كبير من السكان وكان غالبيتهم من الجند والمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وبعض اليهود نصف مدينة وهران كان دمارا وتحطم تقريبا كل الجزء الإسباني من المدينة، وتم نقل الناجين من هذه الكارثة إلى مكان آخر.

وفي هذه الأثناء وضمن هذه الأجواء استغل باي معسكر الوضع وفرض حصارا أمام المدينة المعزولة، ففضل الإسبان الذين كانوا قد دخلوا في حرب مع فرنسا عدم المقاومة ووقع شارل IV عام 1791 إتفاقية مع داي مدينة الجزائر يتنازل بموجبها عن مدينة وهران للسلطة العثمانية.

• قبل 1830 ....

وحتى يتمكن من إعادة تعمير المدينة وجه الداي محمد الكبير نداء للسكان المسلمين واليهود الذين جاؤوا من كل فج عميق (من مستغانم ومعسكر وندرومة و تلمسان).

فباع بثمن زهيد موقعا سيستقبل الحي اليهودي على طول السور الشرقي بأعلى المدينة، حتى يتمكن اليهود من بناء منازلهم بأنفسهم. وتنازل لهم كذلك (مجانا) عن قطعة أرض لإقامة مقبرتهم.

فسجل عام 1792 ميلادي جالية يهودية جديدة بوهران لن تعرف لا الاجتثاث ولا النفي قبل تاريخ 1962.

فتنظمت الجالية في شكل "أمة" بمؤسساتها الخاصة وتمتعت في فترة اضطرابات سياسية بأمن وحماية لا مثيل لهما دون أي مقابل يفرض عادة على الذميين، فقد أعفاها الباي من الضرائب وكانت بعيدة عن كل تنكيد.

خلال هذه الفترة التي سبقت الاحتلال الفرنسي كانت الجالية اليهودية تضم أقدم اليهود إقامة بالمنطقة (عائلات بكري، وبن زاكن، وبن يشو...) ثم اليهود القادمين من المغرب (مثل عائلة كابيزا) و التيطوانيين القادمين إليها عبر جبل طارق (عائلات بن أوليل وغابيسون وتوبيانا) وأخيرا يهود مدينة الجزائر (عائلات أبو الخير وكوهين سلمون ...).

ولم تعرف المبادلات التجارية صعوبات بفضل العلاقات التي حافظ عليها كل واحد منهم مع موطنه الأصلي وكانت تمس هذه الصفقات على وجه الخصوص بيع الماشية والحبوب الجافة.

فثلثا العمليات التجارية بميناء وهران كان يقوم بها مضاربون يهود والتبادلات التجارية العديدة مع إسبانيا جعلت السلطات الإسبانية تتسامح مع اليهود بمدن مالقة والميريا والجزيرة وقرطاجنة ...

ومن المناقشات التجارية إلى المفاوضات السياسية تم تخطي العتبة من جديد وأصبح يهود وهران يتفاوضون مع السلطات التركية والإنجليزية والإسبانية.

وهكذا أصبح أول مقدم للجالية، مردوخي دارمون العون التجاري والديبلوماسي للباي محمد الكبير بل وحتى موضع ثقته وأمين سره وتمكن من توفيق هذا العمل على أتم وجه مع وظيفته كشارح لنصوص التوراة والتلمود.

ولنذكر أيضا مؤسسة بكري وبوشناق بمدينة الجزائر (التي سيكون لها دور في "حادثة المروحة" عام 1827) التي تحصلت من الداي على احتكار تجارة الحبوب الجافة ومارسته بميناء وهران ابتداء من عام 1801.

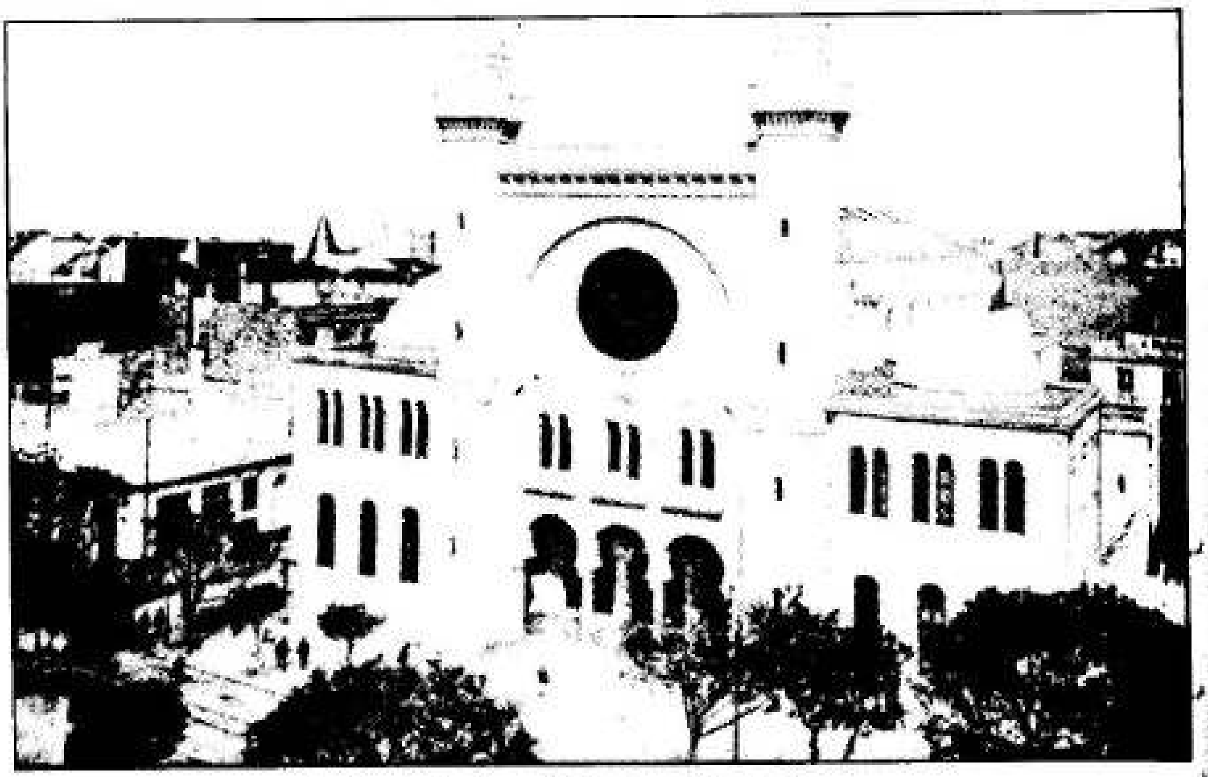
وخلال الحروب التي خاضها نابليون، انقسمت الجالية إلى مجموعتين: فالأقل عددا، أنصار القوى المتحالفة تجمعوا حول الفرع الوهراني لعائلات بكري وسليمان باسيفيكو العون الخاص لداي مدينة الجزائر بجبل طارق.

أما أنصار فرنسا وهم الأكثر عددا فقد تجمعوا حول امرأة صاحبة تأثير كبير نسجت حولها أساطير عدة وهي حنينة اليهودية.

هذه المرأة المعتدلة في سنها لها سطوة معتبرة على الباي محمد بوكابوس الذي كانت حسب ما يبدو محظيته.

فخلال فترة "حكمه" كانت هي حامية يهود وهران ففي هذه العقبة المتوترة لم ينفذ أي حكم إعدام في يهودي. ويذكر أنها وهي في أوج قوتها كانت تقصد الحمام أو قصر الباي في أبهة كبيرة واضعة على رأسها "سرمة" فضية ووشاحا كبيرا أرجوانيا مطرزا وكانت تسافر على ظهر بغلة رائعة السرج مرفوقة بأربعة "شاوش" فكانت لها السلطة الكبيرة في العفو على المحكوم عليهم بالعذاب الذين تلتقيهم في طريقها.

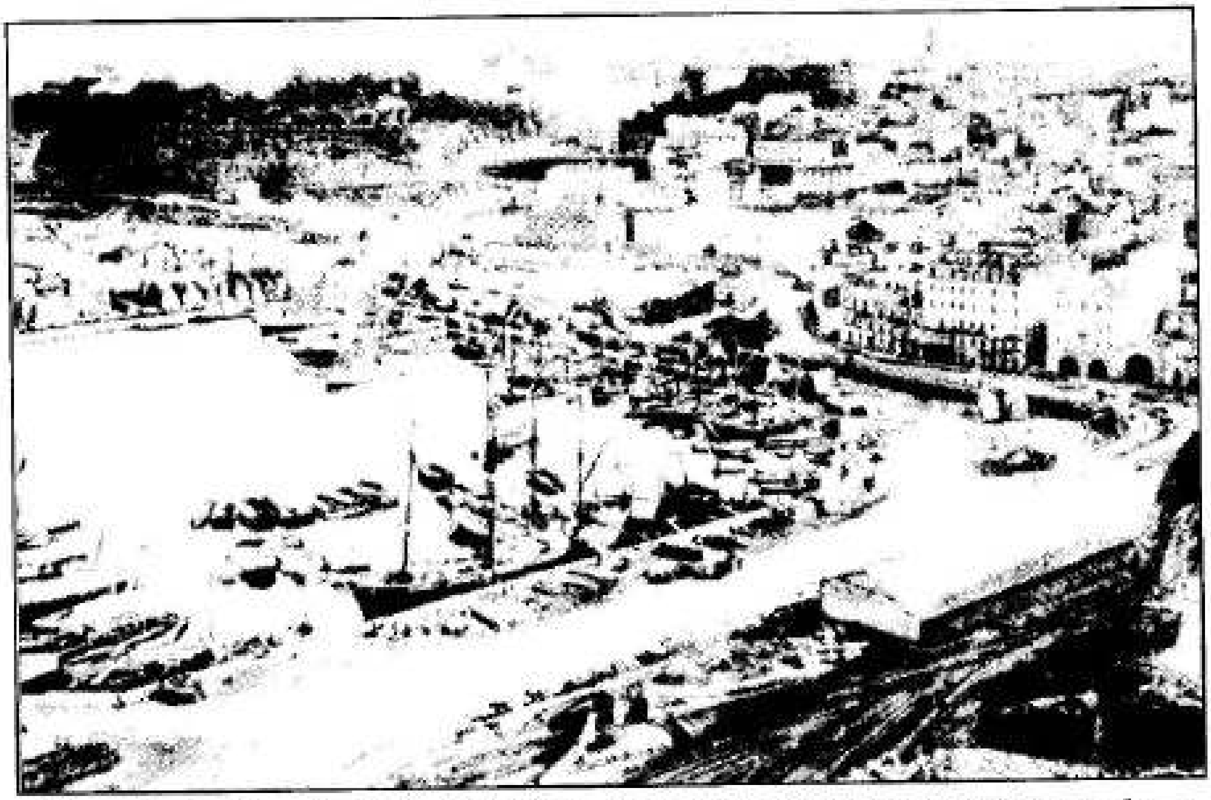
ولكن تمت الوشاية بها على أنها شريكة بوكابوس في نواياه الانفصالية فتم إلقاء القبض عليها مع أحد أبنائها وزجّ بهما في النار معا.



البيعة الكبيرة بوهران، الشارع الوطني (جوفر).

ممارسة نحاسية للمطبخ، الأكبر مصنوع بغرداية والثاني ببوسعادة





مــوقع الميناء القديم لمدينة وهران خلال نهاية القرن XIX، أمام الميناء الحي الإسباني للبحــرية.

❸. تلمسان الفاسي "الأرض الـموعودة" :

هنـاك بأقصـى غـرب الجزائـر مدينـة تمتزج فيهـا الحقيقـة بالقصـص والأساطير الخيالية.

هذه الجهة المتقدمة من المنطقة الوهرانية، هذه المدينـة العريقـة بالجبـال بالقرب من مصادرها الوافرة تشهد على نعمة سماويـة، هـذا الـوادي العـريض هذا الحريج "هذا البلد بصناره الأخضر" الذي لم يتمكن الاحـتلال الفرنسـي من إفساد طابعه المغاربي.

لقد وصفها المؤرخ العربي الكبير ابن خلدون على أنها "عروس على سرير الزوجية" وكان يقول من قبل: "إذا كنت قد نسيت الوريث (شلالات تلمسان) فأنا لن أنساها أبدا سأذهب وأتمتع بهذا الموطن الخلاب وأستنشق العطر العذب للمروج المزهرة".

فبالنسبة لليهود الذين يعدون جزء من تاريخها كانت تلمسان أرض اصطفاء، فكانت تعرف عندهم باسم جوهرة المغرب وكان الكلام عن تلمسان المقدسة الطاهرة، تلمسان "محمية الرب".

ويؤكد ابن خلدون في كتاباته وجود اليهود منذ 1307 بتلمسان، لكن تاريخ وحدة الشعور الموجود دائما بين أنصار شريعة موسى وهذا المكان الجميل بشمال إفريقيا يعود إلى زمن أقدم بكثير.

فقد وجد اليهود بهذا المصرف الفينيقي القديم وبوماريا الرومانية وبهذه "البساتين" التي كان بإمكان الشاعر فيريل أن يتغنى بها، ولكن أي اليهود هؤلاء ومن أين جاؤوا ؟.

يحتمل أنه بمجرد تخريب المعبد الأول وجد بعض اليهود ملجأ بهذه الأرض الجديدة الموعودة، ويحتمل أيضا أن غيرهم كانوا سكانا أصليين اعتنقوا الديانة اليهودية.

بالفعل، ففي هذه الفترة التي شهدت انتكاس الديانات القديمة في هذه البلدان الخاضعة للاحتلال الروماني والصعود القوي للديانات الداعية للتوحيد فإن البربر والأمر يتعلق بهم، اختاروا دين موسى.

وبالتالي سبق الوجود اليهودي بتلمسان جميع الغزوات التي تلت "السلم الروماني" من غزوات العرب والإنكشاريين الأتراك ثم المستوطنين الفرنسيين.

وقرونا بعد ذلك عندما تم احتلال بلاد البربر وأخضعت للإسلام وجد سكان ما تبقى من أغادير من اليهود أنفسهم مضطرين للعيش بعيدا عن الجالية المسيطرة.

وبداية القرن XI من عهدنا، عام 1082 أصبحت أغادير ("السور") حيا لتاقرات ("مصدر مائي") وتوسعت أكثر نحو الغرب.

فالسيطرة التي كانت عليها تلمسان في تلك الحقبة المستمدة من تيلما "الينابيع"، يعود تاريخها إذا، إلى القرن XII فقط، إنها من صنع الأمير المرابط يوسف بن تاشفين الذي توجه نحو إسبانيا لفتحها بعدما أسس مدينة مراكش.

فقد عاش يهود تلمسان تعاقب الأسر الحاكمة الواحدة تلو الأخرى إلى غاية 1144 حين وصل الموحدون إلى سدة الحكم. في كتابه المخصص لـ: "تلمسان العاصمة القديمة لهذا الإسم بعد إقامة بعين المكان حلّ القس ج.ج.ل. بارجيس بتسامح متعجرف "اليهود التلمسانية" وتكلم عن "الطابع البائس لهذا الحي المنبوذ، إذ علينا أن نسمي هذا الحي باسمه" وهو "ما يوضح لنا الصورة عندما نتذكر الإهانات والتنكيدات من كل نوع التي كان على اليهود تحملها... في ظل أنظمة سلاطين تلمسان. والتاريخ يبلغنا أنه عند موت الملك أبي عبد الله عام 923 للهجرة خرب الحي اليهود وأنه منذ تلك الفترة المأساوية واليهود ضحية دائمة للبؤس والحرمان".

والحال أنه بعد الانهيار، أصبحت الجالية اليهودية منطوية على نفسها في حي أغادير، وحسب بعض الكتاب تكون قد فقدت حتى صلتها بالتلمود.

وبداية القرن XII أصبحت تلمسان الرسمية بمجموعة مدارسها محطة مشهورة بفنونها وآدابها، وقد جعلت منها مصانعها للزرابي ومحلات الصياغة التي ساهم فيها اليهود مساهمة حيوية، مدينة مزودة بمنفذ على البحر: وهو ميناء حنين.

وهكذا أصبحت تلمسان عاصمة مملكة حقيقية بلغت شهرتها حدود إسبانيا الأندلسية إلى درجة أن أحد شعراء قرطبة وهو ابن خفاجة وصفها بقوله: "جنة الخلد يا سكان تلمسان لا وجود لها إلا في بلدكم ولو كان لي أن اختار فلن أرضى عنها بديلا".

المنصورة الخارجة عن المألوف :

لكن لكل مجد ثمن وهذا الصيت لن يبقى دون أن يثير طمع بعض الأشخاص، فقد ضرب السلطان المريني بفاس الحصار على تلمسان بإقامة مخيمه العسكري على مشارف المدينة نفسها وبالضبط بالمنصورة.

فلم يعد بالإمكان إغفال المنصورة عند ذكر تلمسان حيث أن مصير الواحدة بدا مرتبطا بمصير الأخرى.

ففي عام 1292 حوّل الفاتح الفاسي الذي اقتنع بدنو انتصاره مخيمه المؤقت إلى مدينة حقيقية، وبلغت روعتها المدينة المطلوبة، لكن شهية السلطان المغربي كانت كبيرة فشيد بمدينته مسجدا بمنارة تحلق وتلامس عنان السماء كتحد للتلمسانيين المحاصرين، فتحولت المدينة إلى المنصورة الخارجة عن المألوف قبل أن تكون المنصورة المنتصرة ...!

وتذكر الأسطورة أن بناء هذا البرج العالي أوكل إلى مهندس معماري يهودي وعند بلوغه القمة وجد نفسه ممنوعا من النزول فالسلم كان يقود حتما إلى قاعة الصلاة ولا يقبل أبدا أن " تدنس " بأقدام شخص غير مسلم.

وفي محنته هذه خطرت ببال اليهودي، الذي بقي مجهول الهوية، فكرة وضع أجنحة على كتفيه وذراعيه، وكان على "إيكار" الجديد أن يقفز من أعلى محلقا في السماء، وما يزال المكان الذي سقط به المنهدس المعماري المسكين على محور الطريق الرابط بين تلمسان والمغرب يدعى إلى يومنا هذا "مرتفع اليهودي" ولكن تبقى هذه الحادثة مجرد أسطورة ....

وستحدث المجاعة كوارث كبيرة بتلمسان المنخنقة طيلة ثماني سنوات من الحصار، ومع ذلك استمر التمسك بالعزة التي طالما وجه اللوم عليها لسكان تلمسان وصرحت سيدات القصر - وكان حاكم تلك الفترة البائسة أبو زيان - أنهن يفضلن الموت على الوقوع بين يدي الغازي المريني ... وحسب ما جاء في الأسطورة فقد فضّلن أن يختنقن حتى الموت بأيدي مسيحيين ويهود يتم اختيارهم لهذه المهمة.

وفي الجهة المقابلة كان الإعداد للانتصار قيد التحضير ولكن ما لم يتقرر بعد هو الهجوم الحاسم، وكان هناك ما يدعو للتردد فالفاسيون يتمتعون بملذات كابوة الجديدة التي تحولت إليها المنصورة زد على ذلك أن "الضحية" أن يتأكد سقوطها كسقوط حب الرمان بعد إنفتاح في خريف صهب للريف التلمساني.

ألم ينفذ الغذاء والمؤونة لدى المحاصرين؟ ومع ذلك شق باب تلمسان الخارجي وخرجت من ورائه عجوز تجر حمارها، وأمام أعين المحاصرين الذين اندهشوا لما رأوه، كانت العجوز تطعم حمارها بما فيه الكفاية وتجود عليه من محتوى أحد الكيسين الذين يحملهما على جانبيه.

ماذا؟ أبعد ثماني سنوات من الحصار ما زال بإمكان المدينة التي اعتبرت منهكة القوى ومنهزمة توفر الغذاء لحميرها! يا للخيبة، ففك المارينيون مخيمهم وحصارهم ورحلوا، وطبعا الأمر لم يكن يعدو أن يكون مجرد حيلة، ولكن الأسطورة لا تذكر أن العجوز كانت يهودية ... ولكن لا شيء يثبت العكس.

وبعد ثلاثين سنة عاد الفاسيون وتعرضت مدينة تلمسان للنهب ... ولكن في الأخير تمكنت تلمسان من المنصورة بعدما أدمجها الفرنسيون في دائرة تلمسان، المنصورة القديمة التي لم يبق منها اليوم إلا الأطلال... أطلال برج اليهودي المجهول.

وفي يوم من الأيام وبينما الحاخام ألن كاوا منشغل بدراساته التلمودية والعلمية بلغه نبأ مرض الإبنة الوحيدة لحاكم تلمسان، السلطان أبي تشفين، فتمكن الدكتور إفراييم ألن كاوا الذي أثبت مهارته في فن الطب، من معالجة الأميرة.

وتخليدا لهذا الحدث الرائع بنى المسلمون التلمسانيون في آخر أيام عمر "المعجزة" ضريح السلطانة بالمكان المسمى سيدي يعقوب، وإذا كان علينا أن نثبت تداخل اليهود في تاريخ مدينتهم فإن الشواهد على ذلك كثيرة.

"أيها المرسل الإلهي، أي مكافأة يقدمها أب لمن أنقذ ابنته"؟ لكن الطبيب التقي رفض كل هدية لشخصه وطلب فقط هدية كبش كمكافأة ثم جزأها إلى أجزاء وطلب الموافقة له على عدد من الشوارع بعدد أجزاء الهدية لإقامة إخوانه في الدين.

وابتداء من 1393 أصبح بإمكان اليهود الذين عاشوا منحصرين بأغادير الإقامة بوسط مدينة تلمسان، فاليهود الذين رأوا في الحلخام مرشدا وهاديا للضالين تدفقوا من كل حدب وصوب على "أورشليم المنطقة الوهرانية" بما فيهم اللاجئين الإسبان والمهاجرين بالمغرب.

وبالنسبة للعديد من المؤلفين فإن ولادة الجالية اليهودية بتلمسان كانت في تلك الفترة، فأسماء عائلات هذه الجالية تشير في بعض الأحيان إلى القطر الأصلي كعائلة مارتشيانو من مورشي وعائلة برشيلو من برشلونة وعائلة جيان من جين وأبناء نونيز يعرفون باسم بن يونس.

وآخرون يشير إليهم السكان الأصليون باسم حرفهم كالصياغ أي حرفي الصياغة أو السباغ أي حرفي الدباغة، وكان يعرف كل من لسكر (الأشقر) ودراي (صاحب الذراع المكسورة) بخصوصيتهم الجسدية.

بينما عائلات إيلوز وإيطاح فهي تعود بالذاكرة إلى الأصل البربري العريق. وهكذا سيعيش هذا العالم الصغير عيشة هانية إلى غاية 1445 تاريخ موت قائده، ذلك الذي بدت له تلمسان وكأنها "حبة تين في باكورتها" ومنذ ذلك الحين ويهود تلمسان يحتفلون ويحيون ويمجدون ذكرى قديسهم ففي اليوم الثالث والثلاثين من "أومر" بعد عيد الفصح كانت تقام "الهيلولة" التي بدل اسمها على البهجة التي تستهل المراسيم الدينية والحفلات الدنيوية.

ومن أجل زيارة "صانع المعجزات" كان الحضور من مختلف الجهات لطلب الشفاء ورجاء نهاية العقم، فكانت فرصة للجميع للتنعم بسعادة يوم والتلذذ بنوع من رغد العيش ... فهذه المعجزة كانت تحدث مرة واحدة على الأقل في السنة.

❹ . الأغنياء والفقراء :

لقد كان للموقع الجغرافي عظيم الأثر على الاقتصاد الجزائري عبر القرون فباندماجها في المجموعة الكبيرة للبحر الأبيض المتوسط ("البحر الداخلي") أحاط بها من الشرق والغرب كل من تونس والمغرب الأكثر قربا وتفتحا على أوربا (أقرب من جزيرة صقلية ومضيق جبل طارق) وتحيط بها من الجنوب المساحات الشاسعة من الصحراء التي ستقطعها القوافل بفضل إدخال الجمل إبتداء من القرن الثاني لاستقدام الذهب من السودان لتمويل تجارة البحر الأبيض المتوسط لعدة قرون.

ويقابل الموقع الجغرافي المتناقض حيث شكلت السلاسل الجبلية والحدود الصحراوية منذ أمد بعيد حدود تراجع للسكان الذين اجتيحوا في العديد من المرات، تنوع عرقي وخصوصيات متعددة لن تنجح أية سلطة مركزية في القضاء عليها في العمق.

ففي هذا النظام البيئي يحتمل الوجود اليهودي منذ بداية الألفية الأولى قبل عهدنا في الأرصفة التي شيدها الفينقيون على طول الساحل لإفريقيا الشمالية وسيتدعم هذا الوجود خلال سبعة قرون من السيطرة القرطاجية على شرق بلاد المغرب.

فأقام المستوطنون اليهود بالمدن والأرياف سواء على طول السواحل أو بالجهة الداخلية، وقد ساهمت هذه المستوطنات اليهودية مساهمة فعالة في بعث الاقتصاد القرطاجي سواء في مجال الزراعة وتربية المواشي أو في نشاطات الوساطة التجارية التي شجعتها العلاقات التي تقيمها الجالية مع أورشليم والشتات اليهودي في البحر الأبيض المتوسط وستسمح قرون السيطرة الإدارية والسياسية الرومانية بتنمية الوجود اليهودي بإفريقيا الشمالية، وهكذا أصبحت أغنى قطر فلاحي للإمبراطورية. وكانت التنمية الحضرية ومدّ خطوط الاتصالات مثيرة للدهشة (أكثر من خمس مائة مدينة) كما تشهد على ذلك الأطلال الضخمة للمدن الجزائرية مثل لأمباز والجميلة وتيمقاد.

وقد وفرت روما نفس الوضعية القانونية للأمة اليهودية عبر كامل تراب الإمبراطورية.

ويتمتعهم بجميع الحقوق المدنية (بإستثناء فترات الحرب والثورات بأرض اليهود ومصر وليبيا القريبة جدا) أصبح بإمكان اليهود وهم مواطنون رومانيون اعتلاء مناصب عليا في الدولة كقضاة وفرسان أعضاء مجلس الشيوخ وولاة.

إلا أن نشاطاتهم الاقتصادية لا تقتصر فقط على الوساطة الدولية بل تتعداها إلى الفلاحة وتربية المواشي ونجدهم كذلك جنودا في جيش وحرفيين وعلماء ....

ومع دخول المسيحية إلى الإمبراطورية بدأت وضعية اليهود تتدهور ويبدو أن السكان القادمين من إسبانيا عام 340 من عصرنا، استولوا على قرطاجة بدعم من بربر نوميديا، كما أنهى إغريق الإمبراطورية الرومانية بالمشرق سيطرة الوندال عام 533.

فوضعت بيزنطة إجراءات تمييزية خطيرة أضرت باليهود على وجه الخصوص خلال القرنين VI و VII في شمال إفريقيا وصل الأمر إلى حد التحويل عن الدين بالقوة.

وبطبيعة الحال عرف كل من النشاط الاقتصادي لليهود وتمركزهم الجغرافي تعديلات كثيرة ولم يعد لهم الحق في اكتساب العبيد الذين كانت توكل لهم الأعمال الفلاحية في أملاكهم العقارية الكبيرة.

مجيء الإسلام :

يبدو أن جزءًا من السكان اليهود شاركوا في حركة الدفع نحو البادية والتراجع التي مست السكان البربر عندما غزا العرب بلادهم ويحدد بعض المؤرخين الإعمار اليهودي لمدينة توات بهذه الفترة بالذات، فهذه الحركة وإلى جانبها وصول يهود شبه الجزيرة العربية مع القبائل البدوية لبني هلال يكونان أصلا "للباهونسيم"، هؤلاء اليهود البدو أو شبه الحضر الممارسين لنشاط تربية المواشي والتجارة والصناعة التقليدية الذين اعتادوا على نصب خيمهم

في المنطقة المحصورة بين قسنطينة وسوق أهراس وتأكد وجودهم بالمنطقة خلال القرن XIX.

يعتبر شمال إفريقيا جزءًا من فضاء عربي يشكل وحدة طبيعية تمتد من المحيط الأطلسي إلى بحر عمان، ويحدد هذا الفضاء الواسع حاليا في فضاءين فرعيين:

- المغرب وبالمعنى الحرفي الغرب أو مغرب الشمس ويضم حاليا ثلاث بلدان هي المغرب والجزائر وتونس وهي موضوع دراستنا هذه.

- المشرق وبالمعنى الحرفي الشرق أو مطلع الشمس ويضم باقي الدول العربية كمصر لبنان والعربية السعودية ....

كلمة عربي تعني حرفيا "بدوي يعيش في خيمة" إلا أن محتوى هذه الكلمة يبقى جد معقدا فيما يتعلق بتداخل السلالات البشرية وتحديد أصولها، لهذا جرت العادة في محاولة فهم هؤلاء "السكان" فهما جيدا لدراستهم من حيث لغتهم وثقافتهم وديانتهم.

فإذا كانت اللغة العربية في الأصل تمثل أقوى الروابط بين العرب فمن الخطأ الفادح الاستنتاج أن العرب يتكلمون لغة مشتركة.

ففي شمال إفريقيا يتعايش في كل بلد من البلدان الثلاث (المغرب والجزائر وتونس) ثلاث ألسن وثلاث لهجات وثلاث نبرات مختلفة.

وبنفس الطريقة إذا أخذنا مثالا على ذلك المغرب فإنه تتعايش به ثلاث لغات مختلفة لا علاقة للواحدة بالأخرى فنجد الإسبانية في الشمال والعربية الدارجة في الوسط والبربرية في الجنوب.

وعلى المستوى الديني فإن اللغة العربية تمثل أيضا أقوى الروابط بين العرب بصفتها لغة الدّين ولغة القرآن المقدسة.

إلا أنه من المجدي أن نذكر أن الشخص إذا كان عربيا فهذا لا يعني بالضرورة أنه مسلم والعكس صحيح فالمسلم ليس حتما عربيا.

فإذا كان اليوم كل من اللغة العربية والإسلام يمثلان العوامل المشتركة على المستوى الثقافي للعالم العربي فمن المغالطة الكبرى استنتاج وجود وحدة

ثقافية، وفي هذا السياق نجد أن الثقافة البربرية بالمغرب أو الجزائر لا علاقة لها إطلاقا بباقي السكان المغاربة أو الجزائريين.

وكما رأينا مع مفهوم كلمة عرب، فإن تحديد مفهوم كلمة يهودي يبقى معقدا أيضا وسنتعرض له بنفس الطريقة من ناحية اللغة والثقافة والدين.

فإذا كانت اللغة العبرية في الأصل تمثل أقوى الروابط بين يهود شمال إفريقيا كونها لغة التوراة المقدسة فمن الخطأ الفادح الاستنتاج أن هؤلاء اليهود يتكلمون لغة مشتركة، فكما هو الشأن بالنسبة للعربية، هناك تعايش بين حقب جغرافية ولغوية (الإسبانية والعربية، والبربرية) ومختلف اللهجات بالجزائر والمغرب وتونس.

وخلاصة القول أن هناك عاملين مشتركين يحددان مفهوم يهود شمال إفريقيا:

- مفهوم جغرافي وهو بلاد المغرب من جهة.
- اليهودية كديانة ونمط حياة مؤسسة على ثلاث ركائز وهي التوراة والتلمود وكابال من جهة أخرى.

وجدير بالأهمية أن نجد عادات وطقوس مشتركة، مع بعض الاختلافات البسيطة، بين بلدان المغرب الثلاث لفترة زمنية محددة (وهي تمتد من نهاية القرن XV - عند طرد اليهود من إسبانيا وقدومهم إلى إفريقيا الشمالية - إلى غاية بداية القرن XX وهي بداية الاحتلال الفرنسي وتحرر اليهود).

بمجيء الإسلام عرفت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لليهود والمسيحيين تغييرا جذريا، فوضع اليهود مسير بموجب قانون الذمة الذي يجعلهم على هامش الحياة المدينة.

وأخضع الذميون أو "المحميون" لضريبة يتم تسديدها جماعيا وهي الجزية، وسيطبق هذا القانون بشدة لا مثيل لها ويستمر إلى غاية الاحتلال الفرنسي وخلال فترات وافقت تدعيم السلطة السياسية المركزية وتشدد الحمية الدينية ابتداء من القرن X وخلال حكم الموحدين كذلك طبق قانون

الذمة بقبضة من حديد حيث بلغ الأمر حدّ فرض لباس القلنسوة الصفراء (شيكلا) وثياب مشوهة واستعمال الأحياء المعزولة. وستضطر عدة جاليات يهودية ومسيحية للتحول عن دينها أو التفريق بينها في أبسط الأحوال.

إن التشريع الإسلامي الذي كان يمنع على المسلمين الإقراض بالفائدة وفي نفس الوقت يحّد من التداول النقدي بين المسلمين فتح أمام اليهود بابا من النشاط لم يحلموا به من قبل خاصة في مجال تمويل العمليات التجارية. وهكذا أسس الوسطاء اليهود جمعيات فيما بينهم لترتيب رحلاتهم انطلاقا من تلمسان وتيهرت إلى غاية الهنّد فقد أوردت العديد من الكتابات (كتابات الحاخامات) حالات عديدة من الشركات بين يهود الجزائر ويهود تقورت، وبين أعضاء عائلة واحدة الواحد منها يقيم بالبندقية بإيطاليا والآخر موجود بمدينة تنس ومع متعاونين يقطنون الصحراء أو حتى بين وسطاء يهود يقيمون بمراكش وتقورت وتوزر وتونس المدينة وأخيرا بين اليهود والمسيحيين والمسلمين.

وسيبقي هذا التشريع المسلمين بعيدين عن صناعة المعادن الثمينة وكل الحرف المرتبطة بها التي كان يحتكرها اليهود، فسيكونون هم الجوهريون والصاهرون وأعوان المبادلات وفي بعض الأحيان صرافي المجتمع المسلم.

فبعد التهدئة الإسلامية للأوضاع ستعرف بلاد المغرب ازدهارا اقتصاديا حقيقيا إلى غاية القرن XVI .

وابتداء من القرن X سيطور اقتصاد بلاد المغرب مجالات مبادلات جديدة (ربط علاقات بإفريقيا السوداء والتجارة ما بين بلدان المغرب) ونمو نشاط الصناعة التقليدية (حياكة الصوف وتصديرها انطلاقا من تلمسان) وفي هذا الجو المناسب لعب يهود بلاد المغرب دورا هاما كعناصر للانطلاق الاقتصادي.

وكونهم تجارًا فقد أنشؤوا علاقات ما بين أوروبا والمشرق وحافظوا عليها، وعقود "الغيت" (الطلاق) المشروطة التي توقعها هؤلاء الرحالة قبل خروجها قاصدين البلدان البعيدة هي دليل على أهمية نشاطاتهم التجارية، وابتداء من القرن XII أخذت العلاقات مع إسبانيا القارية وجزيرة مايورقا

شكلا متواصلا، فنظمت الشركات المختلطة الموجودة ببلاد المغرب وكتالونيا بتنظيم التبادلات التجارية، فاتخذ يهود من مايورقة وأراغون من تلمسان ("مدينة التجار النزهاء") ومزغوان وتنس ومستغانم مكانا لإقامتهم بينما أقام يهود من بلاد المغرب بأراغوت أو بمايورقة، وهكذا "فتح المغرب الأوسط ذراعيه لسكان كاتالونيا بفضل مساعي اليهود".

وتعتبر "شيلوت وويتشوفول" ("الأسئلة والأجوبة") التي حررها يهود مدينة الجزائر مصدرا أساسيا للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي ليهود بلاد المغرب.

فخلال القرنين XIV و XV كان بالإمكان إبراز أهمية النشاطات التجارية وتنوعها وكذا الفاعلية الكبيرة التي أبداها الوسطاء، ففي مدينة الجزائر وتلمسان تم إعفاء كبار التجار اليهود من بعض الرسوم نظرا لحجم مساهمتهم الكبيرة في مداخيل الجمارك المحلية وفي تلمسان كان هؤلاء الوسطاء الذين يحتكرون تصدير الحبوب غالبا ما يتنازلون عن هذا النشاط التجاري حتى لا يتهموا بتجويع السكان المسلمين.

وبالنسبة للتجار اليهود المتجولين الذين التحقوا بالقوافل الكبيرة فإن مخالفة راحة الشباط كان يشكل لهم عائقا قانونيا سيتم حلها بصدور رخصة من الحاخامات تسمح لهم بمواصلة السفر يوم الشاباط شريطة أن يكون السفر قد شرع فيه منذ ثلاثة أيام على الأقل.

وكان يهود توات الذين يمارسون الوساطة مع إفريقيا السوداء على علاقة أعمال وطيدة بيهود وهران وتلمسان وكانوا يبيعونهم مسحوق الذهب وريش النعام مقابل القمح والنحاس.

وبالشرق الجزائري كان يهود بجاية يستوردون الفضة الأوروبية الموجهة للصناعة التقليدية المحلية ومارسوا أيضا الوساطة على الملح والجلود والأقمشة والشمع والعبيد".

أما يهود قسنطينة الجوالون المتطوعون فكانوا ينتقلون بسلعهم إلى مناطق الجنوب باتجاه تقورت وقافسا وتوزر.

واعتبر كل من سلاطين بلاد المغرب وملوك أوروبا النشاطات التجارية لهؤلاء الوسطاء اليهود أساسية بالنسبة للتنمية الاقتصادية ففي عام 1274 أرسل جاك الغازي سفنه تقتفي آثار التجارة البحرية لبلاد المغرب، ولكنه وفّر الحماية في نفس الوقت لسفن يهود تلمسان ضد حرب القرصنة.

وخلال القرن XIII وضع ملوك أراغون الحريصون على إبقاء تموينهم بذهب السودان الذي اتخذ طريقه عبر سجلماسة وتلمسان ثم جزيرة مايورقة تحت حمايتهم اليهود المنظمين لهذه التبادلات.

وكانت الروابط جدّ متينة مع إسبانيا إلى درجة أنه عام 1391 عندما اندلعت عملية ذبح اليهود بكل من كاتالونيا وكاستيون وأراغون انتظم الفرار نحو بلاد المغرب بكل عفوية وتلقائية.

وبعد استقبال السلاطين المسلمين لهم بكل حفاوة، جدد "حاملو البرنيطة" العهد بالممارسات المالية والصفقات التجارية وتنظيم السوق، واستحوذ اتحاد الحرفيين اليهود الإسبان "هابوروت" على السوق.

وفي بجاية خلال القرن XV أحدثت الممارسات التجارية الأكثر فعالية "للميغوراشيم" انفصالا في الجاليتين، فاحتكر الحرفيون اليهود الإسبان الأفضل تنظيما الزبائن المسلمين وامتنعوا عن دفع الضريبة لصندوق الجالية، فتصدى الحاخام سيمون بن سيماح دوران لهذه الممارسات ومع تطور حرب القرصنة التي كونت ثروة مدينة الجزائر سيكون لليهود دور بارز في إعادة بيع غنائم القراصنة وافتداء السجناء الأوروبيين.

ويلاحظ بمدينة الجزائر التي كان تعداد السجناء بها 20.000 ما بين 1621 و1627 "الوجود المكثف للوسطاء اليهود".

وكانت العائلات التجارية الكبرى ذات الأصل الإسباني أو الليفورني تنافس أو تشارك الشركات الفرنسية والأوروبية للوساطة التجارية.

وتشهد السجلات التجارية لميناء مدينة الجزائر على أهمية التبادلات مع مدينتي ليفورن ومرسيليا، وتبرز بها أسماء الوسطاء التجاريين اليهود بصفة

آلية فنجد عائلات بكري وسرور وبوشناق ونـاحون وليفـي فالنسـي وزاكوتـو وسفورنو وأبو قاية ....

وكان يتمتع النشاط التجاري لليهود النصارى المستفيد من حماية القوى الأوروبية له بحيوية مفعمة، وحتى يحافظوا على امتيازاتهم التجارية كان التجـار اليهود الكبار لمدينة وهران يرشدون الجيوش الإسبانية ويوفرون لهم العبيد.

وعندما وقعت المدينة في يد الأتراك عمل هؤلاء التجار الـذين عـاودوا الإقامة بها من جديد على تنمية العلاقـات التجاريـة بفضـل اتصـالاتهم مـع مدينة الجزائر وجبل طارق وجزر البليار.

وكانت كل من عائلة بكري وبن زاكن وبن يشو ودارمون تنافس عـائلات غابيسون وكابيكا وبن سرية وعلجل وسميشة حديثي الوصول من جبل طارق.

ولم تتردد في إبرام اتفاق مع باشا طنجة لتنظيم تجارة الويسكي المحظـورة انطلاقا من الإقليم الإنجليزي بجبل طارق.

إلا أن هذه النجاحات الشـاحبة لا يمكـن أن تخفـي الأزمـة الاقتصـادية العميقة التي كان يشهدها المغرب الأوسط منذ القرن XVI.

*** إنهيار بطيء** :

ستشهد تجارة القوافل الكبيرة التي كانت تنقل مقابل النحـاس والملـح والأقمشة العبيد ومسحوق الذهب على وجه الخصوص من "بلاد السـودان" ("أي بلدان ذوي البشرة السـوداء") إلى سـواحل بـلاد المغـرب انهيـارا، كمـا تقلصت المبادلات التجارية مـع إفريقيـا السـوداء الـتي كانـت تجلـب الـذهب والعبيد بعد منافسة البرتغاليين المقيمين بخليج غينيا ونفس الوضع تعرضت له المبادلات مع الشرق الأوسط.

فسرعت هذه الوضعية من حلـول الأزمـة علـى لحـاق القوافـل لمدينـة توات وتحدد بعض الروايات الشفوية بهذه الحقبة نهاية "السـيطرة اليهوديـة" على مدينة تقورت، وبتلمسان التي تعد مستودعا كبيرا لمنتجـات بـلاد المغـرب شدّ فقر المحلات من المواد انتباه ملاحظ فرنسي.

ولم تعد مدينة الجزائر تربطها تقريبا علاقات مباشرة بإفريقيا السوداء إلا أنه بقي هناك تجار يهود يتنقلون نحو الجنوب ببغل محملة بالحبوب ويعودون بريش النعام وحبّ السنى والصمغ وشيء من مسحوق الذهب، ومع ذلك بقيت بعض المبادلات عن طريق القوافل كالمبادلات القائمة بين يهود مدينتي الجزائر وقسنطينة التي بقيت تمثل في نهاية القرن XVIII حلقة من السلسلة المختصة في إعادة بيع غنائم القراصنة التي أضحت نادرة.

وبالنسبة للقافلة الشهرية التي كانت تربط ما بين قسنطينة وتونس المدينة (من 200 إلى 300 بغل) فكانت تنقل ألبسة مطرزة من صنع الحرفيين اليهود بقسنطينة وتعود بالزرابي والأقمصة الحريرية الآسيوية، والبن والخردوات الأوروبية وكان هذا خلال القرن XIX . بينما أوروبا كانت قد تخلت عن هذا النوع من التجارة المتنقلة منذ قرون علة، فوساطة المقايضة هذه التي أغنت التجار اليهود والمسلمين الرحل لم تكن كافية لدفع سائر الاقتصاد.

وفي بداية فترة حكم الأتراك تم الانتهاء من عملية تمدين الجالية اليهودية ولم يبق منها إلا بعض المجموعات المنعزلة (بني مزاب والواحات) وتجمع أغلب اليهود الذين لم يكن لهم الحق في امتلاك الأراضي ولا استغلالها في المراكز الحضرية.

وبالمدن كانت الطبقية الاجتماعية والتمييز العرقي يضربان أطنابهما وكانت هذه المدن عامرة بفسيفساء عرقية فنجد الأتراك والكولوغلي (نتاج زواج الأتراك بالأهالي) والأندلسيين والسود والعرب البربر، والمسيحيين المرتدين واليهود الذين كانوا في أسفل درجات السلم الاجتماعي وكانت كل ثورة للإنكشاريين فرصة لنهب الحي اليهودي.

وحقيقة الأمر أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية لليهود تفتقد للمساواة، فبعض العائلات ذات الأصل الإسباني أو الليفورني قد كدّست ثروات طائلة في تجارة البحر الأبيض المتوسط والوساطة المالية، ونجد في مقدمتهم صرافي الديانات أمثال عائلات بكري وبوشناق ودوران الذين طالت أيديهم العمليات المالية للدولة ولكن مداخيلهم انخفضت بصفة معتبرة مع نهاية القرصنة.

وستشكل ديون إسبانيا وفرنسا لدى عائلتي بكري وبوشناق فرصا سانحة لهاتين القوتين المتوسطيتين لاستعمال القوة ضد الحكم التركي. واستغلت فرنسا الفرصة عام 1830 بعد "حادثة المروحة" الشهيرة.

إلا أن السواد الأعظم من السكان شكل حسب عبارة القنصل الأمريكي شالر: "أبأس بقايا بني إسرائيل" وكذلك أدلى دوبوا - تان فيل، قنصل فرنسا بشهادته بخصوص الأقلية اليهودية لمدينة الجزائر وقال: "إن الاضطهاد والهوان اللّذين يعيشانهما أبعد مما يمكن تصوره، فقد تعرضوا لكل أشكال الإذلال والهوان وتلقوا كل أنواع الشتم وكلفوا بكل الأعمال الشاقة والمنفردة كدفن جثث المحكوم عليهم بالإعدام مثلا وحمل العرب القادمين إلى المدينة على أكتافهم في المياه المنخفضة وتقديم الطعام لحيوانات القصر".

ثم دخلت فرنسا :

لقد عاش الشعب الصغير المحصور في الحرف التجارية البسيطة والتجارة المتنقلة أو الصناعة التقليدية حياة بؤس في أحياء قذرة معزولة عن المدن. وبخضوعهم لصدف قانون الذمة على الرغم من حماية القناصل لهم نجدهم في المدن الساحلية رجال بأس يبحثون عن الحمولات والأعمال الشاقة في الشوارع وفي الميناء ونجدهم خياطين حرفيين، حرفي ترصيع بالذهب والفضة، خصافي نعال، حرفيي الحياكة، إسكافيين، صفّاحين، بستانيين، تجار حبوب بسطاء، تجار عقاقير منافسين للقبائلي والمزابي.

ونجدهم بالمناطق الداخلية يضمنون عبر طرق بلاد المغرب نقل اللوازم الصغيرة والأقمشة الضرورية للمسلمين في المداشر عن طريق التجارة الجوالة، كما احتفظت بعض العائلات باحتكار حقيقي في صناعة المعادن الثمينة كعائلة شيشيورتيش ببوسعادة وعائلة تويتو بخنشلة وعائلة بارتوش بتيارت وعائلة علوش بعين البيضاء وعائلة نابت بقالمة وكان كل جواهريي عين تموشنت تقريبا من اليهود وكذلك جواهريي المدية والجلفة والأغواط.

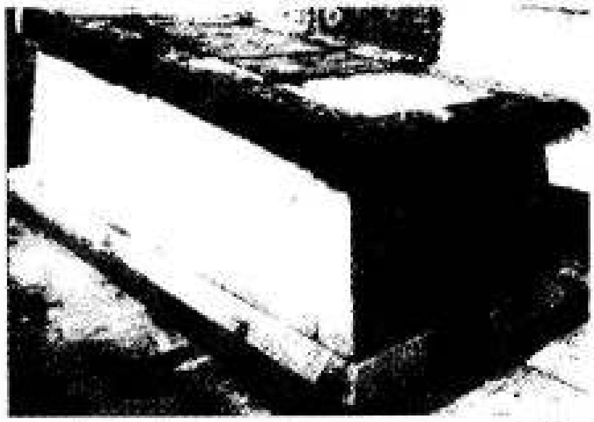
فحياة السواد الأعظم من الطبقة الكادحة اليهودية بائسة ويرثى لها، ولكن مع مجيء الاحتلال الفرنسي الذي حياه اليهود بحفاوة وبفضل تمدرس أبنائهم الذي تبعه مباشرة سيتحسن وضع اليهود نهائيا.

فقد أحدث الاحتلال تغييرات جذرية لدى السكان اليهود فبإلغاء قانون الذمة وتطوير التمدرس ومنحهم الحق في وضع سياسي جديد سيدخل اليهود المقيمين بالجزائر العصر الحديث.

فسيبرز التجديد ابتداء في الكثافة السكانية وزيادة عدد اليهود الذي كان إلى غاية تلك الفترة منخفضا على الدوام ثم تلاها مجال التعليم الذي بدأ فيه النمو محتشما ثم سرعان ما خطى خطوات سريعة.



تاجر من أورليان فيل (الأصنام) بداية القرن XX



قبر الحاخام سيمون بن سيماح دوران (راشباك) ضريح
المقبرة الإســرائيلية بحي القديس أو جين بمدينة الجزائر

وعلـى المسـتوى الاقتصـادي سـتنمو النشـاطات العصـرية للخـدمات ولكن وفي نفس الوقت سـتختفي الحـرف العريقـة للصـناعة التقليديـة شـيئا فشيئا تحت الوقع الشديد للمعامل.

إلا أنه لابد من انتظار قرن كامل حتى تحول الجالية اليهودية في العمـق هيآتها وحتى ينتهي بصفة نهائية تقريبا البـؤس الكـبير الـذي عاشـته الجاليـة اليهودية في بداية الاحتلال.

بوشناق – بكري
أو الاحتلال الفرنسي

1. حملة تولون
2. يعيش نابليون
3. العداء للسامية
4. فرنسا المتزمتة

لقد كانت الشركة اليهودية بكري - بوشناق التي اتخذت مقرا لها بمدينة الجزائر بطريقة غير مباشرة السبب الرئيسي للاحتلال الفرنسي.

ففي عام 1793 كانت المجاعة تفتك بالناس في فرنسا، فاضطرت هذه الأخيرة بدولتها للاستدانة من هذه الشركة بدين قدره حوالي 15 مليونا لتتزود بالحبوب الجافة.

فقدم الداي سيدي حسان (1790 - 1798) بنفسه جزءًا من التموينات وبالمقابل سدّدت حكومة نابليون الأول جزء من المبلغ.

وفي عام 1819 خفّض تحكيم بالتراضي بين الطرفين إلى مبلغ 07 ملايين مع التحفظ بشأن الديون الفرنسية لدى بوشناق وبكري ورخص القانون الصادر بتاريخ 24 جويلية 1820 الحكومة الفرنسية بتسديد هذا المبلغ للسلطة الحاكمة بمدينة الجزائر.

❶. حملة تولون

قامت الخزينة العامة بتسديد الدين ناقص 2.5 مليون من مبلغ المطلوب من أجل "إرضاء المعارضين"، فاغتاظ حسين داي (1818 - 1830) لهذه الأساليب في التعامل وهذا التباطؤ في التسديد وطالب عدة مرات بتسديد كامل المبلغ المستحق المتبقي وأبدى اهتماما بالقضية.

وحتى تسوى هذه القضية في أقرب الآجال راسل عام 1826 شارل X ولكن مراسلته بقيت بدون رد.

وبتاريخ 27 أفريل 1827 في الوقت الذي قدم فيه القنصل دوفال إلى الجزائر لتقديم تحياته لحسين داي تمت حسب رأيه إهانة "الشرف الفرنسي" فقد طالب الداي بدينه "بصوت متعال" فرد عليه القنصل دوفال "بعزة وحزم" فغضب الداي حسين ولطم القنصل على وجهه بمروحته.

وبعد مرور ثلاث سنوات على الحادثة غادرت حملة يوم 25 ماي 1830 ميناء تولون "بهدف الثأر لشرف فرنسا"، ويعتبر اليهود أعوانا مهمين في مخطط احتلال مدينة الجزائر، فكان يجب تقاسم "الحقائق والمعارف" للتآخي

وصهر مصالح الأمتين، فتم توظيف يهود مرسيليا اللاجئين بمدينة الجزائر بعد مجزرة 28 جوان 1805 كتراجمة وباقتراب الفرنسيين من مدينة الجزائر دبّ الذعر في قلوب الجالية اليهودية التي خشيت أن تتعرض لهجوم مسيحي خاطف شبيه بهجوم الإسبان في القرون الوسطى.

وقد لاحظت مقدمة الجيش الفرنسي بعد نزولها في 29 جوان 1830 فرار اليهود الأوائل من أمامهم الذين التقوهم بمنحدرات مرتفع بوزريعة وذكر شاهد أنه "بمجرد اللحاق بهم والإمساك بأحد تراه يرتعش ارتعاش الورق على الغصن في يوم عاصف ويطلب الصفح عنه بعدما أدرك حسب اعتقاده أنه من الهالكين".

فهذا التخوف من قوات الاحتلال الفرنسية يفسر مشاركة اليهود مع المسلمين في رد الهجوم الفرنسي على قسنطينة 1837 وكذلك الأغواط بالجنوب الجزائري.

لكن اليهود في أغلب الأحيان كانوا يبدون سرورهم بقدوم الفرنسيين ففي مدينة الجزائر كانوا يفرون على ركبهم في الطرقات شاكرين الله ويقبلون الجنود كما وضع وجهاء القوم بكري ودوران أنفسهم في خدمة المارشال دي بورمونت وزير الحربية، كما رافقوا الجيش الفرنسي خلال توغلاته الإستراتيجية كما حدث على سبيل المثال في 26 نوفمبر 1830 مع القوات التي كان يشرف عليها كلوزيل، وشاركوا أيضا بمدينة وهران عام 1833 إلى جانب الفرنسيين في رد الهجومات العديدة للعرب. وسيصرح قائد الأمة اليهودية فيما بعد للضباط الفرنسيين بقوله: "نحن ندافع عن أنفسنا بدفاعنا عن فرنسا".

وفي 5 جويلية 1830 وقع الداي حسين بحضور المارشال دي بورمونت على وثيقة تسليم المدينة، وأصبحت هذه الوثيقة فيما بعد ميثاقا لكل الأهالي بالجزائر وتنص مادتها الخامسة على: "حرية السكان من مختلف الطبقات، ولن يلحق أي ضرر بدينهم وأملاكهم وتجارتهم وصناعتهم".

وكتب عنها س. شفارزفوكس يقول: "تضمنت هذه الاتفاقية التي ستتخذ كنموذج في مفاوضات أخرى من بين ما تضمنته الحرية في الممارسة الدينية والحرية الاقتصادية لليهود".

❷. يعيش نابليون

في بداية الإحتلال الفرنسي للجزائر باشر يهود فرنسا عدة رحلات بهدف "تحديد الوسائل الكفيلة بانتشال هذا الجزء من الإسرائيليين من الجهل ودناءة الوضع الذي يعيشه" فانصبت أول الجهود على التعليم بإعادة تشكيل المدارس التي يشرف عليها الحاخامات داخل البيع، ثم اقترحت فكرة إرسال إلى الجزائر حاخامات خريجي المدرسة الدينية لمدينة ماتز الفرنسية ويتقنون اللغات الفرنسية والعبرية والعربية.

ثم كان على جميع بعدها التعود على لباس البذلة الأوروبية وتكلم الفرنسية وإحداث في نظمهم الأخلاقية وأخيرا الانضمام إلى الجيش الإفريقي.

وحتى تحقق أهدافها نادت اليهودية الفرنسية بفكرة وضع اليهودية بالجزائر تحت الوصاية وكانت تتمتع بدعم من لويس فيليب الذي عرف عنه تعاطفه مع اليهود وصرح في نوفمبر 1835 لممثلي اليهود قائلا "كما أن لدوام يحفر الرخام فإن الأفكار المسبقة الظالمة التي علقت بكم ستتلاشى شيئا نشيئا أمام المنطق البشري والفلسفة"....

وفي عام 1839 شكلت الحكومة الفرنسية لجنة تتكفل بإعداد مشروع نظم الممارسة الدينية والتعليم، ولكن حقيقة أنها كانت تنوي بهذا المشروع لتخلص نهائيا من بقايا استقلالية اليهود بالجزائر.

فقامت بعثة أوصت بها وزارة الحربية مكونة من جاك- إسحاق لطاراس رئيس المجمع الديني لمرسيليا وجوزيف كوهن محامي شاب من إيكس لاشابيل زيارة الشريط الساحلي للجزائر عام 1842 وحررت تقريرا طويلا قع في جزءين.

يعرض الجزء الأول حالة السكان المقدر عددهم بحوالي 16000 نسمة بالمناطق التي زارتها اللجنة أما الجزء الثاني فيقترح الإصلاحات التي ستدخل على الحالة المدنية والدينية لليهود بالجزائر وكان نتيجة هذه المشاريع صدور قرار 9 نوفمبر 1945 الذي سجل تحويل الهيئة السياسية التي كان يمثلها المجلس العبراني إلى مؤسسة دينية وأنشأ مجمعا دينيا جزائريا مقره بمدينة الجزائر ومجامع دينية إقليمية بمدينتي وهران وقسنطينة.

ولم يكن تنظيم هذه المجامع الدينية يختلف عن تنظيم المجامع الدينية بفرنسا الحضرية.

وتوافق التحرر التشريعي والقانوني والإداري ليهود الجزائر مع الاندماج الثقافي والاجتماعي وأصبح الشباب اليهودي يتردد أكثر فأكثر على المؤسسات التعليمية الفرنسية ويتكلم بطلاقة اللغة الفرنسية.

في عام 1860 لم يعرف الثوب اليهودي تغيرات كثيرة ولكن أصبح بإمكان اليهود الآن اختيار الألوان التي تروق لهم.

وخلال أعوام 1860 – 1870 بات لباس الأطفال خاصة في المدن الكبرى يشبه أكثر فأكثر ثوب الأطفال الأوروبيين ونادرا ما كان يعثر على شباب وشابات باللباس التقليدي الشرقي.

أما بالنسبة للمستوى الاجتماعي للسواد الأعظم من يهود الجزائر فكان يشهد تحسنا ولكنه بطيء وبقيت الحرف التجارية الصغيرة والصناعة التقليدية مصدر الرزق الأساسي للأغلبية منهم.

وعلى المستوى القانوني طلب اليهود إدماجهم مع فرنسا وكرر هذا الطلب كذلك خلال زيارات نابليون III إلى الجزائر بين عامي 1860 و1865.

خلال هذا التنقل الأخير وردا على الكلمة الترحيبية وحفل الاستقبال الذي خصصه الحاخام الأكبر لمدينة وهران ماهو شارل فيل لنابليون الثالث، قال الإمبراطور: "أملنا كبير في أن يصبح الإسرائيليون الجزائريون عن قريب مواطنين فرنسيين" وبلغ هذا الوعد القرار المشيخي في 14 جويلية 1865

الذي مكن اليهود والمسلمين على حدّ سواء من طلب حق المواطنـة الفرنسـية بصفة فردية.

ومنح لهم حق التجنس الجماعي بفضل وزير العدل الفرنسـي-أدولفـا كريميو بتاريخ 24 أكتوبر 1870 بموجب المرسوم الحامل لاسمه.



الخمسينيات : أمام البلدية

(وهران) عند خروج من مراسيم زواج



بالبلدية، أمام أحد الأسدين

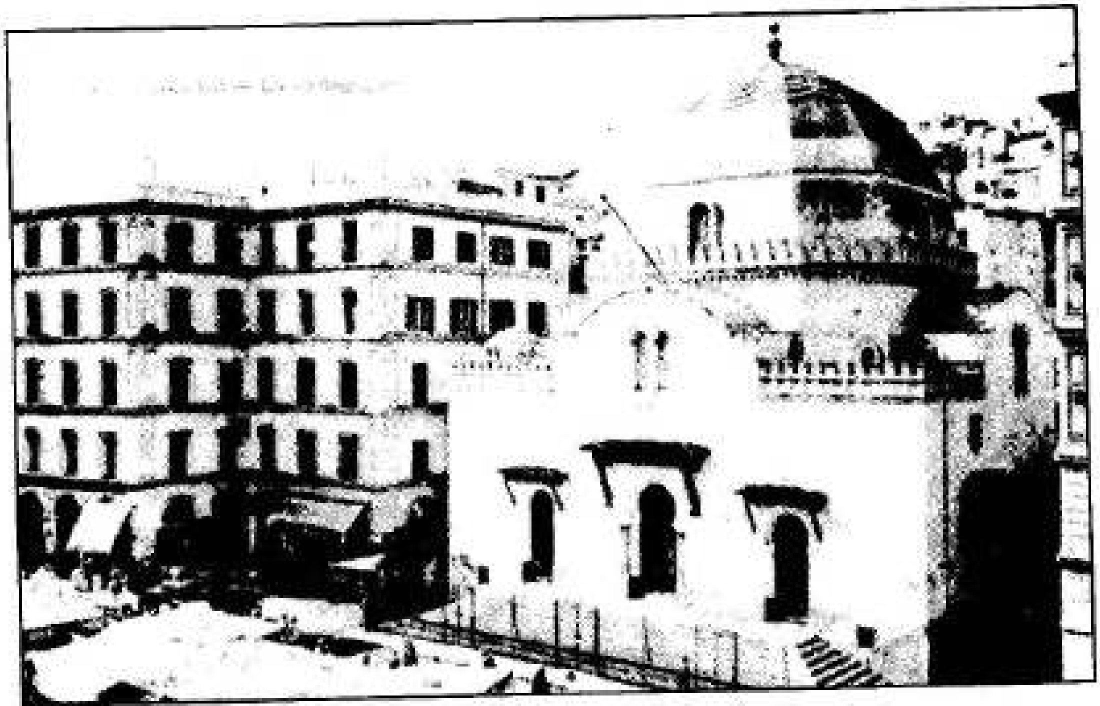
البرونزيين (وهران)



مسجد الشارع الوطني (قسنطينة)



يوم الحناء عام 1961 بقسنطينة



البيعة الكبيرة، بالقرب من شارع روندون

❸. العداء للسامية

لقد نتج عن تنفيذ مرسوم كريميو صعوبات في التطبيق المتعلق بقضايا الدولة والحقوق المدنية. فأهم ما نعين تمثلا في كون إدماج هؤلاء الناخبين الجدد سيحدث تعديلات في الأغلبية في بعض المناطق ظاهر من جهة بينما تم قبولهم في قائمة هيئة المحلفين في المحكمة من جهة أخرى وكان قد وجه لهم اللوم على تكوين ومواصلة تشكيل وحدة منفصلة وعلى إمالة كل القوى التي يتوفرون عليها إلى جهة واحدة وهذا تحت تأثير قادتهم الدينيين.

فأحدث هذا المرسوم رد فعل عنيف في الأوساط التقليدية المعادية للسامية التي ثارت خاصة عند انفجار قضية دريفوس، وطالب اليمين المتطرف وعلى رأسه إيدوارد درومونت بالطرق القانونية وحتى عن طريق العنف مراجعة مرسوم كريميو، واستولى المتطرفون المعادون لليهود على البلديات مثلما حدث بقسنطينة بقيادة المحامي مورينو عام 1896 أو وهران بقيادة الصيدلي غوبيرت عام 1897.

وفي نفس هذه السنة حمّل اليهود مسؤولية البطالة وقيل عنهم أنهم يغتنون على حساب المسحيين والمسلمين، وزادت جريدة " المعادي لليهود " بكتاباتها من حدة عنف العداء للسامية.

وسيجر هذا الجو الذي شنه الوطنيون في أول الأمر نهبا للحي اليهودي بمستغانم في 17 ماي 1897 ثم عمليات سطو لمدة ثلاثة أيام من 20 إلى 2 ماي 1897 على محلات إسرائيليين بمدينة وهران.

وبعدها سجلت نفس الأحداث بمدينة الجزائر ما بين 20 و25 جانفي 1898 حيث تم سلب محتويات محلات لتجار اليهود.

ولم تتمكن الشرطة من الحفاظ على الأمن لمسانئة الجيش الضعيف لها ولوجود العديد من الضباط المعادين لدريفوس والمناوئين لليهود.

وعلى غرار مدينة الجزائر شهدت كل من مدن البليدة وبوفاريك وسطيف مظاهرات متبوعة بعمليات نهب.

وخلال الانتخابات التشريعية لعام 1898 تم انتخاب بأغلبية ساحقة المترشحين الذين ترأسهم أ. درومونت صاحب كتاب فرنسا اليهودية ولم يتمكن سوى سياسيين قديمين وهما غاستون تومسون المعتدل المرشح بعنابة ويوجين إيتيان جمهوري يساري بوهران من الاحتفاظ بمقعديهما.

إلا أن سنوات الاضطراب العقيم التي تعقبتها مظاهرات عنيفة ومشادات وطعنات بالخناجر أقنعت أوروبي الجزائر أن حكومة باريس لن تقبل لغاء مرسوم كريميو، زد على ذلك أن الاستياء الاقتصادي الذي كانت تتخبط نيه الجزائر منذ بداية أزمة زراعة الكروم أظهر أن المشكلة الحقيقية تمثل في عادة الاعتبار للبلاد، وهكذا تم تجاوز روح العداء لليهودية وفقد النواب الأربع لمعادون لليهود مناصبهم خلال الانتخابات التشريعية ليوم 27 أفريل 1902.

وابتداء من هذا الإخفاق الانتخابي عادت حية الجاليات اليهودية إلى لبيعتها الأولى، وعلى الرغم من أن روح التحدي والاحتقار لليهود الذي وجد قبل ملة العداء لليهود بكثير استمر وجوده إلا أن المعركة لأسباب اقتصادية تلاشت.

أما بخصوص الحكم المسبق الشديد الأثر المتعلق بالتشكيك في الشعور الوطني الإسرائيلي الجزائري فقد زالت حدته خلال الحرب العالمية الأولى 1914 - 1918 عندما لبى يهود الجزار نداء "الوطن الأم".



تحطيم محل أبناء عزيزة خلال مظاهرات المعادية للسامية



Les juifs aisés habitent le quartier du Square Bresson. Près du Théâtre (TNA) et de la place de la République



مرش فضي منقوش ومطروق كان يستعمل في رش الضيوف بماء زهر البرتقال خلال الاحتفالات وعند الخروج من البيعة

وأوضحت رسالة من حاخام قسنطينة إلى ابنه الجند في صفوف جيش "تسالونيك" هذا الحب لفرنسا يقول له فيها: "ما أنصحك به هو أن تكون جنديا مثاليا، شجاعا، مطيعا لقادتك ورحيما برفقائك، أنت لم تعد طفلا بل أنت اليوم رجل بما أنّك منحت شرف إرسالك للمشاركة في الحرب للذود عن وطننا العزيز فرنسا.

إن شرف كل العائلة هو الآن بين يديك فحافظ عليه، وحتى تتمكن من ذلك عليك أن تكون جنديا مثاليا وستكون جديرا بحمل لقب فرنسي.

وفي الأخير أوصيك بأداء مهامك وواجبك على أتم وجه وعليك أن تعود إلينا بعد النصر حاملا الوسام العسكري ووسام صليب الحرب ....".

4. فرنسا المتزمتة

يحمل تاريخ اليهود بالجزائر في طياته تناقضا خلال هذه الفترة فعلى المستوى الاجتماعي - وحتى على المستوى الاقتصادي بالنسبة للبعض - كان هؤلاء يتوفرون على وسائل معينة للتحرر والترقية ولكن على المستوى

السياسي شكل العداء للسامية المتوالي والمتجذر ثقافيا في المجتمع الاستعماري أقوى الكوابح لارتقائهم في السلم الاجتماعي.

"فالعداء للسامية بالجزائر كان أساسه الإنكار التام" لحرية "اليهود ورفض مساهمتهم في الحياة السياسية الفرنسية"، مساهمة تعني بالنسبة للأغلبية منهم دعم القوى اليسارية الفرنسية خاصة في الثلاثينيات لمواجهة نشاطات العديد من جماعات اليمين المتطرف.

وضمن هذا السياق غالبا ماكانت تتحول الحملات الانتخابية إلى أزمات عداء للسامية تكون عنيفة في بعض الأحيان كما كان الحال بقسنطينة عام 1934.

وساندت البرجوازية الاستعمارية الكبرى قوى اليمين المتطرف واضعة حاجزا أمام التحرر الاجتماعي والاقتصادي لليهود.

وخلال الثلاثينيات القليل من اليهود فقط كان يتحصل على عمل في الشركات الصناعية الخاصة الكبرى أو الشركات التجارية غير اليهودية.

"فالمقاطعة الاقتصادية لليهود كان السلاح المفضل لدى التشكيلات المعادية للسامية، حتى أنها كانت أول، إجراء صادقت عليه" الصداقات الفرنسية "التي نصحت أعضاءها بالكف عن توظيف اليهود حتى كخدم في البيوت".

فبرز رد فعل اليهود في شكلين: التسلح بإرادة تقريبا عامة ودفع الغير للاعتراف بوجودهم في البلد وضمن المجتمع الفرنسي الجمهوري، وعلى هذا المنوال تحرك قادة الجاليات اليهودية المنحدرون في غالبيتهم من التجار البرجوازيين للعواصم الكبرى للمنطقة الشعبية اليهودية المشكلة من العمال والحرفيين والطبقة ما دون الكادحة، جزئيا طرفا في الحركات العمالية الفرنسية (النقابات والأحزاب السياسية) التي كان لها نفوذ في بعض الإدارات (إدارة البريد على وجه الخصوص) أين كان التوظيف مفتوحا على قدم المساواة لليهود ولكل الفرنسيين.

وبهذه الطريق ساهمت نسبة لا بأس بها من الموظفين البسطاء والعمال اليهود من الأحياء الشعبية للقصبة السفلى لمدينة الجزائر وعمال يهود

من مراكز حضرية كبرى أخرى في النضال العمالي للثلاثينيات وسيثبتون عن طريق إيديولوجيات دولية مناهضة العنصرية خاصة رغبتهم في المساواة السياسية وإرادتهم في الاندماج في المخطط العرقي والاقتصادي للبلاد.

إلا أن الحرب العالمية الثانية أحدثت تغييرات معتبرة في هذه المعطيات الاجتماعية والسياسية، فقوانين فيشي أقصت اليهود من صف المواطنة الفرنسية ومن المنظومة الدراسية مؤججة روح العداء للسامية الذي طال حتى صفوف اليسار، ومع ذلك وبالمقابل أنهى زوال الإستعمار مسار الإدماج الاجتماعي والسياسي ليهود الجزائر في المدينة الجمهورية وحتى في الجهة المقابلة للبلاد.

فقد سجل العداء للسامية حضوره على كل مستويات الحياة الإجتماعية والسياسية وميز جزائر الثلاثينات.

وتجلى هذا الجو العدائي الذي انضمت إليه الأغلبية الساحقة من السكان الأوروبيين بالجزائر عبر صحافة ساخطة تروج عبر صفحاتها لروح العداء وتنقل الأوامر والنقد اللاذع.

وسيجد "العداء لليهودية" متنفسا له هو أيضا ضمن التجمعات السياسية مثل الحزب الشعبي الفرنسي والحزب الاجتماعي الفرنسي اللذين سيناضلان بدون هوادة لصالح إلغاء مرسوم كريميو، وستستغل كل الوسائل للتنديد بمرسوم 24 أكتوبر 1870 هذا القرار الذي منح اليهود الأهالي حق المواطنة الفرنسية.

وكما أشار إليه ش. روبيرت أجيرون فقد وصل الأمر ببعض رؤساء البلديات إلى حد شطب من القوائم الانتخابية اليهود الذين لم يتمكنوا من إثبات أن أولياءهم قد وقعوا فعلا تصريحا بالأهلية الجزائرية عام 1870.

وسترفع كل من هزيمة فرنسا وسياسة تعامل الدولة الفرنسية مع النازيين المنتصرين التي اختارها المارشال بيتان ووزراؤه بكل حرية الأطروحات المعادية لليهود إلى مرتبة برنامج حكومة.

وبالجزائر استقبلت شريحة واسعة من الفرنسيين ذوي الأصل الأوربي بحماس فياض هذه الوضعية الجديدة.

فإلغاء مرسوم قانون مارندو الصادر في 27 أوت 1940 المتعلق بقمع الكراهية العنصرية المعبر عنها عن طريق الصحافة كان تمهيدا لسلسلة من الإجراءات التي سيذهب ضحيتها حوالي 130.000 من يهود الجزائر.

فصدر أول قانون أحوال شخصية لليهود بموجب القانون المؤرخ في 3 أكتوبر 1940 والذي أعطى تعريف اليهودي وأعدّ قائمة الوظائف العمومية والمهام المحظورة عليه وحدد طرق تطبيقها ودخل حيز التطبيق في فرنسا الحضرية والجزائر على حد سواء.

وبعد أربعة أيام وبتحريض من وزير داخلية حكومة فيشي، الحاكم العام السابق للجزائر مارسيل بيروتون ألغى قانون 07 أكتوبر 1940 مرسوم كريميو المنصوص عليه 70 سنة من قبل.

وبسرعة غير معتادة تم خلال اليوم الموالي نشر القانون في الجريدة الرسمية للدولة الفرنسية في حين لم يأخذ قانون الأحوال الشخصية لليهود طابعه الرسمي إلا في 18 أكتوبر 1940. فوجد يهود الجزائر أنفسهم بعدما كانوا يتمتعون بحق المواطنة الفرنسية منذ حوالي القرن، بين عشية وضحاها يتقهقرون إلى درجة يهود أهالي وهي الوضعية القانونية التي كان يحملها أجدادهم.

وسمحت بعض الحالات الاستثنائية بسبب المشاركة في الحرب بالاحتفاظ بحق المواطنة الفرنسية كوضعية سياسية.

ثم تم إصدار قانون ثان بتاريخ 11 أكتوبر 1940 الذي جاء متمما لسابقه وألغى حق المواطنة الفرنسية عن الذين تحصلوا عليها بصفة فردية بموجب القرار المشيخي بتاريخ 14 جويلية 1865 أو على أساس قانون 4 فبراير 1919.

وشرع في تطبيق الإجراءات التمييزية لحكومة فيشي بالجزائر تحت سطوة اللواء ماكسيم ويغاند المندوب العام للمشير بيتان شمال إفريقيا والحكام العامون - الفريق أبريال ثم إيف شاتل.

وستشهد الجزائر سطوع نجم المنظمات القريبة من النظام الجديد وهكذا تحول تجمع قدماء المحاربين "الوسام الفرنسي للمحاربين" الذي يزخر بـ 150.000 عضو في صفوفه بسرعة مذهلة إلى وسيلة سياسية لدعم السلطة.

ومن التشكيلات الحديثة نجد "خدمات المصف الفيلقي" (خ.م.ف) الذي برز "كقوة تدخل ثورية"، وقد حدد (خ . م . ف) الذي أسسه ويقوده جوزيف دارناند في مهمته الأساسية أعداءه بهذا التصريح: "مكافحة الديمقراطية والمنشقين الديغوليين والجذام اليهودي" ألغى قانون أحوال ثان لليهود صدر بتاريخ 2 جوان 1941 وعوّض القانون الصادر في 3 أكتوبر 1940 وتم بموجب القانون الجديد توسيع مفهوم اليهودي وارتفعت نسبة الإقصاءات وزادت المخالفات نوعا ما.

وفي نفس اليوم شرع في تطبيق القانون الصادر في 2 جوان 1941 الذي يخضع اليهود لعملية الإحصاء ويحدد وضعية أملاكهم بتراب الجزائر بموجب مرسوم صدر بالجريدة الرسمية للجزائر بتاريخ 26 أوت 1941 فتم ضبط 116.800 يهودي عند نهاية عملية الإحصاء في شهر سبتمبر 1941 وأصبح يؤثر على بطاقة تعريفهم بعبارة "يهود أهالي" وتم إنشاء "المصلحة الجزائرية للقضايا اليهودية" بموجب المرسوم المؤرخ في 14 أوت1941 الذي وضعه اللواء ويغاند التي تكلفت بتطبيق القانون التمييزي.

إجراءات تتضمن قانون الأحوال الشخصية كفصل أعوان الإدارة والمصالح العمومية والمصالح البلدية من مناصبهم.

وبعد صدور القانون الثاني للأحوال الشخصية اليهودية تم إبعاد الناشرين وتجار الأملاك والوسطاء التجاريين...، وتم بموجب القانون الصادر في 02 جويلية 1942، وهو غير قابل للتطبيق في فرنسا، كذلك منع اليهود من استغلال مقهى أو تسيير محل مشروبات وطال الأمر هذه المرة حتى قدماء المحاربين منهم.

كما طبق النصاب الإجباري نسبة 2 % على أعضاء المهن الحرة كالمحامين والموثقين ووكلاء الدعاوي والمحضرين ومحافظي البيع بالمزاد العلني

والأطباء وجراحي الأسنان والقابلات والمهندسين المعماريين مع منعهم من اتخاذ أسماء مستعارة.

إجراءات تتعلق بقانون الأملاك وستكون أولى الإجراءات التي تتخذها "المصلحة الجزائرية للقضايا اليهودية" على وجه التحديد عملية إحصاء اليهود الجزائريين الذي سيكون مطية لاغتصاب أملاك اليهود وفيما بعد تم إنشاء "مصلحة لتصفية الاقتصاد وتطهيره" بموجب مقرر مؤرخ في 15 ديسمبر 1941 وبلغ - الحكومة العامة أكثر من 6000 طلب منصب للإدارة المؤقتة "لمؤسسات وأملاك وممتلكات ذات قيمة تابعة لليهود أو هم مشرفون على تسييرها".

فأوكلت للمكلفين بالمهام عينهم المحافظ العام للقضايا اليهودية مهمة ضمان الربط بين المصالح المكلفة بالقضايا اليهودية بشمال إفريقيا والمصالح بباريس وفيشي.

وبعد أقل من ثلاثة أشهر من صدور قانون 29 سبتمبر 1941 الذي سمح بإنشاء "الإتحاد العام لإسرائيليي فرنسا" تأسس بموجب المرسوم المؤرخ في 14 فبراير 1942 المنشور بالجريدة الرسمية بتاريخ 31 مارس من نفس السنة لدى الحاكم العام "الاتحاد العام لإسرائيليي الجزائر" يتمثل موضوعه كما جاء في المادة الأولى من قانونه في: "ضمان تمثيل اليهود لدى السلطات العمومية بما في ذلك ما يتعلق بمسائل المساعدة والاحتياط وإعادة التصنيف الاجتماعي".

في الواقع لم يمارس الاتحاد العام لإسرائيليي الجزائر أي نشاط، فشهران فقط بعد تعيين أعضائه كان إنزال قوات الحلفاء بالجزائر في نوفمبر 1942.

وباستثناء حالات نادرة جداً لم يطلب أي مسلم منصب مدير مؤقت أو طلب امتلاك أملاك يهودية.

وبصفة عامة بقيت الجالية المسلمة بعيدة عن حملة العداء للسامية فقد باءت بالفشل المحاولات العديدة والمتكررة لحكومة فيشي لإحداث صدام بين الجاليتين، وحتى عندما اقترح مبعوث الحكومة العامة في بداية سنة 1942 تمكين فرحات عبّاس أحد زعماء الحركة الوطنية الجزائرية من رأس اليهود وتقديمهم له "على طبق من ذهب" رفض هذا الأخير هذا الاقتراح المخزي.

وفي مجال التربية تم طرد اليهود الأعضاء في سلك التدريس مثل ما حدث مع باقي الموظفين اليهود الآخرين، وكان الإجراء فعليا بالجزائر ففي 19 ديسمبر 1940 - عزل 465 معلما وأستاذا من مناصبهم.

وأمام إجراءات الإقصاء هذه خرجت للوجود "جمعية دراسة ومساعدة وإعانة" يرأسها الدكتور أندري ليفي فالنسي، وسمح إنشاء صندوق إعانة يمول من هبات واشتراكات اليهود الميسورين بمساعدة الموظفين ضحايا القوانين الاستثنائية.

كما ضبط قانون 21 جوان 1941 شروط قبول الطلبة اليهود في مؤسسات التعليم العالي وطبق عليهم النصاب الإجباري بنسبة 3 % وتجسد هذا الإجراء على أرض الواقع بالجزائر بصدور مرسوم 23 أوت 1941 وكتب ميشال أنسكي عن هذا الوضع ووصفه بقوله: "الجزائر بلد يعيش تحت ظل نظام بيتاني أكثر من نظام المسير بيتان بفرنسا".

وستبرز هذه النظرة من خلال إجراء خاص بالجزائر شرع فيه الحاكم العام المشير أبريال ورئيس الأكاديمية ج. هاري والمتمثل في تطبيق النصاب الإجباري على التعليم الابتدائي والثانوي.

وعشية الدخول المدرسي ودون أية دعامة قانونية حددت رسالة عادية مؤرخة في 30 سبتمبر 1941 وجهها اللواء ويغاند للحاخام الأكبر لمدينة الجزائر موريس أيزنبيث طُرقَ تطبيق النصاب الإجباري.

"لقد تم إعداد نصاب إجباري للتعليم الابتدائي وحدد في كل مدرسة بنسبة 14 % من عدد التلاميذ، وسيشرع في تطبيقه على التلاميذ الجدد خلال الدخول المدرسي المقبل.

ومن جهة أخرى وحتى أسهل عليكم تنظيم التعليم الابتدائي الإسرائيلي قررت عدم تطبيق هذا النصاب وبصفة مؤقتة على التلاميذ المزاولين للدراسة.

إلا أن هذا الإعفاء محدود الصلاحية بتاريخ 31 ديسمبر القادم.

وابتداء من تاريخ أول جانفي 1942 ستطبق نسبة 14 % على جميع التلاميذ اليهود ويطرد الأطفال الإضافيون بصفة مباشرة وتلقائية".

في 21 نوفمبر 1941 حدد الحاكم العام الجديد إيف ش. شاتل في رسالة وجهها إلى الحاخام الأكبر نسب النصاب الإجباري لكل تعليم كالتالي: 3 % بالنسبة للتعليم العالي و 14% للتعليم الثانوي و 14% للتعليم الابتدائي.

DÉSIGNATION

DES

MAGASINS JUIFS & DES MAGASINS NON-JUIFS

NOUVEAUTÉS

Nous commençons la publication des magasins juifs et au-dessous les magasins Français :

MAGASINS JUIFS

Rue Bab-Azoun :

Au Tapis Vert. — Au Petit Profit. — A la Renaissance. — Au Pauvre Indigène. — Aux Montagnes Russes. — Au Bon Marché. — Au Pauvre Diable. — Au Vieux Colon. — Au Caban Blanc. — Gaspillage. — Aux Quatre Saisons. — Au Hasard. — Roi des Soldeurs. — A la Petite Jeannette. — Aux Trois Quartiers.

Fabrique des Voyages, rue Dumont-d'Urville. — A la Grande Poste. — rue de la Liberté, 6. — A la Gazelle, rue d'Isly. — Au Petit Duc, rue Henri-Martin. — Au Petit Paris. — Quatre Nations. — Au Petit Louvre, rue d'Isly.

(*L'ANTIJUIF*).

FRANÇAIS N'ACHETEZ RIEN CHEZ LES JUIFS

Voici le nom des marchands de nouveautés français auxquels vous devez accorder vos préférences.

نسخة من جريدة "المعادي لليهود"

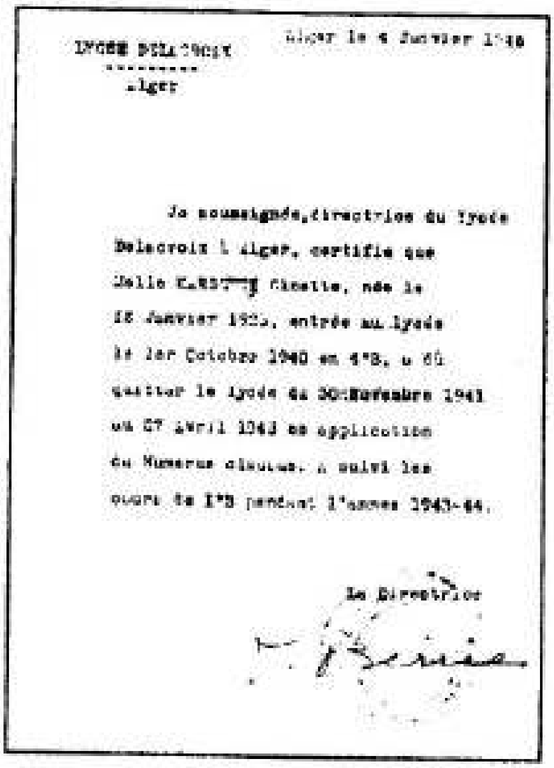
قائمة المحلات اليهودية

مشار إليها المحلات "الفرنسية"

النصاب الإجباري بثانوية دولاكروا

روجيه حانين يقص :

بثانوية بيجود كان يتم تطبيق النصاب الإجباري في أجـواء لامثيل لها، فكان يدخل المدير ثم يليه الناظر ثـم المراقـب العام الذي يشرع في مناداة الأسـماء المنبـوذة: "بكـري، دارمون، ليفي..." وكنا نقف الواحد تلو الآخـر، وتسـتمر تلاوة الأسماء "سطورا، غولدن، برغ، بلوم، كـوهين، بـن شتريط...." فيقف الجميع عند سماع اسمه، وعلى الـرغم من تحذيرنا ومعرفة أن الأمر نفسه حدث في هذا القسـم أو ذاك، لم نأبه، فكنا نأمل أن تحدث معجزة خارقة وننجو من هذا المصير. وعندما نطق المراقب العام اسمي: ليفـي روجـيه قمت من مجلسي فشعرت آنذاك في داخلـي بـألم تشوبه الإهانة والخوف والخجل ولكن يمكنني أن أؤكد فـي هذه اللحظة التي أخط فـيها هذه السطور أنني كنت أشـعر في صدري وفي قلبي بقوة كبيرة احتفظ بها كاحتياط.


LYCÉE DELACROIX
Alger

Alger le 4 Janvier 19[illegible]

Je soussignée, directrice du lycée Delacroix à Alger, certifie que Melle [illegible] Ginette, née le 28 Janvier 19[illegible], entrée au lycée le 1er Octobre 1940 en 4°B, a dû quitter le lycée du 30 Novembre 1941 au 27 avril 1943 en application du Numerus clausus. A suivi les cours de 1°B pendant l'année 1943-44.

La Directrice

اليهود العرب، اليهود الجزائريون
اليهود الفرنسيون

❶ . أسطورة سكان مدينة الجزائر

❷ . في الغرب : مرسى الكبير والمجامع الدينية

❸ . الأغواط : يولد المرء يهوديا ويموت يهوديا

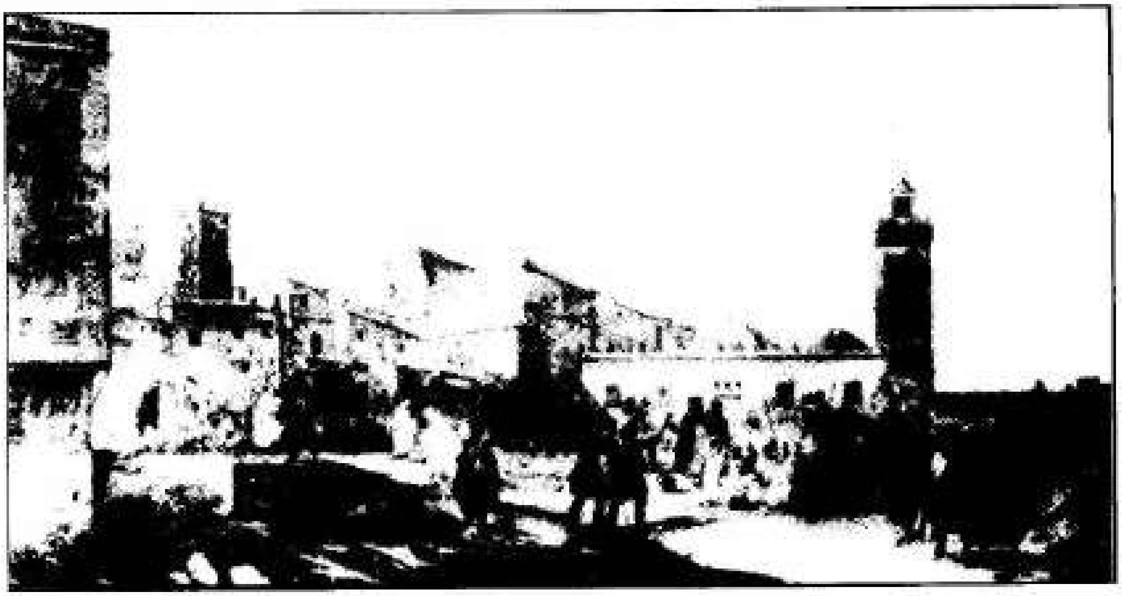
❶. أسطورة سكان مدينة الجزائر

في عام 1830 لم يكن تعداد سكان مدينة الجزائر من اليهود الذين ذهب الكثير منهم ضحية الطاعون الكبير الذي اجتاح المدينة عام 1787 ولم يسترجعوا أنفاسهم بعد هذه الفاجعة إلا بعد فترة طويلة سوى 5000 نسمة.

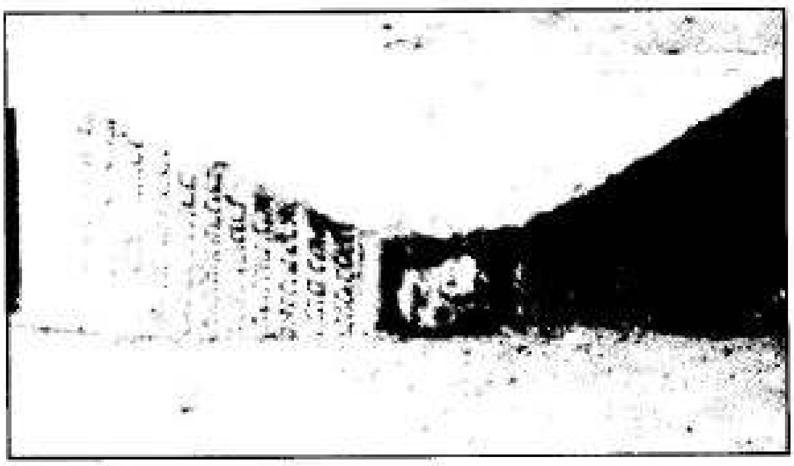
ومن بينهم بعض الأغنياء أعضاء العائلات التقليدية الكبرى التي توسعت دائرتها لصالح وسطاء ليفورنيين جدد حلّوا بالمدينة أمثال عائلات ليفي فالنسي، وبوجيورنو، وزاكوتو، وألفاريغو، ولونسوادا، ومورنو وبالمناسبة فإن هؤلاء كانوا يرتدون ثيابا غربية أنيقة جداً بينما بقي وجهاء الأمة القدماء متمسكين ببدلتهم العربية التركية العريقة والجميع كان يرى أن إقامة الحكم الفرنسي بعاصمة الجزائر لا يخلو من المشاكل لأن السلطات الجديدة جعلتهم يدفعون ضريبة باهضة ولم تمنحهم سوى ممثل واحد بالمحكمة التجارية لمدينة الجزائر أين يقيم إلى جانبهم خمسة فرنسيون وعربي واحد.

وعليه تحول بعض هؤلاء الوجهاء إلى نشاطات أخرى، فالبعض منهم من يتقنون اللغة العربية ولهم معرفة بالمجتمع العربي أصبح ضمن حدود مقاطعة مدينة الجزائر وخارجها تراجمة مكلفين بالترجمة بين اللغتين الفرنسية والعربية ونالوا إعجاب السلطات الإدارية الفرنسية العسكرية منها والمدنية.

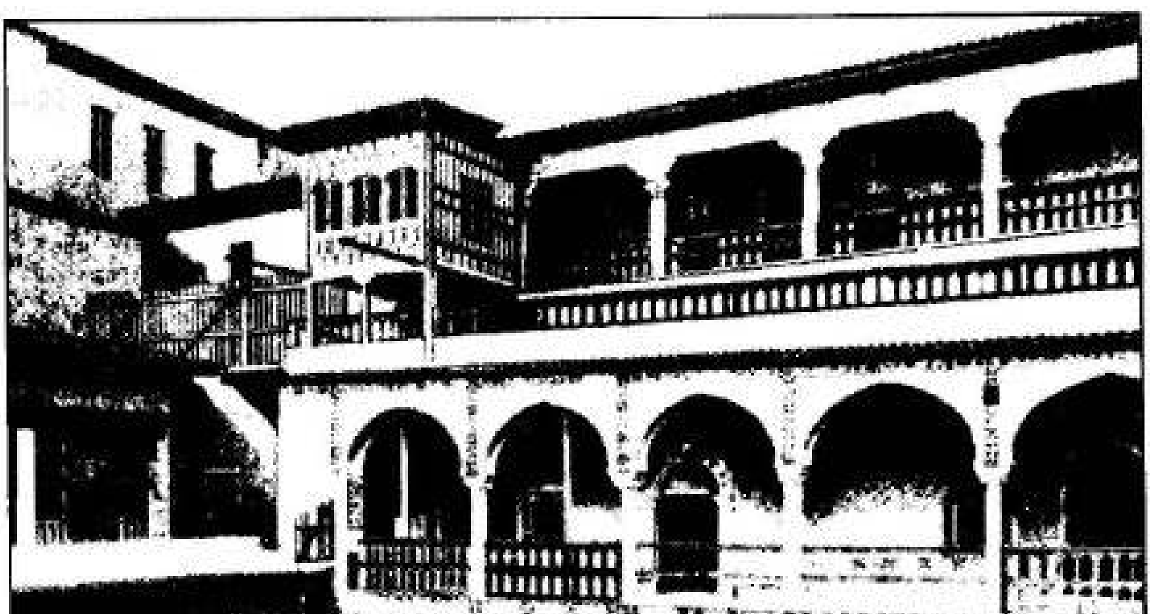
وتمكن اليهود أخيرا بمدينة الجزائر من الإبقاء على مستوى معيشتهم الرفيع فهم يقطنون مساكن لائقة والكثير منهم أخذ يقتني مساكن بالأحياء الأوروبية الأنيقة بحي القديس أوجين على شاطئ البحر ومساكن على وجه الخصوص بالأبيار وحيدرة وبمرتفعات المدينة بينما كان الفقراء من اليهود يقطنون كما كان الأمر عليه في السابق الأحياء الضيقة في الجهة السفلى من القصبة المتاخمة للأحياء العربية التركية وإما " المساكن الشعبية " التي بناها بناؤون فرنسيون بما فيها أحياء باب الوادي.



مدينة الجزائر القديمة نحو 1830: شارع الدباغين ومستقبلا ساحة مقر الحكومة



شاهد قبر ناثان
كوركوسي المتوفي عام 1835
موضوع أرضا أمام متحف
الآثار بمدينة الجزائر



الجناح المسمى 'حادثة المروحة' الإقامة السابقة لداي مدينة الجزائر

فلباسهم الأوروبي رث وهم يكسبون قوت يومهم بعناء كبير إلا أنك لا تسمع منهم شكوى عن مصيرهم فهم سعداء لتخلصهم من وضعية الذمي التعسفية التي أخضعوا لها قبل قدوم الفرنسيين عندما كانت السلطة بمدينة الجزائر بين يدي العرب والأتراك المسلمين، فهم يعتبرون أن دينهم وثقافتهم اللّذين يرتبطان بهما ارتباطا وثيقا في حفظ وصون. وأكدت السلطات الفرنسية من جهتها أنها تود الإبقاء على توازن عادل بين حقوق الجالية اليهودية والجالية المسلمة.

في عام 1836 ألغت السلطات الفرنسية في كل المدن التي أحكمت سيطرتها عليها منصب "مقدم" لليهود، فأصبح الممثلون الحقيقيون "للأمة اليهودية" بمدينة الجزائر رجال الأعمال ورجال السياسة (بوشناق، بن دوران، جوزيف لعزري، مردوخي، عمار) الذين كتب عنهم اللواء أزان أحد أهم المؤرخين الرسميين للاحتلال قائلا: "إنهم وضعوا كفاءاتهم ومعرفتهم بالشؤون العربية في خدمة الجيش الفرنسي".

وتعقدت وضعية البسطاء من الناس أكثر خلال هذه الفترة فقد شاهد أصحاب الدكاكين فتح دكاكين منافسة لهم يسيرها سكان قبائل نزحوا من المناطق الجبلية المجاورة أو سكان بني مزاب قدموا من الجنوب، (وقدّر عددهم بحوالي 1500 شخص في العاصمة) ونافس الجواهريين والإسكافيين اليهود باعة الأحذية والحلي المستوردة من أوروبا، ولم يكن يتقاضى العمال والموظفون اليهود سوى أجور زهيدة.

في عام 1841 أحصت بلدية مدينة الجزائر 6153 يهوديا معوزاً يعيشون في أسفل درجات السلم الاجتماعي منهم 1750 تتوقف معيشتهم مباشرة على إعانات الجالية.



يهودي من مدينة الجزائر نحو عام 1860

وخلال سنة 1846 عين ميشال هارون فايل القادم من فرنسا كأول حاخام أكبر لكامل الجزائر، فقرّر هذا الأخير تعيين شخصيتين يهوديتين من مدينة الجزائر كمساعدين له وكذلك شخصيتين يهوديتين قادمتين من فرنسا جوزيف كوهين وم. قوقنهايم كمساعدين.

وفي ظل الجمهورية II (1848 - 1851) وظل الإمبراطورية الثانية (1851 - 1870) تواصلت حركة "التجنيس الشامل ليهود الجزائر" بخطى بطيئة ولكن منتظمة.

فتحولت مدينة الجزائر أكثر المراكز إشعاعا وسعرا لليهودية الجزائرية.

ففي عاصمة الجزائر أصبح الإخوة حاييم ويعقوب كومين صولال عام 1855 أول المطبعيين اليهود ببلاد المغرب، فبتعلمهم فن الطباعة العبرية تمكنوا من طباعة "الها غاداك بيساح" (الذي سيطلق عليه فيما بعد اسم "هاغاداك" مدينة الجزائر).

فمرسوم كريميو المؤرخ في 24 نوفمبر 1870 الذي يمنح الجنسية الفرنسية لكل "الأهالي الإسرائيليين" المولودين بالجزائر لم تجمع عليه الجالية اليهودية، واستغل الحاخامات والوجهاء في كل مكان تقريبا لصالحهم الجملة التي تلفظ بها عضو من المجمع الديني بقسنطينة الذي قال "نحن نفضل الإبقاء على الصلاحيات التقليدية المتروكة لنا على الامتيازات المرتبطة بالمواطنة الفرنسية والتي تهددنا بالفقدان الأكيد لأصالتنا".

إلا أن الأقلية القليلة من اليهود القابلة لمرسوم كريميو بمدينة الجزائر لم تجد معارضة شديدة من الجالية على عكس باقي مناطق الجزائر.

إلا أن تطبيق مرسوم كريميو سيكون مبرراً لإنعاش روح العداء العربي الإسلامي للديانة اليهودية واليهودي الذي بقي مستتراً بمدينة الجزائر وباقي المدن الجزائرية الأخرى حتى وإن كان التعبير عنه في أغلب الأحيان متعدلاً.

فعلى سبيل المثال هنأ الباش آغا المقراني وشكر بحفاوة محامين يهوديين (الأستاذان صرور وحونال) على "دفاعهم" عن الثوار العرب الذين حاربوا

جانبه لكنه صرح في أواخر عام 1871 أنه ضد مرسوم كريميو قائلا: "لن أخضع ليهودي أبداً ولن يخضع العرب لليهود الذين يصيرون فرنسيين".

وتزامنت هذه الظاهرة مع الدفع الأقوى لروح العداء الأوروبي للسامية بالجزائر والعداء للسامية بفرنسا.

ففي باريس لم يهضم مرسوم كريميو فقيل عنه أنه: "إذا تم تطبيق النص فعلا فإن الفرنسيين اليهود المتمدرسين بنسبة 25٪ مقارنة بالفرنسيين غير اليهود المتمدرسين بنسبة 20 ٪ فقط سيستولون حتما عن طريق الانتخابات على الإدارات والبلديات وكل التأثير السياسي بالجزائر"، فأطلق هذا الشعار "سيستولون عل كل مناصبنا" الذي سيكون عند نهاية القرن XIX والجزء الأول من القرن XX المبرر الأساسي للدعوة المسيحية للعداء للسامية الناشئة بالجزائر، وكان عمال بمصالح الأحوال المدنية يرفضون ولأسباب يزعمون أنها قانونية تسجيل الزيجات اليهودية، وبالولاية سعى موظفون يطبقون سياسة "فرق تسد" القديمة لتعريض العرب واليهود بعضهم على بعض باستعمال بعض المحرضين الذين يرفعون بالمناطق الريفية العربية والتقليدية لمدينة الجزائر شعار "الربوي هو اليهودي".

"والتأكيد على هذا الأمر فيه خطأ لأن من بين المقرضين الربويين ذوي الزبائن العرب المدانين من غير اليهود هم أكثر عددا من اليهود أنفسهم إلا أن كذب الذين يصرون بالذات على الأثر السلبي للنشاط الربوي لليهود فقط لم يمر دون أن يحدث أثرا في السكان".

وأصبحت العملية ذات مفعول مخيف عندما قامت عام 1873 إجراءات قانون فارنييه الاستعمارية المتشددة الخاصة "بتجمع القبائل" بتفكيك البنية الاجتماعية المشكلة حول الملكية العربية الإسلامية فاضطر العديد من الفلاحين المفلسين إلى الاستدانة يوما بعد يوم لدى القارضين الربويين وحمّل بعض هؤلاء الضحايا القارضين اليهود خاصة إثم الربا.

وخلال السنوات التي تلت صدور قانون فارنيه دفعت حملات العداء للسامية المئات من اليهود بمدينة الجزائر الذين كانوا متحفظين بخصوص

مرسوم كريميو إلى إمالة مواقفهم والسعي في طريق قبول هذا النص الذي اعتبر: "كأفضل وقاية ضد الذين يعادون اليهود".

ولكن هذا التطور "العصرني" لم يجعل الطابع التقليدي للجالية اليهودية يتراجع إلا بخطوات بطيئة.

فيمكننا ملاحظة على سبيل المثال أن القاعدة الشفوية ولكن الصارمة التي تمنع الزواج المختلط محترمة جدا، فقد كشفت إحصائيات نشرتها السلطات الفرنسية أنه من عام 1830 إلى غاية 1875 لم يتجاوز عدد اليهوديات ويهوديي مدينة الجزائر الذين تزوجوا من أوروبيين وأوروبيات الأثنا عشر. وفي عام 1876 طالبت عريضة تم تمريرها عبر مناطق العاصمة بتعيين حاخام أكبر بمدينة الجزائر "من أصل محلي".

لكن المحافظين لم يتلقوا الرد الشافي مباشرة بخصوص هذه النقطة إلا أنه سنوات فيما بعد وبعد منازعات عديدة بخصوص تسييره تحصلوا على استقالة الحاخام فايل "اليهودي القادم من فرنسا".

خلال سنة 1880 سجلت صراعات كانت في بعض الأحيان شديدة داخل الجالية اليهودية بالجزائر بخصوص تحديد موقف الناخبين اليهود من الاقتراع، فالقاعدة التي فرضتها المجامع الدينية في جميع الأنحاء تمثلت في الانتخابات لكل اليهود لصالح المترشحين الأصلح لخدمة مصالح الجالية، إلا أن اختيار "المترشحين الأصلح" يكون دائما مسبوقا بنقاشات دقيقة مفصلة وفي بعض الأحيان حادة.

وبخصوص "أصوات اليهود" فيمكن تسجيل مدينة الجزائر كحالة خاصة جداً، فمن جهة أولى كون اليهود كأقلية ولكن فاعلة تعترض حتى على مبدأ الانتخاب المكتل ومن جهة أخرى رفض العديد من اليهود في عدة مناسبات التعليمات التي أعطاها المجمع الديني المعروف عليه أنه محافظ وفضلوا الانتخاب بصفة فردية لصالح مترشحي اليسار، وحدث أمر كهذا على سبيل المثال خلال الانتخابات البلدية لسنة 1885.

LISTE ANTI-JUIVE

Tous les Français contre l'ennemi commun.
Le juif : Voilà l'ennemi.

MM.

GOBERT, pharmacien, ancien Conseiller municipal.

WEBER, Edgard, docteur en médecine, Officier de la Légion d'honneur, Adjoint au Maire démissionnaire.

AYRIBIER, Alexandre, imprimeur, conseiller démissionnaire.

BÉDIER, Gratien, avocat, conseiller démissionnaire.

IRR, Paul, représentant de commerce, conseiller démissionnaire.

PETIT, Emile, propriétaire-viticulteur, conseiller démissionnaire.

REVY, Laurent, commis des Postes en retraite, conseiller démissionnaire.

VENEL, ouvrier menuisier, conseiller démissionnaire.

ARNAUD, Aristide, ex-agent voyer.

BERTRANDIE, maître de chai.

BICHON, Edouard, géomètre principal en retraite, propriétaire.

CAVAILLÉS, [illegible] l'Association Fraternelle des Travailleurs français.

CATELAN, Ph., publiciste.

CHOUVEL, Melchior, courtier.

COSTAGLIOLA, Nicolas, Maître armeur.

FAURIE, Horace, Négociant en vins.

FROGET, Louis, Propriétaire.

GABANOU, Officier principal en retraite, chevalier de la Légion d'Honneur, Président de l'Oranaise.

GUILLABERT, Vincent, Propriétaire et Maître-charretier.

GUILBAUME, Emile, mécanicien et entrepreneur de serrurerie.

GUYONNET, Jean, propriétaire.

LOZES, Fernand, propriétaire.

LUCIANI, Joseph, entrepreneur de travaux publics.

MENUDIER, Jean (De Terrier), Président de l'*Avenir du Prolétariat*.

PEFFAU, Théophile, commandant d'artillerie en retraite, officier de la Légion d'honneur.

ROCH, propriétaire, président du Syndicat des propriétaires.

ROGER, Emile, agronome, chevalier du Mérite Agricole.

SALVETAT, Paul, charcutier.

SUBERCAZES, docteur en droit.

THOUVENIN, Honoré, entrepreneur de travaux publics.

Gare au piège !

Les deux jo[urn]aux juifs, le *Fanal* et le *Colon*, insinuent que la juifaille s'abstiendra aujourd'hui ; qu'elle ne prendra aucune part aux élections.

Le but des protecteurs des juifs est tout simplement de refroidir le zèle des électeurs Français.

Vers 4 heures du soir, Kanoui enverra ses moutons aux urnes, et tous, comme un seul juif, voteront d'après le mot d'ordre reçu.

Français !

Ne vous laissez pas prendre au piège.
Votez ! Votez tous ! !
Pas d'abstentions !
Pas de divisions !
Pas de défaillances !
Tous aux urnes et pour la **Liste anti-juive !**

Pour le comité anti-juif,

Cᵗ PEFFAU, Paul BIDAINE, G. IRR.

Oran, le 7 Mars 1897

FRANÇAIS AUX URNES !

Citoyens !

A l'heure qu'il est, l'opinion de tous les électeurs est faite. Tous savent ce qu'ils sont en droit d'attendre des trois listes en présence.

Les candidats qui entourent M. Coutures n'ont point caché leur désir d'être élus, grâce au concours de la juiverie.

Le devoir des Français est de refuser leur vote à ceux qui, en une circonstance aussi décisive, n'hésitent pas à faire alliance avec Israël.

Parmi les candidats de la liste Giraud, il en est de nombreux qui ont ouvertement déclaré ne pas pouvoir lutter contre la juiverie ; d'autres ont combattu sous le drapeau juif le dix mai dernier ; d'autres, enfin, sont d'habiles nageurs qui ne cher[illegible] pour faire leurs propres affaires.

M. Giraud, à l'honorabilité de qui nous rendons hommage, n'a pas su éviter les pièges à lui tendus par les gens de la Bande opportuniste, et il sait aujourd'hui combien étaient peu sincères les concours qu'il a eu le tort d'accepter.

Reste la liste **Anti-juive**. Celle-ci est composée d'hommes connus, aux convictions solides inébranlables.

Leur but, en accep[illegible]
fronter la lutte n'est p[illegible]
faire une vaine amb[illegible]
bien de porter le der[illegible]
puissance juive.

La plupart [illegible]
déjà été aux [illegible]
leurs preuv[illegible]

Les ar[illegible]
qu'à ce[illegible]
la pol[illegible]
tuat[illegible]

الحملة الانتخابية لـــ : "الإفريقي الصغير في مارس 1897"

اشتراكية الأغبياء :

استغل وجود "الأصوات اليهودية" عبر كامل الجزائر من المعادين للسامية الذين أطلقوا الأمر "اليهود يعرفون كيف يتجمعون فلماذا لا يفعل أعداؤهم مثلهم؟" فتهيكلت حركة العداء للسامية بين السكان الأوروبيين

بشكل سريع وكانت هذه الهيكلة حول أطروحتين كبيرتين الأولى "يمينية" والثانية "يسارية".

فالمعادون للسامية "من اليمين" يؤكدون بشدة تفوق "الجنس اللاتيني" جنس الفرنسيين ورثة الرومان ورواد الاحتلال الذي أعاد الاعتبار للجزائر على "الجنس اليهودي المنحط والمتجول".

أما المعادون للسامية من "اليسار" فهم يقولون عن أنفسهم أنهم "اجتماعيون" بدرجة لا تقل عن كونهم "وطنيون" ولومهم الأساسي لليهود أنهم "طفيليون" و "انتهازيون" يستحوذون على ثروات البلاد متسببين بذلك "في تفقير العرب والعمال الفرنسيين" وهذا الاتجاه الثاني الذي يوافق بكثير تعريف العداء للسامية على أنه "اشتراكية الأغنياء" كان موجودا بمدينة الجزائر ويمثله أساسا "الرابطة الاشتراكية المعادية لليهود" التي أنشأها عام 1884 الداعية ف. غريغوار، وكان عدد قراء جريدته "المتطرف الجزائري" يزداد بانتظام وبلغ تأثيره ذروته عام 1883.

ففي هذه السنة كانت الحكومة الفرنسية تسعى إلى رفع عدد المجندين في صفوف جيشها ولتحقيق هذا الهدف وإيجاد مصادر جديدة لتوظيف الجنود منحت الجنسية الفرنسية للعديد من الأجانب (إيطاليين، إسبان، مالطيين).

وعندما دخل "الفرنسيون الجدد" الساحة السياسية، كان رد فعلهم الأول في أغلب الأحيان اعتبار أنفسهم "فرنسيين أكثر من الفرنسيين" وعلى وجه الخصوص الفرنسيين اليهود.

وبمدينة الجزائر يطالع "الفرنسيون الجدد "بطيبة خاطر صحيفة" المعادي لليهود "(المؤسسة عام 1890) وبرز "الفرنسي الجديد" ذو الأصل الإيطالي - ماكسيميليانو ريجيس ميلانو الذي لقب نفسه ماكس ريجيس - كأحد أكثر المحرضين المعادين للسامية تهيجا.

وخلال سنوات 1890 كانت تحضر مجموعات من المعادين لليهود من حين لآخر لشتم اليهود وإحداث مشاجرات في منطقة حي القديس أوجين أين أقام فرنسيون جدد بكثرة وحيث كانت كثافة السكان اليهود تزداد باستمرار،

فكان تدشين بيعة سطورة عام 1893 في حفل بهيج وفي عام 1896 تم نقل جثمان الحاخامين الكبيرين لمدينة الجزائر المشهورين والمبجلين راشباك وريباك إلى مقبرة القديس أوجين وخلال سنة 1897 أنزل الحزب المعادي لليهود بمدينة الجزائر أعضاءه إلى الشارع وأحدث أولى الإشتباكات الدامية المعادية للسامية التي ستشهدها العاصمة.

فالمكلفون بجلب، انخراطات جديدة للحزب يجوبون المداشر المجاورة لمدينة الجزائر والاستعانة بخدمات بعض العرب "الذين توجهوا إلى المدينة للمشاركة في تحطيم المحلات اليهودية".

وفي سنة 1898 تمركز الحزب المعادي لليهود في كل الأحياء الأوروبية بمدينة الجزائر وكثف دعايته بفضل صحافة متعددة ومتنوعة فجريدة "المتطرف الجزائري" توجه خطابها دائما وعلى وجه الخصوص للعمال والبطالين بكتابات حادة نذكر على سبيل المثال (يوم 29 جانفي 1898): "المستوطن لا يطلب إلا عملا ونفس الأمر بالنسبة للعربي ولكن يجب أن لا تمتص الحية اليهودية عرقهم".

وجريدة "المستوطن المعادي لليهود" جريدة حديثة النشأة تدافع عن القضايا ذات نفس الطرح.

وجريدة "المعادي الجزائري الجديد لليهود" التي حملت مشعل جريدة "المعادي لليهود" الصادرة عام 1890 كانت تدعي أنها وضعت تصورا لتطبيق الحركة المعادية لليهود.

أما في عام 1899 فجاءت نشرية عاودت الصدور لإثراء هذه المجموعة من الصحف المعادية للسامية وهي مجلة "مسيو كوس" التي كانت تتهكم من اليهود بتقليد "لغتهم الفرنسية الركيكة".

وأشبهت ملكة "مسيو كوس" قريحة الكاتب موزيت التي كان يعطيها لبطله الفلكلوري كاغابوس الذي كان يتكلم الفرنسية الشعبية والقديمة لباب الوادي" . وليس من باب الصدفة أن يحمل الكتاب الذي أصدره موزيت عام 1899 عنوان "كاغابوس المعادي لليهود".

وفي ربيع سنة 1899 تحول هوس العداء لليهود إلى جنون عنيف، وبفوز الحزب المعادي لليهود في الانتخابات البلدية أصبح زعيمها ماكس ريجيس سيد المدينة وسمح لإدوارد درومونت، صاحب كتاب "فرنسا اليهودية" والمصنف "كقائد المعادين لليهود في فرنسا" بجعل مدينة الجزائر قاعدة انطلاق لنشاطه المعادي للسامية بفرنسا.

وكان رئيس بلدية مدينة الجزائر كان يوجه نداءات يحرض فيها على "النشاط المباشر المعادي لليهود" وكانت حدتها كبيرة إلى درجة يمكن اعتبار صاحبها المحرّض الأساسي على الأحداث الدامية المعادية لليهود لسنة 1899 التي لاتقل خطورة عن أحداث 1897 و 1898.

وكان السعي بباريس إلى تقزيم حجم هذه المواجهات الثلاث التي شهدتها مختلف المدن الجزائرية، ولكن حصيلة غير رسمية للحكومة العامة بالجزائر أعدها موظفون سامون تتحدث عن مصرع ما يفوق الإثنا عشر شخصا وإصابة 300 إلى 400 بجروح (من بينهم أشخاص في حالة خطيرة) وكان الضحايا تقريبا كلهم يهود وكان من بينهم يهود مدينة الجزائر الأكثر عدداً.

وخلال هذه الفترة السوداء تميز زعماء العداء للسامية من "اليسار" بحدتهم وصرح فيالار أحد الزعماء الاشتراكيين بمدينة الجزائر علانية أن "الإسرائيليين هم مرض الزهري الذي تعاني منه الجزائر"

وترك آخر أسلوب الشتم وانتهج طريقة التفكير السياسي ولكن ليقول في آخر المطاف أن "الإجراءات المعادية لليهود هي وليدة حركة اشتراكية".

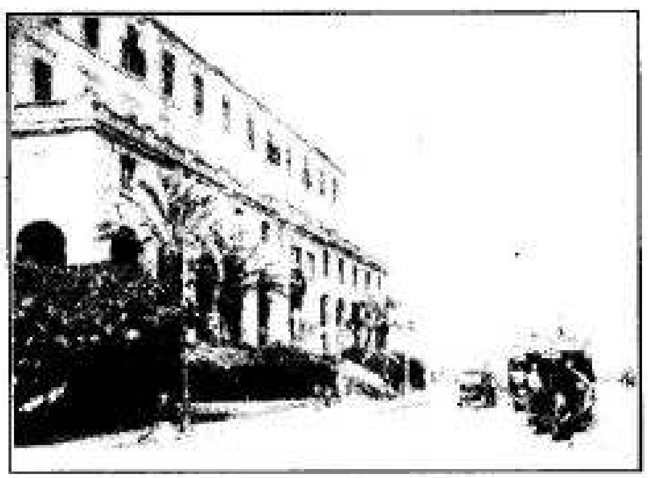
وخلال هذه السنوات المضطربة الثلاث انتقدت كل الشخصيات المسلمة تقريبا بالجزائر هذا الثوران ضد اليهود.

ففي مدينة الجزائر تبرأ أحد وجهاء القوم بن بريمات رئيس كتلة المستشارين البلديين المسلمين للعاصمة عام 1899 تبرأ صريحا مما يدعوه "بالسياسة المتعصبة للسيد رئيس البلدية ماكس ريجيس".

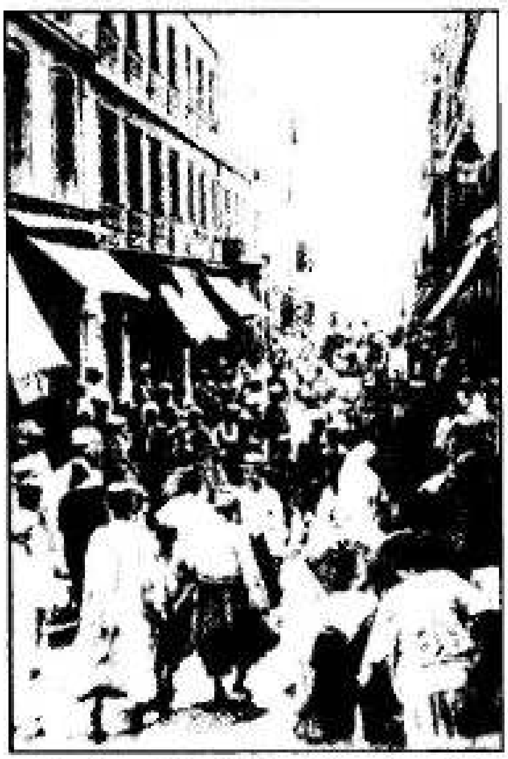
وابتداء من سنة 1900 انخفضت حمى العداء للسامية بالجزائر وعلى وجه الخصوص بمدينة الجزائر، وخلال الانتخابات التشريعية لسنة 1902 تعرض الحزب المعادي لليهود الذي فترت معاداته وخدمت في النهاية حدة نشاطاته العنيفة لإخفاق شامل بما فيها العاصمة واختفت نشرياته التحريضية، أما التي عوضتها - "راية المعاداة لليهود" و "المعادي الجزائري الصغير لليهود" فلم يعد لها صداً كبيراً بين القراء.

خلال سنوات 1900 أعطى التوسع الاقتصادي للعالم المستعمر زيادة معتبرة في الثراء والتأثير السياسي للإقطاعية الزراعية والتجارية الأوروبية اللتان باتتا قوتان مخيفتان.

وتنافست كل من مدينة الجزائر ومدينة وهران فيما بينهما لنيل شرف لقب "أكبر ميناء الجزائر" وأفضل ميناء من حيث النشاط وسيكون لهذه المنافسة كنتيجة حتمية مزاحمات جهوية جديدة ما بين الجالية اليهودية بالعاصمة والجالية اليهودية بوهران.



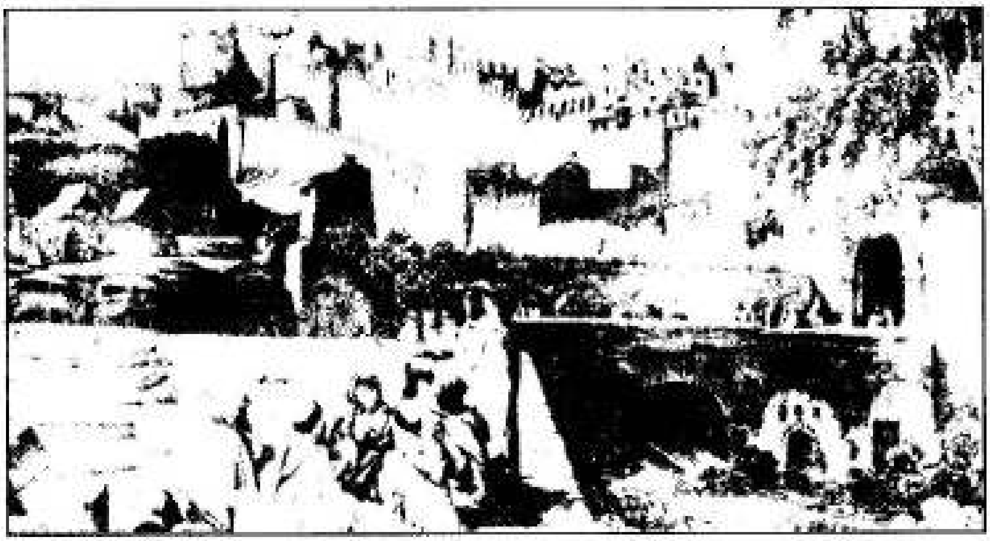
ثانوية بيجـــود (الأمير عبد القادر)
وسلمها الإمبراطوري في بداية القرن



شارع راندون السوق القريبة من البيعة



بميناء مدينة الجزائر عام 1950 يهود من المغرب يغادرون نحو مرسيليا وإسرائيل، اضطر العديد من اليهود المغربيين إلى الهجرة في حالة فقر شديدة إلى إسرائيل عبورا بمدينة الجزائر بعد مظاهرات معادية للسامية وقد استقبلتهم الجالية اليهودية وقدمت لهم يد المساعدة بإيوائهم في مركز مؤقت ببوزريعة.



نحو 1830 الباب باب عزون الذي سيصبح فيما بعد سكوار بروسون

❷. المرسى الكبير والمجامع الدينية:

بعد احتلال اللواء دي بورمونت لمدينة الجزائر في جوان 1830، إنهار النظام التركي في النصف الغربي للجزائر، وعندما قرر آخر بايات وهران الإتفاق مع المنتصرين أرسل إليهم رسولا يهوديا وكلفه بذلك وهو مردوفي عمار (ابن المصرفي هارون عمار) واختار دي بورمونت من جهته كذلك شخصيتين يهوديتين وأرسلهما للتفاوض لكن الرحلة الفرنسية انقطعت بانفجار ثورة 1830 بفرنسا وحمّل السكان المسلمون المخالفون لبايهم -ولكن العاجزون عن المقاومة بالسلاح ضد الفرنسيين اليهود- مسؤولية الاستسلام وقرروا نهب ممتلكاتهم ودخلوا في صراع مع كل الجالية اليهودية قبل الفرار من المدينة.

وحسب عادتهم اجتمع اليهود في بيعهم للدعاء المكثف طوال الليل وفي اليوم الموالي تفاجؤوا بالصمت الذي خيم على المدينة في الخارج وعند خروجهم لاحظوا أن المسلمين قد غادروا وهران بسبب خبر الوصول المرتقب للفرنسيين.

وفي نهاية 1830 ألف الديّان الحاخام مسعود ارمون نشيداً بأبيات عبرية بعنوان "مي كاموخا" للاحتفال بثاني "بوريم" ضمن تقليد الشاعر الكبير ياهوذا حاليفي، وكانت تقرأ هذه القصيدة في جميع بيع وهران.

ونزل الفرنسيون بالمرسى الكبير بتاريخ 29 جويلية 1830 ولكن دخولهم الرسمي إلى المدينة وهران كان في جانفي 1831، فتكيفت الجالية بصفة جيدة مع الوجود الفرنسي وتم الإبقاء على تنظيمها في شكل "أمم" منفصلة وعين مردوخي عمار قائداً للأمة اليهودية بوهران.

وفي عام 1831 ولأول مرة تم إنشاء حرس وطني يهودي مسلح بقيادة أنج عمار، وخلال سنة 1945 تأسس المجمع الديني الجهوي لمدينة وهران وكان على رأسه لازال كاهن الحاخام الفرنسي المعين في المجمع الديني المركزي بفرنسا.

وحتى المؤسسات اليهودية بفرنسا لعبت ورقة الفرنسة بالجزائر، فالحاخامات الفرنسيون كانوا يرغبون "توجيه ومراقبة اليهود الأهالي الذين بات لباسهم ولغتهم ونمط عيشهم يقربهم أكثر من المسلمين منه من اليهود الفرنسيين".

ولكن الجالية اليهودية بوهران كانت تضع ثقتها باستمرار في حاخاماتها من الأهالي خلفاء "الديانيم" القدامى الذين كانوا في بعض الأحيان من المتفوقين ثقافة (عكس الصورة المشوهة التي كان يرسمها الفرنسيون عنهم) أمثال الحاخام كوهين سكالي (المولود بوهران عام 1861، صاحب "الرسبونسا")، أو الحاخام موشي سبعون الذي جمع بوهران مجموعة تقارب بـ 5000 مؤلف عبري، ورفضت الجالية اليهودية بوهران لفترة طويلة "احتلال اليهودية الفرنسية لليهودية المحلية"، وتجلت هذه المقاومة لعدة مرات وأبعد

اليهود الوهرانيون من مجامعهم الدينية الممثلين الفرنسيين فكان أول رئيس محلي وهو مناحيم ناهون من أصل تطواني يرأس المجمع إلى جانب وجيهين محليين عمرام سانانس وإبراهيم القانوعي، إلا أنه عام 1867 عندما ألحق المجمع الديني لمدينة وهران مباشرة بالمجمع الديني المركزي بفرنسا بدل أن يوضع تحت وصاية المجمع الديني لمدينة الجزائر، استقبل هذا الإجراء بحفاوة، فإخضاع الوهرانيين لمدينة الجزائر كان يخدش بعمق كرامتهم وكبرياءهم، وبرز الصراع من أجل فرنسا أو ضدها على المستوى الانتخابي وأوجد منافسة شديدة بين العائلات الكبيرة التي تشكل مراكز قوة حقيقية (ç .o. f) كالصراعات بين سيمون القانوعي وحاييم بن يشو من موقعه كمستشار عام، فهذا الأخير الذي يعد من أنصار سياسة الفرنسة انضم بحكم هذا الميل إلى الحاخام الفرنسي الأكبر ماير شارل فيل وبقي سيمون القانوعي على رأس المجمع الديني لمدة نصف قرن من سنة 1870 إلى غاية عام 1915.

هذا المصرفي المنحدر من أحد قادة الأمة اليهودية كانت له سلطة معتبرة على رافضي الفرنسية وعليه عارض كل من الحاخامين الكبيرين القادمين من فرنسا، مايو شارل فيل وموسى نتير اللّذين بدا أنهما يهددان تأثيره القوي على الأنصار.

وما إن أكد معارضو الفرنسة سلطته عليهم عرف سيمون القانوعي كسياسي محنك كيف يساعدهم على "اقتلاع عمائمهم" وإمالتهم معه إلى جهة الفرنسة.

لقد أثار حكم هذه الشخصية المعقدة للجالية اليهودية بمدينة وهران الكثير من السخط والجدال بين اليهود الشباب، ففي أواخر سنوات 1870 حاول شارل مديوني مؤسس شركة "الشباب" معارضة "إمبراطورية القانوعي".

ولم يهضم الرأي العام الفرنسي الجمهوري التبجحات الانتخابية للقانوعي الذي صرح أنه: "لن يتخطى عتبة باب البلدية إلا من أودعته المفاتيح بنفسي"، واعتبر بعض المؤلفين أن تصرفه العارض هذا قد شجع نشوب الأزمة الكبرى للعداء للسامية لسنة 1895 التي اثبت خلالها سيمون القانوعي مرة أخرى صفة المقاوم الدائم فيه.

وخلال الحركة العامة لفرنسة الجالية اليهودية منح بعض الوجهاء الجنسية الفرنسية بموجب قرار مشيخي وهكذا كان الحال مع مسعود خروبي رئيس المجمع الديني خلال سنة 1860، لكن حملة صحفية يدعمها الجمهوريون طالبت بالتجنيس الجماعي ليهود مدينة وهران والجزائر جمعاء.

كما رحبوا بحفاوة بمرسوم كريميو الذي ألحق به مرسوم لامبريشت بعض المراجعات والذي نص على أنه: يصبح مواطنا فرنسيا، اليهود المولودون بالجزائر من والدين كانوا هم أنفسهم مقيمين بالبلد خلال الاحتلال الفرنسي ولكن الكثير من يهود وهران وعلى وجه الخصوص الموجة الكبيرة من يهود تيطوان القادمين إلى الجزائر عام 1860 لم يكونوا معنيين بالأمر.

وفي عام 1876 سجلت الجالية اعترافها الكامل بالجميل لأدولف كريميو بتصويتها على حزبه، الحزب الجمهوري.

فلا أزمة العداء للسامية لسنة 1825 ولا الحرب الكبرى زعزعتا تمسكه بهذه الحملة التي حولت مجرد رعايا فرنسيين إلى مواطنين يتمتعون بكامل حقوقهم.



ماريا القبي، المولودة بتلمسان (المنطقة الوهرانية)

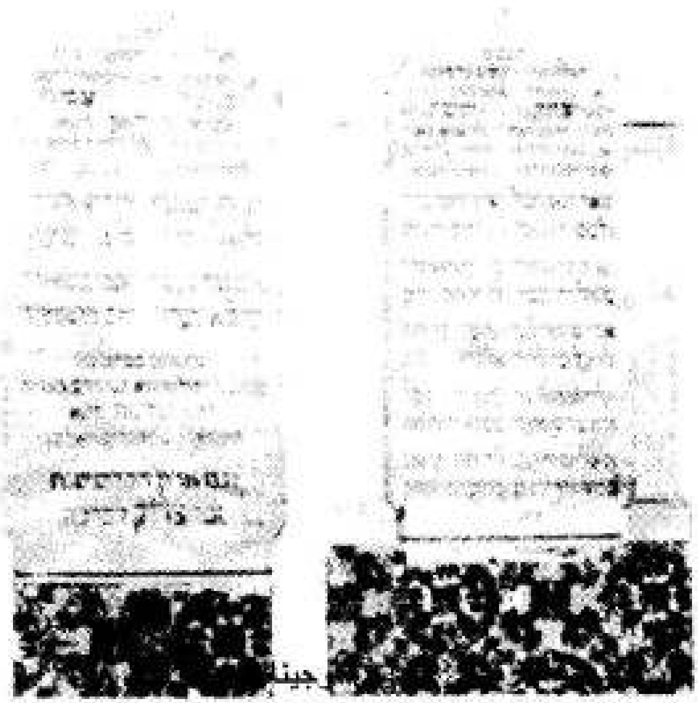


كاميل سابح المولودة عبدية بوهران



شابة يهودية بتقورت

في بداية القرن



التذكاريتان لراشباك وربباك.

❸. بالأغواط : يولد المرء يهوديا ويموت يهوديا

كانت مدينة الأغواط مدينة يهودية في ذاكرة البعض من سكانها على وجه الخصوص والإحصائيات كفيلة بإثبات العكس.

فمدينة الأغواط بالنسبة لهؤلاء اليهود هي مكان تكون فيه الولادة ويتم به الأكل والصلاة ثم الزواج وأخيرا حلول الأجل والموت يهوديا وكأن هذه البقعة محمية بحلقة سحرية، حتى وإن كان اليهود قبل الاحتلال لا يمكن تمييزهم عن العرب أو فيما بعد لما انطبع اليهود أكثر فأكثر بالطابع الفرنسي أو بالأحرى "الأوروبي" كما كان يحلو القول للبعض آنذاك.

ولم تصبح مدينة الأغواط فرنسية إلا أنها هبت لإنقاذ يهودية اختطفها ملازم أول في الجيش الفرنسي لم يكن يمارس آنذاك إلا مراقبة جبانة على المنطقة وكانت الأغواط تلك المدينة التي شهدت محاربة اليهود والعرب جنبا إلى جنب للجيش الفرنسي.

ويقال إن بعض اليهود في تلك الفترة (1853) كانوا يموتون محاربين وآخرون كانوا يرشون الرصاص بالبول من أجل تسميمهم.

والأغواط هي أيضا تلك المدينة الصحراوية التي احتفظت بذاكرة مدينة صحراوية أخرى عاش اليهود بها سعداء أقوياء في مملكة يهودية حقيقية، ففي مدينة الأغواط كان البعض يقول: "العام المقبل بتامنطيط" عوض أورشليم ولكن الأغواط هي أيضا تلك المدينة التي بقيت وفية لأورشليم في صلواتها ومواقفها كذلك فعندما كان يتوقف المرسولون (كولاليم) القادمين من الأراضي المقدسة وبالأغواط تجمع هبات متواضعة تتمثل في قطع نقدية بقيمة فلس وتقدم لهم، بالأغواط كذلك خلال سنة 1880 تقريبا خرج ابن وأمه من المدينة للقيام بالسفر الطويل على متن عربة إلى غاية مدينة الجزائر فتزودا "بالروينة" و"الكابوش" عبارة عن كريات من التمر والقمح والخلع (لحم مجفف) كطعام لسفرهم، ومن مدينة الجزائر ركبا سفينة باتجاه فلسطين قصد الحج.

والأغواط هي تلك المدينة أين كانت تتعايش أربع جاليات، الجاليات المسلمة الحضرية والبدوية بقيادة زعماء ذوي نفوذ وقوة والجالية الأوروبية التي غالبا ما كانت تحتقر اليهود ولكنها قدمت أفضل ما هو موجود في الحضارة الغربية بفضل الآباء والأخوات البيض، وبين هذه الجاليات القوية والمهيكلة كانت تعيش جالية صغيرة ضعيفة بائسة هي الجالية اليهودية التي سرعان ما أصبحت الوسيط الضروري بين العالم المسيحي والعالم العربي.

الأغواط هي المدينة التي كان يديرها لمدة ثمان وأربعين سنة مساعد إداري يهودي مدني هو يعقوب لا لو وكان مجلسها البلدي يضم يهوداً آخرين ذوي تأثير، لأن العرب بمدينة الأغواط كانوا ينتخبون بكثافة لصالح اليهود ويدافعون عنهم إذا اقتضى الأمر وهكذا كان الأمر عندما أعلن قائد عسكري لقائد طريقة الأربعائيين بشيء من الإبتهاج أنه بفضل التعليمات التي أعطاها فيشي سيتم إبعاد جميع اليهود عن السلطة، فأجابه هذا الأخير بكل برودة قائلا: "إذا لمستم شعرة لا أقول من رأس يعقوب لا لو ولكن من رأس أغو لغرار (وهو أقرع) فعليكم المرور على جسدي أو جسد كل مريدي طريقة الأربعائيين قبل ذلك"، وبالتزامه الدفاع من مبيض الصفيح والفقير الأشعث، الأسود

المصاب بداء التراخوما يكون قائد طريقة الأربعائيين قد بين بكل وضوح وجهة تعاطفه والتزامه.

والأغواط هي تلك المنازل الواسعة التي تضم تحت سقف واحد رب العائلة وأبنائه وأحفاده، فكان لكل واحد دوره وكل واحد يعرف مكانه، فالفتيات الشابات كنّ يتمتعن بوضع خاص، ففي صغرهن يساعدن أمهاتهن ويلعبن مع إخوانهن وأبناء عمومتهن ولكن بمجرد أن يصرن "شابات" يصبحن محل اهتمام الجميع، فكان عليهن اجتناب التجوال طويلا بعيداً عن المنزل واجتناب مخاطبة شاب في الشارع.

فكل شاب مبتهج يخاطب "شابة" يهودية بقوله "إذاً سأراك هذا المساء عند والديك" يتلقى توبيخاً شديد اللهجة من التاجر العربي بقوله: "ألا تعلم أنه عليك اجتناب مخاطبتها" فهذه الفتيات المحفوظات بغيرة شديدة أو المدللات سراً في أغلب الأحيان من والدهن وإخوانهن كن يلمعن ويحلمن ويأملن، ولكن سحرهن كان يختفي بسرعة بعد الزواج ولا تستردن أهميتهن إلا وهن عجائز، أما "الشباب" فلم يكن لديهم في حقيقة الأمر مكانة مميزة في هذا الجو العائلي.

فالخدمة العسكرية تدفع بهم خارج الأغواط ولكنهم يعودون إليها في أغلب الأحوال ويتزوجون بها ويحاولون اقتلاع شيء من الاستقلالية من رب العائلة، فهم محترمون ومطاعون وتخدمهم زوجاتهم، وكانوا على أمل أن يصبحوا أرباب عائلات الجيل الموالي.

فالحكم كان لأرباب العائلة الذين يختارون زوجات وأزواج أبنائهم وفي بعض الأحيان حتى أحفادهم، وكان كل من الأبناء والأصهار والكنّات والأحفاد يقبلون أيديهم احتراما لهم.

فمدينة الأغواط كانت عبارة عن بعض العائلات اليهودية الغنية والمحترمة وعائلات أخرى متواضعة وأخيراً عائلات يهود أهالي تعيش فقراً مدقعا، وبطبيعة الحال كان يساعد الأغنياء الفقراء المعوزين، ففي ليلة كل

"شاباط" تصل قفف مليئة بالخضر والفواكه واللحم إلى هذه البيوت، وخلال المواسم كان لدى الجميع ما يسمح له بالاحتفال بها بكرامة.

والأغواط هي تلك المدينة أين كان يسعى الشباب العربي "بروش هوشانا" اصطياد بالساقية أكبر عدد ممكن من السمك للموائد اليهودية أو في "كيبور" حيث كان اليهود يرسلون لجيرانهم المسلمين دجلجا بالكمون والسفرجلة أو في ذكر "سقوط" حيث كان يقطع الرؤساء العرب أحسن سعف النخيل "للسوقة" أو في "بيساح" حيث كان يتقاسم جميع اليهود "ماتسا شمورا" المصنوعة من القمح المزروع خصيصا لذلك والذي تم جني محصوله وطعنه وعجنه حسب القواعد الفنية وكان بطبيعة الحال للأصدقاء والجيران العرب نصيب من "كاستيلان" (الفطير). وكانت الأغواط في بعض



الانضمام إلى فرنسا الجمهورية: العريف الدركي مسعود تويتو بخنشلة خلال سنوات 1940



عائلة شيشبورتيش، من بوسعادة أقامت بالدائرة XVIII بباريس، بتاريخ 31 جويلية 1943 أبعدت كل العائلة من درانسي إلى معتقل أو شفيتز، ولم يعد منه أحد.



وصول عربة مدينة الجزائر، على اليمين منزل يعرف باسم
صلات عشوش والبناية الثانية بيعة الأغواط

الأحيان مدينة لمعاناة اليهود من روح العداء للسامية الأوروبي أو الحسد أو كراهية العرب أو اليهود الآخرين لكن الأغواط مازالت إلى هذا اليوم مدينة عالقة بها ذكريات اليهود. فالقدماء الذين تجاوزوا اليوم الثمانين من العمر لم يستوعبوا الرحيل المكثف لليهود والكثير منهم يتأسف لذلك.

وأسرّ أحد الأغواطيين القدماء عند زيارة أحد اليهود للمدينة مؤخرا بقوله: "لم يعد للحياة طعمها السابق، بدون وجود اليهود" والكثير من يهود الأغواط الذين "عادوا" إلى وطنهم فرنسا كما يحلو للبعض أن يغالط يفتقدون كل الافتقاد حياة كانت فيها اليهودية أمراً عاديا وطبيعيا وحتى ضروريا خاصة إذا كان التعبير عنها باللغة العربية، لغة القلب والرقة والغضب والضحك ولغة الصلاة أيضا في بعض الأحيان.

في ظل الحركة الوطنية

❶. 1914 الحرب

❷. المؤتمر اليهودي العالمي

❸. 1942 الإنزال

❹. من فلسطين (1948) إلى نوفمبر 1954

❺. قانون العدد



يهودي بلباس زواوي خلال حرب 1914 - 1918

1914 الحرب

على الرغم من إبعادهم منذ مدة عن المجال العسكري كان يهود الجزائر يستجيبون بكثرة لنداء حمل السلاح الذي تردد في شهر أوت عام 1914 عندما اندلعت الحرب العالمية.

وبعد الحرب العالمية الأولى لم يفت القائمين بشؤون الجالية اليهودية بمدينة الجزائر التصريح علانية أنه من بين الإسرائيليين المجندين في الجيش الفرنسي فإن المحاربين اليهود الجزائريين الذين غالبا ما كان تجنيدهم عن تطوع تميزوا بكثرة عددهم وأوسمتهم وشهاداتهم العديدة التي تحصلوا عليها أثناء المعارك.

وما بين سنوات 1920 و 1930 عرفت حركة الترقية الثقافية والاجتماعية لمختلف المناطق بما فيها منطقة مدينة الجزائر التي مست يهوداً اعتبروا أنفسهم مندمجين كلية ويهوداً أقل منهم اندماجا تقدموا تقدما سريعا ومذهلا.

ويؤكد ذلك الحصيلة الفعلية التي أعدها قادة الجالية اليهودية لمدينة الجزائر خلال إحياء الذكرى المائة لاحتلال فرنسا للجزائر في جويلية 1930 التي احتفل بها في العاصمة في حفل بهيج.

ولكن قدماء الأشرار المتزعمين لروح العداء للسامية "الأوربية" والعداء لليهودية لم يتم القضاء عليهم بعد.

في عام 1935 شهدت مدينة الجزائر نمو تأثير الوطنيين بما فيه مناضلي نجم شمال إفريقيا (التي خلفها في السنة الموالية حزب الشعب الجزائري).

فطالب أنصار هذه الحركات بعدم الإشارة إلى مسلمي الجزائر بتسمية "عرب" بل "جزائريين" وكان أغلب يهود مدينة الجزائر ينتمون إلى اليسار واعتبروا "إدماج عدد معين من العرب المتقدمين نتيجة طبيعية سعيدة لإدماج اليهود" .

وخلال سنة 1936 دافعت شخصيات يهودية مشهورة عن هذا التوجه في رسالة وجهتها لجريدة "ديبش ألجيريان" اليومية المحلية وطلبوا باسم مبدأ المساواة الجمهوري "الترقية الاجتماعية والسياسية للمسلمين" وخطت هذه الأفكار خطواتها، وفي عام 1937 ساند الكثير من يهود مدينة الجزائر (وكثير منهم انخرطوا في النقابات ومختلف التشكيلات السياسية اليسارية وحتى الحركة الماسونية) "مشروع بلوم فيوليت" أي مبادرة حكومة الجبهة الشعبية التي اقترحت منح حق المواطنة الفرنسية لـ 20000 مسلم متقدم بالجزائر.

وفقد وجهاء المسلمين من اليسار الكثير من مصداقيتهم جراء انفجار التحالف الحكومي للجبهة الشعبية عام 1938 وحسب "مشروع بلوم فيوليت" نتيجة للضغوط التي مارسها كل من النواب المحافظين بفرنسا وكتلة الأوربيين المحافظين المتطرفين بالجزائر.

فشغل الساحة التي فقدها "الإندماجيون" في الوسط العربي الإسلامي التيار "الإسلامي" (بقيادة العلماء) والتيار الوطني الشعبي بقيادة حزب الشعب الجزائري وريث "نجم شمال إفريقيا" اللذان طالبا بالسيادة على المدى القريب أو البعيد لجزائر عربية إسلامية في الأساس ولم تفز الحركة المطلبية الجديدة باهتمام المثقفين والمسؤولين السياسيين اليهود إلا في مدينة الجزائر (وكذلك بوهران وتلمسان) حيث أخذت بعين الاعتبار أهمية هذا التطور في الأحداث، وهذا الأخير يعني في حقيقة الأمر أن جزائر مسلمة أساسا قد تطالب سواء على مدى القريب أو البعيد بسيادتها الوطنية.

النقض البيولوجي :

كانت مدينة الجزائر مسرح هذا التمييز الذي ألحق ضررا كبيرا بالجالية اليهودية التي كان أعضاؤها يؤدون بها دورا فعالا في الإدارة والإنتلجنسيا وأثار

أيضا أولى مظاهرة مقاومة محتشمة وحذرة بإنشاء لصالح الضحايا "جمعية دراسات ومساعدة وإغاثة" برئاسة الأستاذ أندري ليفي - خالنسي، ونائب الرئيس مارسيل بلعيش والأمين العام إيلي غزلان والأمين المساعد الأستاذ أندري ناربوني.

وبتوجيه نداء لتضامن جميع اليهود وخاصة الأغنياء منهم ابتداء من جانفي 1941 تمكن هذا التنظيم من تسيير صندوق إعانة يسدد علاوات شهرية للموظفين اليهود من مدينة الجزائر الذين فقدوا مناصب عملهم.

ثم بذلت جمعية الإعانة جهدا معتبرا بمدينة الجزائر للحد من الآثار الهدامة لقوانين فيشي الجديدة التي تحرم الأغلبية العظمى من الطلبة والتلاميذ اليهود من حق التعليم العمومي.

فقد صدر قانون بتاريخ 21 جوان 1941 يحدد بـ 3٪ عدد اليهود المسموح لهم بالتسجيل في مؤسسات التعليم العالي، وحرم عدد كبير من بين 110 طالب يهودي الذين سجلوا أنفسهم خلال الدخول المدرسي في أكتوبر من كل إمكانية مواصلة الدراسة التي شرعوا فيها.

وللخروج من هذه المعضلة نظمت جمعية الإعانة في مقرات مدرسة تابعة للجالية اليهودية بباب الوادي "لقاءات خاصة" حيث تمكن الطلبة المطرودون من متابعة دروس يقدمها أساتذة متطوعون لها علاقة بأهم اختصاصات التعليم العالي.

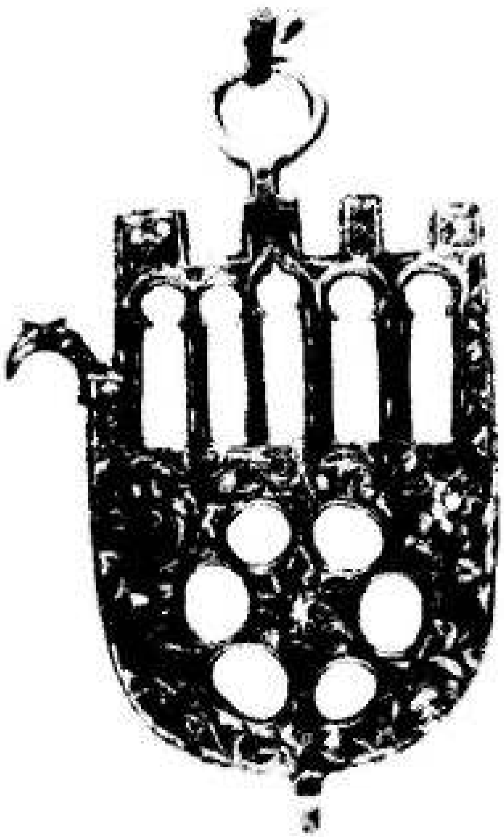
وانتقدت الجمعية العامة لطلبة مدينة الجزائر المتشددة في عدائها للسامية على غرار رئيسها ف. جيلو بشدة محاضرات باب الوادي التي كان يمولها ليفي فالنسي، وكان طلبة كلية الطب هم أكثر الطلبة التزاما بهذه الحركة وأشدهم عداء لليهود.

وفي هذه القلعة التقليدية للعداء للسامية ذهب بعض أساتذة الطب إلى حد التبرير العلمي للنظريات النازية عن "النقص البيولوجي للجنس اليهودي".

وتحقق مفعول الضغوط الممارسة بمدينة الجزائر وبفيشي التي كانت تطالب الإدارة بوضع حد نهائي "للممارسات اليهودية المنافسة للجامعة" وصدر قانون بتاريخ 31 ديسمبر 1941 يمنع "كل تعليم يهودي عال مقدم على وجه خصوصي".



شابة يهودية من مدينة الجزائر



خامسة يهودية بربرية بالجنوب الجزائري
خلال القرن XIX كان يستعمل هذا الكف من
معدن الصفر لتعليق المصابيح بالبيعة



زوجان يهوديان من مدينة الجزائر



امرأة يهودية عند منبع الماء

ومع أنها معاقبة بهذه الصفة من السلطات وكونها تحت مراقبة الشرطة من جهة أخرى فهذا لم يمنع جمعية الإعانة من مواصلة معركتها بنفس الحدة في مواجهة نصاب إجباري آخر فرض على اليهود في التعليم الابتدائي والثانوي.

وفي 5 جانفي، يوم الالتحاق بأقسام الدراسة بعد عطلة عيد المسيح تم التكفل بتمدرس 2500 تلميذ يهودي بمدينة الجزائر طردوا من المدارس العمومية وأشرف على تعليمهم أساتذة يهود سرحوا من أربعة مدارس واستغلت لهذا الغرض محلات وضعها تحت تصرفهم المجمع الديني ثم انضم اللواء جيرود القادم إلى مدينة الجزائر يوم 19 نوفمبر و "القادة الخمسة الكبار" الذين نظموا ترتيبات الإنزال الأمريكي إلى صف الفريق رلان، هذا الأخير الذي شعر بازدياد صلابة صفه بهذه المساندة أوضح من خلال أمر أصدره بتاريخ 16 ديسمبر أنه يحكم "باسم مشير فرنسا، رئيس الدولة" فعاد حكم بيتان من جديد إلى الجزائر.

وخلال ربيع 1943 تلقى المدافعون عن القضية اليهودية بالجزائر دعما هاما ومتنوعا بمدينة الجزائر، وعلى الرغم من أن المنظمات التي يناضلون في صفوفها لم يكن لها وجود قانوني بعد فكان عليهم الحفاظ على نوع من السرية في العمل إلا أن مسؤولين سامين من غير اليهود من الحزب الاشتراكي المتطرف من S.Fio ومن الحزب الشيوعي أعلنوا صراحة مساندتهم للجالية اليهودية بمدينة الجزائر في نزاعها مع جيرود.

ومن جهة أخرى بلغ كل من فرحات عباس وم. ساطور زعيما حزب أسس لتطبيق سياسة حددها "البيان الجزائري" الصادر عنهم، وجهاء الجالية اليهودية أنهم في كل مرة يستقبلهم فيها إيف شاتل ومارسيل بيروتون يبلغان هذين الحاكمين أنهم وإخوانهم المسلمين يرفضون إلغاء مرسوم كريميو وبصفة أعم يرفضون طريقة معاملة السلطات للجزائر.

وعلى المستوى الدولي أيضا كان الوضع يسير في الإتجاه الحسن، فقد طلب نائب كاتب الدولة الأمريكي سومر ويليس من ديغول العرض الواضح لمسألة إنهاء المظالم المرتكبة بالجزائر في المفاوضات السرية التي أجراها مع جيرود لتقسيم السلطة بين اللواءين بمدينة الجزائر.

واحتدم النقاش بين جيرود وديغول ولكن الكلمة الأخيرة عادت لديغول الذي حسم الأمر لصالحه.

فمنذ شهر جوان غادرت اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني بقيادته مدينة لندن وجاءت للإقامة بمدينة الجزائر، إلا أنه كان على الجالية اليهودية بالجزائر الصبر لعدة أسابيع حتى تتخذ اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني يوم 20 أكتوبر 1943 القرار المنتظر والمتمثل في إعادة سريان مفعول مرسوم كريميو.

ولاستئناف الكفاح ضد ألمانيا تجند اليهود بأعداد كبيرة في صفوف جيش ليكليرك الوطني لديغول وكذلك في جيش إفريقيا الذي استقبلهم بدون

تحفظ على الرغم من كونه لا يزال مطبوعا بالصبغة "الجيرودية" بل حتى ميله إلى بيتان.

ومن بين المحاربين اليهود كان يهود مدينة الجزائر أكثر اليهود توفيرا لضباط الصف والضباط للوحدات المجندة أولا بإيطاليا ثم المجندة بفرنسا.

❷. المؤتمر اليهودي العالمي

منذ 1845 تاريخ إنشاء المجمع الديني وتنظيم الجالية اليهودية بالجزائر عبارة عن صورة مطابقة لتنظيم اليهودية الفرنسية سواء تعلق الأمر بالمجمع الديني أو التنظيم الثقافي أو الجمعيات الخيرية وبصفة عامة جميع النشاطات التي أخذتها الجالية على عاتقها.

فوجود حاخام أكبر ومجمع ديني مركزي للإسرائيليين بفرنسا والجزائر أعطى الدليل إلى أي حد اندمجت الجماعة اليهودية بالجزائر في فرنسا وهذا منذ أكثر من قرن من الزمن.

وبمناسبة الجمعية العامة الرابعة لفدرالية الجاليات الإسرائيلية بالجزائر في جوان 1950 صرح أمينها العام قائلا: "نحن نسعى إلى الحفاظ على يهودية فردية في كلتا جهتي البحر الأبيض المتوسط وطبع كل تاريخ اليهودية الجزائرية بنضالها من أجل الإبقاء على مرسوم كريميو الذي قررت بموجبه الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية يوم 24 أكتوبر 1870 جعل من 35000 يهودي من مقاطعات الجزائر مواطنين فرنسيين.

وعلى الرغم من العدد المرتفع نسبيا لمعتنقيها، فإن اليهودية الجزائرية لم تكن تتوفر إلا على هياكل إدارية محدودة فالجاليات والمنظمات كان يسيرها أساسا متطوعون وكانت O.R.T التي حولت مقرها إلى الجزائر في 1946 لمدة طويلة الجمعية الوحيدة التي يسيرها أشخاص دائمون وكانت اليهودية الجزائرية تعد حوالي سبعين جمعية ثقافية تتوفر كل واحدة منها على بيعة

واحدة على الأقل ومقبرة وأقسام ابتدائية للتعليم الديني، أقسام التلمود والتوراة (على شاكلة الأقسام الموجودة بفرنسا التي يقل عدد المترددين عليها) ونشاطات للإعانة المحلية.

بينما تتوفر الجاليات الكبيرة والمتوسطة على شبكة واسعة من البيع والمنابر تستجيب لاحتياجات جماعة بقيت في أغلبيتها متمسكة بالتقاليد وحتى بالممارسات الدينية (هناك عشرات البيع تقريبا بوهران زيادة على البيعة الكبيرة والأولى في شمال إفريقيا قاطبة وعشرات البيع بقسنطينة منها ثلاث تتسع كل واحدة منها لـ 1000 من المصلين).

وستسجل سنة 1947 تحولا هاما بإنشاء فيدرالية عند اختتام أشغال جمعية عامة طارئة استدعيت بمدينة الجزائر وهكذا تزود مندوبون من المجمع الديني والثقافي لفدرالية الجاليات اليهودية بالجزائر بهيئة مشتركة للتمثيل والدفاع عن مصالحهم، وكانت أول الإجراءات التي اتخذتها الفيدرالية دليلا على اهتمامات مسؤوليها.

وبتقرير فتح مدرسة حاخامات بالجزائر - والتي ستستقبل بعد أشهر قليلة من فتحها في فيلا بأعالي مدينة الجزائر حوالي خمسة عشر تلميذاً كان السعي إلى إزالة الضعف في عدد رجال الدين المؤهلين وعدد المربين وتكلفت مؤسسات حاييم بهذه المهمة.

وبالموازاة تم استحداث مجلس أعلى للحاخامات على مستوى الفيدرالية يرأسه الحاخام الأكبر للجزائر وتم هذا الأمر بتفويض من الحاخام الأكبر بفرنسا، وتمثلت مهمة هذا المجلس في الحرص على توحيد التعليم الديني للتلمود والتوراة وإعداد قانون أساسي خاص بالسلك الديني وكلف أيضا بمراقبة قرارات المحاكم الدينية.

والجديد الآخر هو تمكن واحد وعشرين مندوبا من الجزائر (سبعة لكل مقاطعة) من المشاركة في المجمع الديني المركزي.

وبانضمامهم إلى المؤتمر اليهودي العالمي سعى مسيروا الفيدرالية إلى فك العزلة عن اليهودية الجزائرية ودفعها للاحتكاك بالتيارات الكبرى لليهودية العالمية وأخذ حصتها من المسؤولية الملقاة على عاتق اليهودية جمعاء في المجال السياسي.

وباستثناء طبقة متوسطة كثيرة العدد نوعا ما فإن جوهر السكان اليهود الجزائريين يشكله تجار بسطاء وحرفيون صغار وموظفون من الدرجة الثانية ذوي الدخل الضعيف.

وعلى الرغم من أنه لم يبلغ الحدة التي يعرفها بالمغرب وتونس إلا أن البؤس اليهودي بالجزائر لم يكن خرافة، فالتقرير الواصف لهذه الوضعية والمقدم خلال جلسات اليهودية الجزائرية المنعقدة (لأول .. وآخر مرة) بمدينة الجزائر في شهر مارس 1958 أظهر أنه من بين 130.000 يهودي جزائري هناك أكثر من 20.000 يتلقون الإعانة وحتى بمدينة الجزائر نفسها التي تعتبر موقعا يمكن لليهود الاستفادة به من وضعية مادية جد مريحة فإن 20٪ من العائلات كانت تستفيد من الأعمال الخيرية وتزيد هذه النسبة بكثرة بمدينة قسنطينة.

وعلى الرغم من هذه الوضعية فإن اليهودية الجزائرية لم تكن تتوفر لا على مصلحة إعانة اجتماعية ولا طبية اجتماعية منظمة ولا على دار عجزة ولا دور للأطفال ولا على مطاعم- مقاهي للجالية.

وبعد قدومها للإقامة بمدينة الجزائر خلال سنوات 47 - 48 حينما كانت المدينة منطقة عبور لسيول المهاجرين المغربيين باتجاه فلسطين فإن جمعية خ .إ .أ. (خدمات الإعانة للأطفال) توقفت عن النشاط بعد مدة قصيرة من إقامتها، وكان من المقرر إنشاء لجنة من جديد لتنظر في هذه الأوضاع.

فكان النشاط الاجتماعي أساسا من اختصاص خدمات المساعدة المحلية المختلفة ونذكر على سبيل المثال لا الحصر الخدمات الموجودة بمدينة الجزائر

كالأعمال الخيرية و "موهار حابيتولوت" (إعانة الفتيات الشابات الفقيرات) خدمات السيدات الزائرات وتعليم الفتيات الشابات وبيكور حوليم (زيارة المرضى)، وإلياهو حانابي (المساعدة على تنظيم الختان في العائلات المحتاجة) والفرن الاقتصادي وقامت أول مؤسسة خارجية جاءت للإقامة بالجزائر وهي O.R.T بإنشاء أول مركز للتكوين بمدينة الجزائر عام 1947 مجهز بأحدث الآلات العصرية ووسع شبكته بسرعة إلى غاية قسنطينة ثم وهران على الرغم من التحفظ الذي أبداه بعض قادة الجالية لتفتير عزيمة هذه المؤسسة بحجة أن فتح مدرسة مهنية يهودية (خلال فترة كانت المؤسسات من هذا النوع تعد على الأصابع بالجزائر) سيقود إلى التمييز.

وكما كان الحال بفرنسا الحضرية فإن ثلة من السكان اليهود فقط كانت تساهم في مصاريف الجالية على الرغم من أنها بصفة عامة لم تكن ميسورة الحال.

وفي كل مرة كانت تقترح فكرة إنشاء صندوق اجتماعي يهودي موحد على غرار الصندوق الموجود بفرنسا ونوقشت مطولا خلال جلسات اليهودية الجزائرية بحضور مدير الصندوق الاجتماعي لليهودية العالمية الذي دعا لهذا الغرض ولكن هذا المشروع لم ير النور.

"ومن المؤكد أن منذ نهاية حرب 1914 - 1918 تسارع تراجع الثقافة والوعي اليهوديين، فالارتفاع المتزايد في نسبة الزواج المختلط، والجهل الذي يكاد أن يكون كليا لغالبية يهود هذا البلد لقيم إيمانهم وتاريخهم، وجهلهم لأبسط عناصر العبرية لفهم النصوص الدينية والشعائرية كلها كانت عوامل للاضمحلال المتزايد يوما بعد يوم وبشكل مخيف ليهوديتنا".

فحدث انكسار حقيقي بالجزائر مماثل لانكسار فرنسا الحضرية خلخل أذهان الكثير من اليهود الذين توصلوا إلى مزاولة دراسات عليا دنيوية ووجدوا أنفسهم أمام يهودية أبقي عليها في وضع قارّ يبعث على التشاؤم

واليأس هذه الإعتبارات مستخلصة من تقرير عن المشكلات الثقافية والتربوية قدم في شهر مارس 1958 أمام جلسات اليهودية الجزائرية، وتمثلت النشاطات الثقافية لمدة طويلة على وجه الخصوص في تنظيم الحلقات الدراسية ودروس في العبرية كان الإقبال عليها متواضعا.

ولم يكن هناك بالجزائر مدارس يهودية، لا ابتدائية ولا ثانوية (باستثناء فترة فيشي، حيث اضطرت اليهودية الجزائرية على وجه الاستعجال لإقامة مؤسسات تعليمية لاستقبال الأطفال اليهود المطرودين من المدارس) وخلافا للمغرب وتونس فإن التحالف الإسرائيلي العالمي لم يشرف على أية مدرسة بالجزائر وحتى ثانوية المأمونية المفتوحة في ظل حكم فيشي بشارع، اميليت موباس بمدينة الجزائر لم تعمر سوى سنوات قليلة بعد العودة إلى الوضعية العادية وغلقت أبوابها عام 1947.

كما تمثلت أولى قرارات فيدرالية الجاليات في تشجيع إنشاء مؤسسة ثانوية يهودية مع إقامة داخلية إلى جانب المدرسة الدينية وستتخذ مقرا لها بالبناية العصرية المشيدة لاستقبال مدرسة المأمونية واستقبلت أولى دفعاتها من التلاميذ في نصف إقامة داخلية يوم 02 نوفمبر 1959.

وستشهد عدة نشاطات تطورا سريعا بفضل إنشاء لجنة ثقافية يهودية جزائرية في أواخر عام 1952 بمبادرة من مكتب شمال إفريقيا للمؤتمر اليهودي العالمي مكلفة بتنسيق نشاطات المؤتمر اليهودي العالمي ولجنة اليهود الجزائريين للدراسات الاجتماعية وفيدرالية الجاليات وفرع الجزائر لاتحاد الطلبة اليهود بفرنسا وبدعم من اللجنة بدأ النشاط يدب في مراكز ثقافية يهودية في العديد من الجاليات، فكل مركز يتوفر على مكتبة لإعارة كتب عن اليهودية ومساحة للأسطوانات، ونظمت سلسلة من الدراسات والمحاضرات (فقد استقدمت اللجنة محاضرين من فرنسا كانت محاضراتهم تستقطب حضورا مكثفا من

مختلف الاعتقادات الدينية أينما حلوا) ونظمت أيضا معارض متنقلة تعرض مؤلفات عن اليهودية ودروس في العبرية والفكر اليهودي ..الخ.

وبوجوده على الشارع الرئيسي للمدينة، شارع ميشلي (ديدوش مراد حاليا) فإن المركز الثقافي اليهودي بمدينة الجزائر كان يعج بالنشاط، ومن بين ما كان يحتويه أيضا ناد للترفيه وتعليم مبادئ اليهودية للأطفال ينشطه WIZO ومنبر يتردد عليه العديد من "المؤمنين" لصالح اليهود المقيمين بهذا الحي الذي ينعدم فيه البيع بما أن هذه الأخيرة تتمركز بباب الوادي.

وكونها تستفيد من تحويل فإن اللجنة الثقافية اليهودية بالجزائر المعتمدة على المساعدة النشطة للمندوب الحيوي لدائرة التربية والثقافة للوكالة اليهودية ستنظم أيضا سلسلة حصص إذاعية تبث بانتظام على موجات "إذاعة الجزائر" (التي سميت فرنسا V بعد ماي 1958).

ومن جهتهم فإن الفيدرالية الصهيونية بالجزائر ودائرة التربية عبر التوراة للوكالة اليهودية كانتا تنميان نشاطاتهما الخاصة.

الصهيونية بالجزائر

لقد كان الشعور الصهيوني راسخا في أعماق قلب أغلبية يهود الجزائر على الرغم من أن التعبير عنه في هذا البلد ذو الأغلبية المسلمة كان محدودا بسبب الوضع السائد.

وكانت حركة "بيطار" لمدة طويلة من بين أندر الحركات نشاطا بمدينة الجزائر على الأقل، وبعد سنة 1948 كانت تنظم تظاهرات عامة للاحتفال بذكرى إنشاء دولة إسرائيل بصفة منتظمة، ومن قبل نشوب الحرب قاد تنظيم "كيرن حايسود" حملات دعم من أجل فلسطين، وكانت توجد أيضا لجان K.K.L في معظم الجاليات اليهودية، وفي هذا المجال الصهيوني أيضا أبدى عدد

من قادة الجاليات تحفظهم بهذا الشأن (على نفس المنوال الذي كانت عليه الأوضاع بفرنسا).

وعشية حرب التحرير بقي من يبدي شعوره المعادي للصهيونية، "ولكن إنصافا للحقيقة، علينا أن نقول أن هذا الموقف قد تغير بعد عام 1948".

وبإعادة هيكلتها وبخروجها من سباتها عملت الفيدرالية الصهيونية على تنمية نشاطاتها ابتداء من الخمسينيات تحت قيادة مناضلين حيويين.

وكان التردد قائما بخصوص تنظيم أحزاب صهيونية في الشتات فأقاموها على أسس إقليمية وسعوا جاهدين لترجيح تصورهم لحركة صهيونية سياسية لدى مسيري الحركة الصهيونية العالمية ولكن دون جدوى.

كما انشغلت الفيدرالية الصهيونية بالجزائر بالقضايا الصعبة التي مثلها إدماج السكان القادمين من بلدان عربية في إسرائيل وكانت الفيدرالية في هذه الوضعية الخاصة بمثابة ناطق رسمي باسم كامل يهودية شمال إفريقيا، بما أن الفيدراليتين الصهيونيتين للبلدين المجاورين قد أوقفتا كل نشاطاتهما بعد تحصلهما على استقلالهما.

المدرسة اليهودية والفرنسية

لمواجهة حملات الطرد شرع قادة الجاليات اليهودية في وضع تعليم ابتدائي وثانوي يهودي خاص، ونظمت مدارس تحت إشراف روبيل برينشفيك، أستاذ سابق بكلية الآداب لمدينة الجزائر وراوول ميارة، مفتش التعليم الابتدائي لمقاطعة "تارن" والمقيم بمدينة الجزائر وجميع موظفي التعليم ذوي الأصل اليهودي المطرودين من مناصب عملهم.

وخضع فتح المدارس هذه لترخيص من الحاكم العام بعد سماع رأي لجنة للتعليم وفق القانون الصادر في 31 ديسمبر 1941، وبصدوره في الجريدة

الرسمية للدولة الفرنسية في 09 جانفي 1942 استثنى التعليم العالي من مجال التعليم اليهودي الخاص.

وكان تمويل هذه المدارس مضمونا بفضل إعانات "الإخوة" في الدين الميسوري الحال والاشتراكات التي تجمعها مختلف اللجان والجمعيات، المنشأة لهذا الغرض.

فشكلت كل من مقرات دراسة "التلمود" و "التوراة" عمارات وضعت تحت التصرف عدداً كبيراً من المدارس الابتدائية المرتجلة، وباشرت حوالي 70 مؤسسة تعليمية موزعة على جميع التراب الوطني نشاطاتها، أما التعليم الثانوي الذي وضع تحت سلطة الحاخام الأكبر لمدينة الجزائر والسيدين - برونشفيق وعيزر شرقي فكان منظما في المدن الكبرى كمدينة الجزائر ووهران وقسنطينة وتلمسان، وسمحت الامتحانات التي لم يحرم منها التلاميذ بالحصول على نتائج جد مقبولة كانت بمثابة "بوادر حصاد فكري وخلقي غني".

ولكن أعيد النظر في هذه الإمكانية بموجب المادة 5 من القانون الصادر في 19 أكتوبر 1942 والمنشور في الجريدة الرسمية بتاريخ 24 أكتوبر من نفس السنة وهو ينص على أن التلاميذ المسجلين بصفة نظامية في المؤسسات التعليمية العمومية هم فقط المسموح لهم بإجراء الامتحانات.

إلا أن التسجيل في امتحانات شهادة ودبلوم الدراسات الابتدائية يبقى دائما مفتوحا، والأدهى والأمر أن نفس هذا القانون زاد من حدة النصاب الإجباري بالنسبة لمؤسسات التعليم الابتدائي والثانوي فقلصه من 14% إلى غاية 07% أي النصف.

وتكثفت الإجراءات التمييزية حتى أنه تم اقتراح حمل اليهود للجنسية الصفراء.

وستساهم عودة اللجنة اليهودية للدراسات الاجتماعية إلى الساحة في أواخر 1942 برئاسة الأستاذ هنري أبو الخير في استرجاع يهود الجزائر لمواطنتهم الفرنسية التامة والكاملة، هذه اللجنة التي سبق لها عام 1937 وأن نددت بالحملة الدعائية الكاذبة التي أطلقت عبر صفحات الجرائد.

وسجل تاريخ 8 نوفمبر 1942 تحولا في سير الحرب، فقد نزلت القوات الإنجليزية الأمريكية بسواحل شمال إفريقيا ففي المغرب كان الإنزال بميناء ليوتي وفضالة وصافي وبالجزائر بسيدي فرج ووهران، ويعود نجاح هذا الإنزال، في جزئه الأكبر للتحضير المتقن الذي دام سنتين كاملتين.

❸. الإنزال 1942

بعد إعفائهم من التجنيد وعودتهم إلى أرض الوطن، لم يستسلم بعض الشباب اليهودي للهزيمة وبرفضهم للمهادنة وضعوا آمالهم في أمثلة جبال طارق وانجلترا، واتضحت باكرا معالم مقاومة داخلية في الجزائر وبدفع من هنري داستيية دي لافيجري تنظمت هذه المقاومة وتم ربط اتصالات بوهران مع روجيه كاركاسون وبمدينة الجزائر مع أبو الخير.

وبمدينة الجزائر دخل روبير مورفي الممثل الشخصي للرئيس روزفلت في مفاوضات مع اللواء هنري جيرود الفار مؤخرا من قلعة ألمانية، وتم إبرام اتفاق بينهما في أكتوبر 1942 وصار الإنزال بموجبه وشيكا.

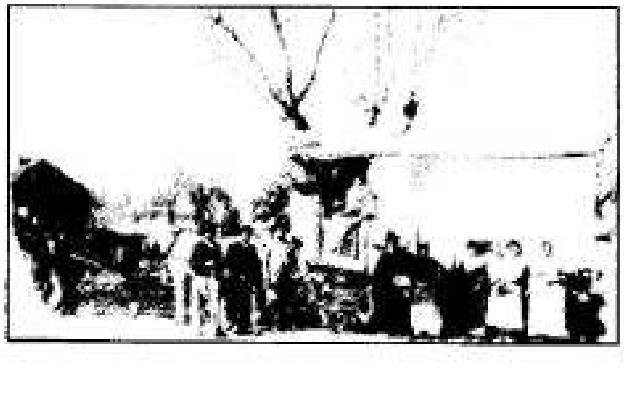
ومن بين المقاومين الذين ساهموا بفعالية في إنجاح هذا الإنزال الذي سمي "الشعلة" عدد كبير من اليهود لأنهم كانوا الضحايا المباشرين لتشريع معاد للسامية في بلد كان الحكم فيه فاشيا فتحولوا إلى معارضين لا يوازيهم معارض.

وجمعت وحدة مقدسة واستثنائية بين هؤلاء الشباب اليهود ورفقاء بعيدين عنهم من "الكاثوليك وأنصار الحكم الملكي ومناضلين" لتحضير هذا الانقلاب.

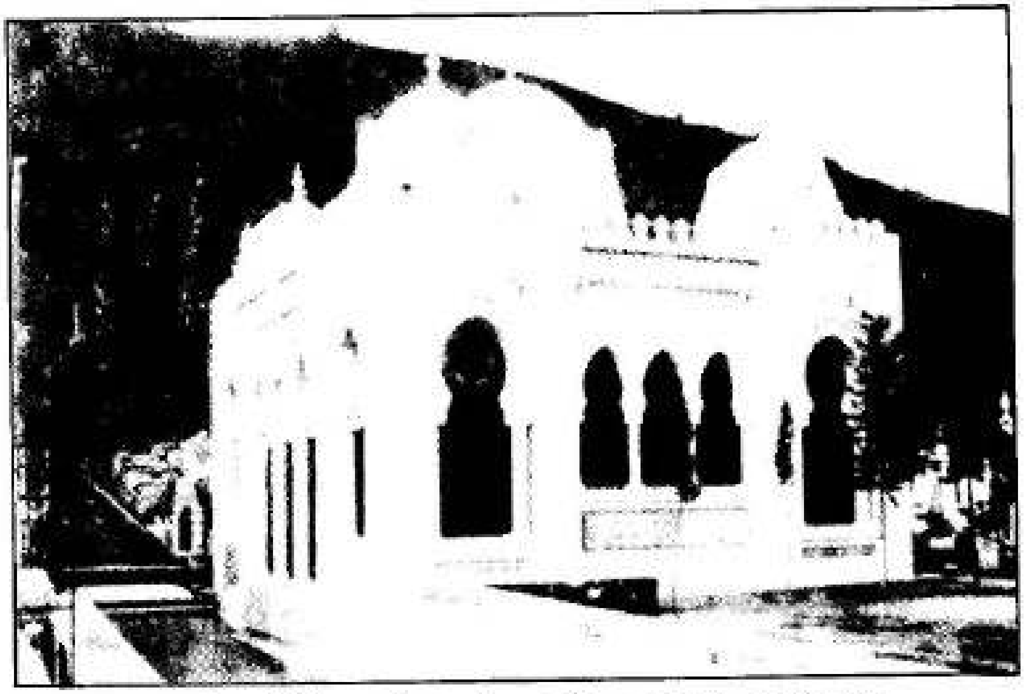
وفي 8 نوفمبر 1942 على الساعة الواحدة صباحا قام حوالي 400 شاب مقاوم تنقص غالبيتهم الخبرة بالاستيلاء على مراكز القيادة بالمدينة وألقي القبض على اللواء جوان القائد الأعلى بشمال إفريقيا وفريق الأسطول البحري جون فرانسوا دارلان قائد الجيوش الفرنسية الذي عينه المشير بيتان وقد صادف حلوله بمدينة الجزائر هذا الهجوم وفي ظرف ساعة من الزمن كانت العاصمة في قبضتهم وأحكم الخناق على 11000 من رجال الفرق النظامية بجيش إفريقيا و2300 عضو في تنظيم "خدمات المصف الفيلقي".



دار المسرح (المسرح الوطني بالجزائر) وساحة الجمهورية



البيت العائلي سنانس مع خدمها خلال نقلها للسلع، ما بين تلمسان وسيدي بلعباس على الأرجح نحو 1900



بالمقبرة الإسرائيلية بحي القديس أوجين النصب التذكاري لمن فقدوا في حرب 1914 - 1918.

ونجحت المكيدة نجاحا فاق كل اعتبار، فالمخطط المبدئي كان يرمي إلى شلّ المدينة خلال ساعتين من الزمن ولكنها شلّت لخمس ساعات متتالية ولم تدخل أولى فرق كومندوس الحلفاء إلى المدينة إلا على الساعة السابعة صباحا.

وبوهران كان الأمر أصعب، فقد حاول المقاومون إقناع السلطات العسكرية بالإنضمام إلى حركتهم ولكن دون جدوى وفضلت المواجهة فاندلعت معارك مسلحة، فلحتاج الأمر إلى عدة أيام لإنهاء عمليات الإنزال.

وتم في الأخير التوقيع على هدنة ولكن في ظل سلطة دارلان الذي حاول التوفيق بين وفائه للمشير بيتان واستئناف المعارك.

وتنحى جيرود من أمام.الفريق دارلاة الذي سيعينه فيما بعد قائدا أعلى لفرق الجيش الفرنسي وفي 13 نوفمبر أعطى دارلان أمرا لجيرود بإقحام قواته في الحرب ضد قوات المحور.

فهذا الاختيار الأمريكي في التعامل مع فيشي تمليه عجلة وقف إطلاق النار ولا يستطيع فرضه سوى دارلان.

وكانت الجيوش الألمانية والإيطالية تشكل خطرا محدقا بالأراضي التونسية، إلا أن هذا الاتفاق المبرم كذلك لأسباب ومصالح عسكرية اعتبرته حكومة الولايات المتحدة "كتخلص مؤقت"، وبقيت الإدارة التي وضع أسسها فيشي قائمة، وبقيت معها الإجراءات التمييزية، فكانت خيبة اليهود الجزائريين في نفس مستوى الآمال المرجوة.

فثارت الصحافة الأمريكية ضد هذه الوضعية وسعت المنظمات اليهودية الأمريكية التي التحقت بها جملة من الصحافة الإنجليزية الأمريكية للتنديد بهذا النظام الذي لم يحرك فيه وصول الحلفاء ساكنا.

وفي 24 ديسمبر 1942 اغتال شاب ملكي، فيرديناند بونيه من لاشابيل دارلان، فلم يعد هناك اختيار أمام اللواء فخلف دارلان، وكانت أفكار اللواء في الحقيقة خضوعية ولم يكن ميالا للمسؤوليات السياسية، واعترف بعدم كفاءته في هذا المجال، وهو ليس بديمقراطي والعديد من مبادئه مرتبطة ارتباطا وثيقا بأفكار الثورة الوطنية وأطروحتها.

عندما استقال الحاكم العام إيفا شاتل من منصبه في جانفي 1943 إختار جيرود لخلافته مارسيل بيروتون أحد أهم المحرضين على إلغاء مرسوم كريميو ووزير سابق في حكومة فيشي.

إنها مراوحة الأوضاع مكانها، نفس الموظفين في نفس المناصب ونفس التشريع الاستثنائي.

وضعف صفوف الجيش وجه الجنود اليهود إلى وحدات خاصة غير مقاتله "الرواد" طبقا لهدف حددته تعليمة عمل صادرة في مطلع سنة 1943 يتمثل في "اجتناب أن تمس وضعية قدماء المحاربين مجموع السكان اليهود حتى لا يرهن المستقبل حول مسألة القانون الأساسي الذي سيخوضون فيه بعد الحرب".

وبعد ستة أشهر من إنزال الحلفاء كانت مراكز بيدو وسعيدة وكولومب بشار وجلفة وغيرها من المراكز بالجنوب الجزائري "تعج بمعتقلين بسبب جنسهم أو تصرفاتهم ومواقفهم المناوئة للألمان وبعض المراكز العملية بمركز بيدو كانوا بمثابة معتقلات للعسكريين الجزائريين ذوي الأصل اليهودي أين كانوا مجبرين على أداء الأعمال الشاقة، وبمركز الجلفة وضعوا في حي خاص بهم.

وقد استعملت المبررات المعتادة لتبرير الإبقاء على القوانين الاستثنائية بحجة الوقاية من رد فعل محتمل للسكان المسلمين الذين "أثرت فيهم الدعاية النازية وضمان لليهودي وللعربي على حد سواء نفس حماية فرنسا.

أما بقاء النصاب الإجباري في المدارس العمومية فقدم على أنه حل لإكتضاض الأقسام ووصل الأمر بالحاكم العام الجديد إلى حدّ تشجيع التعليم اليهودي الخاص الذي يطابق حسب رأيه "رغبات الجاليات الإسرائيلية".

وسجل شهر مارس من سنة 1943 فتورا في هذه السياسة، فأمام رأي عام وصحافة يزداد نقدهما الحاد اختار رئيس الولايات المتحدة الأميريكية التقريب بين اللواءين جيرود وديغول وتشجيع توحيد المقاومين.

فشارل دي غول يتمتع بثقة الجالية والمنظمات اليهودية الأمريكية "وأثبت نفسه ليس فقط كديموقراطي ومعاد للفاشية ولكن أيضا كرجل يعرف مأساة اليهود ويتعاطف معهم"

وتمثلت المبادرة الثانية لروزفلت في تنصيب مستشار سياسي لدى جيرود، ووقع اختياره على جون مونيه المقيم بالولايات المتحدة منذ 1940، وكانت مهمته شديدة الحساسية فبعيدًا عن مهمته الرسمية التي قادته إلى مدينة الجزائر في أواخر شهر فبراير 1943 والمتمثلة في تدريب جيرود على التموين بالأسلحة كان عليه قبل ذلك التخفيف من حدة مواقف اللواء ودفعه إلى تبني المبادئ الديمقراطية برفضه كل فكرة مستوحاة من فكر فيشي وكانت الإجراءات

الليبرالية مثل حل "خدمات المصف الفيلقي" وإطلاق سراح النواب الشيوعيين التي اتخذت خلال فترة وجيزة يدفع إلى التنبؤ بعودة فرنسا إلى سياستها التقليدية.

وفي 14 مارس 1943 قرأ جيرود خطابا مشبعا بفكر مطابق لقوانين الجمهورية الثالثة وأعلن أن التشريع الذي تلا تاريخ 22 جوان 1940 يعتبر ملغى، إلا أن استثناء هاما يبقى ساري المفعول وهو إلغاء مرسوم كريميو الذي أكده أمر صادر بالجريدة الرسمية بتاريخ 18 مارس 1943.

فالإبقاء على أمر الإلغاء يمثل بالنسبة لجيرود تقدما يعيد العدالة الاجتماعية ما بين اليهودي والعربي " فهذا يزاول نشاطه في حانوته والآخر يعمل في ريفه دون أن يزاحم الواحد الآخر وتضمن فرنسا لهذا وذلك أمنه واستقراره".

وتبع هذا الإعلان الثاني إلغاء للمرسوم حشد من الاعتراضات منبعثة من الصحافة الأمريكية والإنجليزية، والمنظمات اليهودية.

وفي 30 ماي 1943 وصل ديغول إلى مدينة الجزائر فشكلت لجنة فرنسية للتحرير الوطني (ل.ف.ت.و) بتاريخ 3 جوان وكان على رأسها كل من جيرود وديغول كرئيسين مشتركين.

وبدأ جيرود يفقد تدريجيا كل سلطة أمام ديغول، فالنزيف الحقيقي الذي أصاب جيشه عجل بسقوطه فبعدما كان تعداده 400000 رجل فقد العدد الكبير من جنده، فأكثر من10000 جندي فروا من صفوف جيشه والتحقوا بأول قسم فرنسي حل (ق.ف.ح) أو الفرقة المتنقلة لليكلرك والتجند مرة أخرى في صفوف القوات الفرنسية الحرة.

ومن بين هؤلاء شارك العديد من اليهود في معارك التحرير بتونس وايطاليا وفرنسا.

وبعد خمسة أشهر من الإرجاء بسبب روح العداء للسامية الشديد خاصة بالجزائر والمعشش في الإدارة وبين قيادة الجيش صرحت اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني في بيان نشر بتاريخ 20 أكتوبر 1943 أن "مرسوم كريميو أعيد سريان مفعوله".

وبعد ثلاث سنوات من الوعود استعاد يهود الجزائر مواطنتهم الفرنسية الكاملة وأعيدت العدالة الجمهورية.

❹. من فلسطين إلى نوفمبر 1954 ...

شعور التضامن عند يهود مدينة الجزائر عفوي تجاه الوطن الموجود و"الدولة العبرية" لا تترجم بهجرة مكثفة إلى إسرائيل، ففي عام 1951 خرج 4000 يهودي جزائري للإقامة بإسرائيل من بينهم عدد قليل من يهود مدينة الجزائر، وفي العاصمة فإن الصرامة القائمة للهوية الثقافية واليهودية لم تمنع حدوث ابتعاد ملموس عن المؤسسات الرسمية للجالية، ومثل واحد على ذلك أنه من بين 28000 يهودي المقيمين بمدينة الجزائر عام 1953 منهم 2000 إلى 3000 فقط يرسلون أبناءهم إلى المدارس الدينية للجالية. وعندما أطلقت جبهة التحرير الوطني (ج.ت.و) في أول نوفمبر 1954 أمر العصيان العام ضد النظام الاستعماري الفرنسي بالجزائر، وضعت فكرة اندلاع حرب بقيت مدة طويلة يشار إليها بغير اسمها في هذا البلد وضع الإنسجام الداخلي للجاليات اليهودية أمام امتحان صعب وكلمة صعب" هنا لا تؤدي المعنى المطلوب.

ففكرة ضرورة اندماج اليهود في فرنسا "أرض الفنون والأسلحة والقانون" بات تقريبا أمرا مفروغا منه.

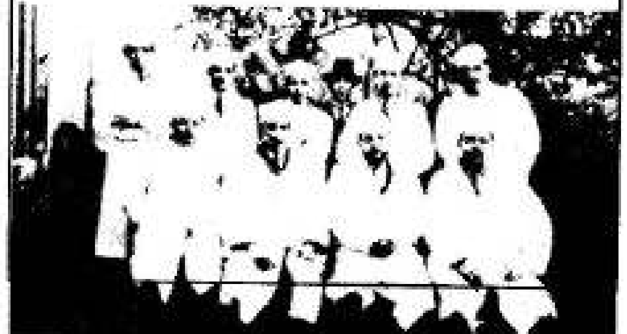
ولكن من جهة أخرى نجد عند اليهود شعورا قويا بالروابط المتينة التي تربطهم منذ عدة قرون بعالم عربي بربري، يتكلمون لغته من خلال حياة يومية تكاد تطابق عاداته وطبخه وموسيقاهُ وحتى لباسَهُ.

وكان أول رد فعل لأغلبية يهود الجزائر، وهم في وضعية يقعون فيها بين المطرقة الفرنسية والسندان العربي، الحياد للحفاظ على الجالية أو ضمان بقائها.

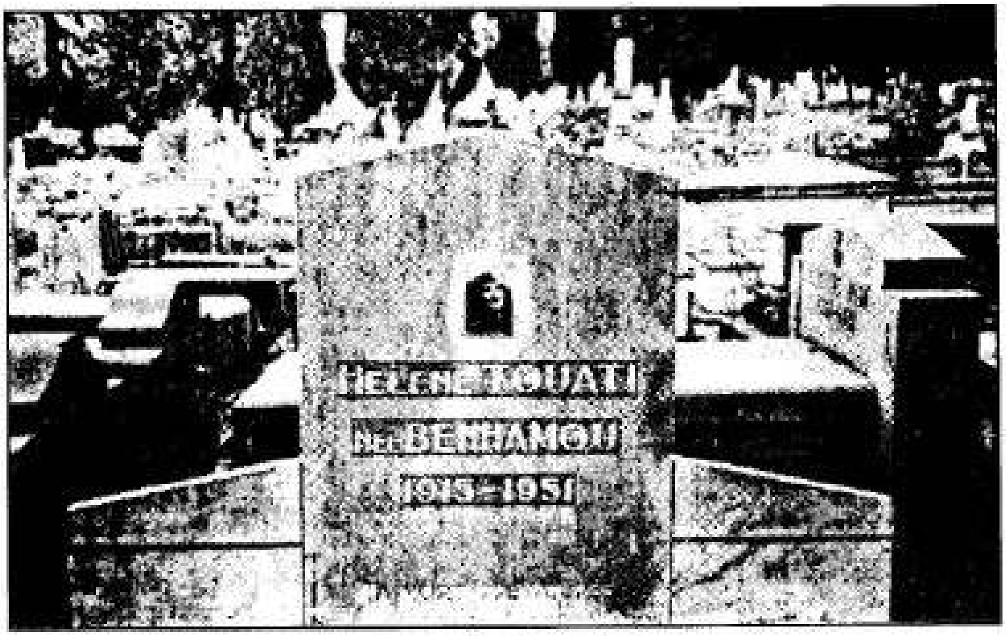
فالانتماء المزدوج للعالم الفرنسي والعالم العربي اللّذين دخلا في دوامة مواجهات دامية كانت نتيجته رفض مزدوج معارض لمن يرغبون جر الجالية وإمالتها إلى جهة "موالية موالاة تامة للفرنسيين" أو جرها وإمالتها إلى جهة "موالية موالاة تامة للعرب".



بعض المرحلين من الجزائر عند وصولهم إلى مطار لود بإسرائيل



هيئة موحاليم (المشرفين على عملية الختان) بوهران خلال سنوات 1929 – 1930
من اليسار إلى اليمين الوقوف موسى كوهين، الحاخام سليما تسية الحاخام صامويل كوهين، الطبيب سلامة.
الجلوس : الحاخامات : حاق روش ياهوذا بن عايش، داوود أسكنازي وإيلي حايم بوعزيز



مقبرة يهودية بتلمسان

الأقليات اليهودية:

إن اليهود الذين اختاروا أحد الاتجاهين هم قليلو العدد نسبيا، ولكن أصواتهم وحججهم تجد آذانا صاغية.

فالأقلية التي كانت تسعى لتجنيد اليهود بقوة من أجل "الدفاع عن الجزائر الفرنسية كانت تضع في مقدمة حججها المخاوف المشروعة التي تثيرها آفاق بلد عربي مسلم مستقل في نفوس الجالية ألن يندمج هذا البلد على الصعيد الدولي في عالم عربي لا يزال متأثرًا بعدم التسامح الديني والتخلف؟ وعلى الصعيد الوطني ألن تسعى السلطات الجديدة في الجزائر إلى مراجعة الحقوق التي منحتها فرنسا لليهود؟.

والأقلية المخالفة هي تلك التي تذكر أن السلطة الاستعمارية الفرنسية اضطهدت اليهود خلال فترة حكم بيتان وجيرود وسحبت منهم حق المواطنة الفرنسية وهذا برضى أغلبية الأوروبيين من غير اليهود.

ونجد أغلبية نشاط هذه الأقلية بمدينة الجزائر وتضم على وجه الخصوص مسؤولي منظمات يسارية الحزب الشيوعي الجزائري خاصة الذين

يحتفظون بعلاقات خاصة مباشرة أو غير مباشرة علنية أو سرية مع وطنيين جزائريين.

"بينما اختار يهود آخرون خيارا أكثر تطرفا، فاستنادهم إلى إيديولوجية جبهة التحرير الوطني التي تتخذ كمرجع مبادئ عالمية تقدمية، قام هؤلاء برهان متفائل والمتمثل في كفاح ينتهي بإقامة تعايش متناسق بين المسلمين العرب واليهود والأوروبيين في جزائر جديدة.

فقدم هؤلاء مساعدة جد ملموسة لجبهة التحرير الوطني بمدينة الجزائر وما جاورها، حتى أن البعض منهم التحق بصفوف محاربي جيش التحرير الوطني (جيش جبهة التحرير الوطني) ومنهم شيوعيون يهود ومن غير اليهود انفصلوا عن حزبهم لما رأوه فيه من حذر انتهازي.

فهذا التيار الموالي لجبهة التحرير الوطني كان في أعلى مستواه عند يهود منطقة مدينة الجزائر خلال الأشهر الأولى من عام 1955 ولكنه عرف نوعا من التراجع ابتداء من صائفة نفس السنة وهذا لعدة أسباب".

أولها أن العصيان العام للمجاهدين في شهر أوت 1955 في منطقة قسنطينة تبعته في إطار "تضامن شعوب المغرب العربي" ثورة بعض المجموعات المغربية استجابة لنداء حزب الاستقلال الذي كان يكافح من أجل استقلال المملكة الشريفية.

وفي كلتا الحالتين كانت المواجهات دامية بين الجماهير الوطنية وقوات القمع الفرنسية وخلفت العديد من الضحايا اليهود وهذا ما أيقظ لدى اليهود شبح اجتياح عربي أعمى لن يجنبهم الخسائر.

ومن جهة أخرى عند نهاية صائفة 1955 طال القمع الممارس من السلطة الاستعمارية بالجزائر ضد الأوروبيين الشيوعيين والتقدميين (منع صدور يومية الجزائر الجمهورية) ثم ضد البنائين الأحرار والاشتراكيين

واللبراليين المتشددين في معارضتهم بمدينة الجزائر اليهود المعادين للاستعمار بوقع أشد.

وتم توقيف العناصر الأكثر نشاطا والزج بهم في مراكز الاعتقال خاصة مركز الليدو (برج الكيفان) أو تم طردهم من البلد. فهذا الإضعاف "لليسار اليهودي" الوسيط المهم بالنسبة للوطنيين الجزائريين كان بمثابة ضربة قاسية لدعاة "العصرنة" ضمن جبهة التحرير الوطني المتمركزين بمدينة الجزائر.

وعلم خلال شهر ماي 1956 بمدينة الجزائر أن حكومة المغرب المستقل منذ شهر مارس قد منعت اليهود من مغادرة التراب الوطني باتجاه إسرائيل، فشهد سكان مدينة الجزائر توافد عدد كبير من المهاجرين المغربيين اليهود سراً معتبرين المدينة معبرا (فكانوا يركبون السفن بسيدي فرج باتجاه الموانئ الإسرائيلية).

وهكذا عاش يهود منطقة مدينة الجزائر صدمة جديدة فهذا المشهد أثبت لهم حدود "الإرادة الحسية " لحكومة بلد عربي مسلم حديث عقد بالاستقلال.

أفلا يكون الموقف غير المتسامح لقادة الرباط مثلا وسابقة لقادة جزائر عربية مسلمة مستقلة؟ فهذا السؤال لا يمكن التغاضي عنه، ولم يتردد يهود مدينة الجزائر الأكثر تمسكا بفكرة الإبقاء على الجزائر فرنسية في إثارته.

لهذا السبب أيضا لم تجد قيادة جبهة التحرير الوطني صدى عندما طلبت عبر رسالة موجهة بتاريخ 13 أكتوبر 1956 "إلى المنتخبين وكل مسؤولي الجالية الإسرائيلية بمدينة الجزائر" من اليهود الانضمام بدون تردد إلى صفوف جبهة التحرير الوطني في كفاحها من أجل استقلال الجزائر.

واعتبرت معظم الشخصيات اليهودية التي وصلتها هذه الرسالة أن مبادرة جبهة التحرير الوطني بمدينة الجزائر مبادرة "تثير الاهتمام" إلا أنها "غير مقبولة في الوضع الحالي للأمور".

وعليه لم يتم أي لقاء رسمي بين وجهاء اليهود ومسؤولين عن جبهة التحرير الوطني من أي صنف كان.

وأجريت محادثات سرية بين قيادات من جبهة التحرير الوطني خلال سنوات 1957 و1958 و1959 بمدينة الجزائر لكنها لم تسفر عن أي نتيجة.

وبمرور الوقت تبين تكاثر عدد اليهود أمثال جاك لازاروس رئيس اللجنة الجزائرية للدراسات الاجتماعية الذين يؤكدون أن: "اليهودية الجزائرية قد ذهبت بعيدا في اندماجها في العالم الغربي على حساب قيم أسلافها نفسها مما جعلها عاجزة عن إتباع طريق آخر من دون الطريق الذي تبعته منذ أكثر من قرن".

وخلال الأيام الصاخبة لشهر ديسمبر 1960 نهب فريق كومندوس بيعة القصبة واستنتج من التحقيق الذي أجرته بهذا الصدد مصالح الأمن التابعة للواء أن مرتكبي هذه الجريمة هم مغرضون يعملون لصالح القادة النشطين لجبهة الجزائر الفرنسية.

وتقاسم قادة الجالية اليهودية لمدينة الجزائر الرأي مع المحققين وتدخلوا لدى الشباب اليهودي المنتمي "للمجموعات الأوروبية للدفاع الذاتي" حتى لا يحملوا جبهة التحرير الوطني مسؤولية نهب البيعة والامتناع عن استعمال أسلحتهم في عمليات انتقام ضد المسلمين.

وفي نفس الوقت سجل بمنطقة مدينة الجزائر وقوع عمليات إجرامية يتهم مرتكبوها بالانتماء إلى جبهة التحرير الوطني مع وجود إثبات على ذلك خلفت ضحايا فرنسيين ويهودا أيضا وعلى الفور كان للربط بين الإرهاب وجبهة التحرير الوطني مصداقية كبيرة في أوساط يهود مدينة الجزائر.

ولكن في 11 نوفمبر 1960 وقعت أحداث هزت مدينة وهران فبعد مواجهات بين مجموعات ج.ج.ف (جبهة الجزائر الفرنسية) المؤسسة بمدينة

الجزائر في جوان 1960 ومسلمين متظاهرين حاملين في مقدمتهم علم جبهة التحرير الوطني، تم تخريب المقبرة اليهودية وذهب بيت الحارس.

فوقعت صدامات بين اليهود والمسلمين وشيئًا فشيئا خلال الأحداث سينضم يهود مدينة وهران إلى أنصار الجزائر الفرنسية على الرغم من تجندهم المتأخر.

خلال انقلاب 22 أفريل 1961 انتاب العديد من يهود وهران القلق بخصوص ما اعتبروه "خيانة" من اللواء ديغول وتعاطفوا بطبيعة الحال مع الألوية الذين كانوا وراء الانقلاب، لكن الأمر يختلف عندهم فهذه الآراء لا تتماشى والإحساس المعادي للعرب.

فغالبا ما كانوا يندون بدسائس المتحكمين في زمام أمور المنظمة العسكرية السرية الذين ينتمي جزء منهم إلى الشعب الإسباني لحي البحرية، مع أن بعض يهود وهران (عددهم قليل) ينتمون إلى كومندوس المنظمة العسكرية السرية أو يشاركون في شبكات لجمع معلومات، وخلاصة القول أنهم أحبوا أم كرهوا فهم يدفعون اشتراكات للجيش السري، وكما كتب عنهم جيرارد إسرائيل: "إنهم يفعلون كما يفعل الجميع".

وابتداء من صيف 1961 ساد مدينة وهران جو حرب أهلية وكل اعتداء كان متبوعا بدوامة "انتقام" وكان بعض المسلمين يخاطرون بحياتهم بدخولهم الأحياء الأوروبية أو الاقتراب منها وامتنع الأوروبيون نهائيا عن دخول الأحياء العربية. وكانت المدينة تدوي بمنبهات السيارات وطنين آنيات المطبخ المرافقة لشعار: الجزائر فرنسية.

وعرفت المشادات بين المنظمة العسكرية السرية وعناصر قوى الأمن الداخلي حدا لا يطاق بساحة الانتصارات أو ساحة هوش على طول نهج اللواء ليكليرك (شارع أرزيو).

وفي 18 أوت 1961 اهتزت المدينة على وقع انفجار مائة وواحد عبوة ناسفة لماعرف "بالليلة الزرقاء" واستهدفت العديد منها اليهود فدافعت المنظمة العسكرية السرية عن نفسها في منشور أصدرته ونفت عنها إشاعة العداء للسامية التي أثارتها بعض هذه الانفجارات وخلال فصل الخريف تضاعفت عمليات - جبهة التحرير الوطني، ولكن كيف السبيل إلى معرفة ما إذا كانت عمليات جبهة التحرير الوطني والعمليات العسكرية السرية تستهدف اليهود أنفسهم؟

وفي سبتمبر 1961 في يوم "روش هاشانا" اغتال حلاق متجول رب عائلة السيد هنري شقرون، وهو في طريقه إلى البيعة رفقة أبنائه.

فكان رد فعل شباب يهود في غاية الحدة والغضب وأشعلوا نار فتنة أخذت طابع مواجهة عرقية، فهاجموا محلات عربية وأضرموا بها النيران.

ومع أنه متجند في صفوف المنظمة العسكرية السرية إلا أن هذا لم يمنع هنري شموبلي من ذكر حقيقة هذه العملية بقوله: "عرفنا بعد مضي وقت طويل أن المنظمة العسكرية السرية كانت وراء الاغتيال وحيكت مكيدة التحريض بإحكام" فهذه العملية التي ألصقت بجبهة التحرير الوطني زورا كان الغرض منها الميل باليهود إلى صفوف المتطرفين.

وبين ريجين غوتاليه معتمدا على وثائق محكمة أمن الدولة أن عددا بسيطا من النشطين اليهود تجندوا تاما في صفوف المنظمة العسكرية السرية. وعبر مختلف فروع هذه المنظمة التي أطلق عليها اسم "التلال" (100 عضو نشيط بمدينة وهران و 440 عضو للمنظمة الوهرانية) كانت التلة 7 (مجموعة من 21 شخصا) تمثل الحي اليهودي، وهي تتكون من اليهود ومن عناصر غربية (بما فيهم جنود فيالق فارين).

واعتبرت المجموعة مجموعة دفاع ذاتي عن الحي الإسرائيلي تتمثل مهمتها في منع العرب من دخوله، وفي حقيقة الأمر أن هذه المجموعة التي يقودها

إيلي عازولاي مسيّر حانة، وبن عطار مسيّر محل مشروبات لها صلاحيات أوسع فالمجموعة على علاقة بشبكة "فرنسا - عصيان" وهي المسؤولة عن العمليات الإجرامية الكبيرة التي هزت مدينة وهران من سنة 1961 إلى سنة 1962. وكان يتقاضى أعضاء المجموعة مبالغ مالية من المنظمة العسكرية السرية وكانت تحول راتبا تفضيليا لألبير درمون الذي عينه شركاؤه "قاتلا دائما".

خلال الأشهر الأخيرة "للأحداث" وعندما حضر موعد الرحيل بدا مصير يهود وهران مرتبطا رباطا وثيقا بمصير فرنسيي المدن الأخرى.

وبعد إلقاء القبض على اللواء جوهود وانضمام اللواء صالان وابتداء من 08 أفريل 1962 على وجه الخصوص، تاريخ الاستفتاء الذي وافق على إتفاقيات إيفيان، عرفت مدينة وهران جواً من الرعب والهلع فالمنظمة العسكرية السرية كانت تمنع الرحيل.

وفي 23 جوان 1962 عندما أعلن "العقيد" عبر موجات - الإذاعة السرية عن "الفرار - لمن استطاع إليه سبيلا" معلنا بذلك استسلام المنظمة العسكرية السرية، كانت الإغارة على مطار السانية وميناء مرسى الكبير من الفارين.

وفي 25 جوان 1962 قذفت المنظمة العسكرية السرية بقذائف "البازوكا" على صهاريج المازوت لميناء وهران متسببة بذلك في احتمال تفجير المدينة بكاملها.

وابتعدت آخر باخرة المانسو عن الميناء المشتعل تاركة وراءها ستارا من الدخان.

* **إلى اللقاء :**

لقد تم الاحتفال باستقلال الجزائر في تظاهرة كبيرة يوم 05 جويلية 1962 ومن جهة تلقت فرق الجيش الفرنسي التعليمات وكان اللواء كاتز عازما على منعها من التدخل.....

وخلال الفترة (ماي 1961 - جوان 1962) التي ميزتها القوة المخفية للمنظمة العسكرية السرية واندفاعها الإجرامي، ابتعد يهود مدينة الجزائر بمسافة واضحة عن المنظمة المتمردة ووجهوا تعاطفهم بطبيعة الحال تجاه الليبراليين الذين عارضوا المنظمة، إلا أن البعض منهم في باب الوادي أيضا دخلوا السرية أو مرحلة شبه سرية لمشاركة المنظمة العسكرية السرية نضالها.

بينما أظهر غيرهم حذرا مبررا لأنهم على علم جيد أن شبكات المنظمة التي يسيطر عليها اليمين المتطرف، تراقبهم باهتمام خاص وأن قتلة "كومندوس دلتا" قريبين جدا من "السياسيين" وعجلت سياسة "الأرض المحروقة" التي مارستها المنظمة العسكرية السرية بعد اتفاقيات ايفيان (مارس 1962) الرحيل المكثف خلال شهر جوان (قبل الإعلان عن الإستقلال) الفرنسي الجزائر اليهود منهم وغير اليهود.

وفيما يلي شهادة مؤرخ على ذلك.

إن لهذا الرحيل المأساوي سبب آخر كثيرا مالا يتناول بالدراسة وغالبا ماهو مجهول إنه ابتزازات "الوافدين" أي الجزائريين غير المنتمين لجبهة التحرير الوطني الذين ساندوا الانتصار الجزائري بالآلاف بمجرد الإعلان عن إيقاف إطلاق النار في مارس 1962 وتنصيب "سلطة تنفيذية مؤقتة" بالصخرة السوداء وتزينوا بلباس جيش التحرير الوطني الغريب عنهم.

واستغل الكثير من مناضلي آخر لحظة هؤلاء تجمع السلطات المتعايشة على أرض الجزائر لسلب أملاك "أجنبية" وارتكاب جرائم يتم التمويه عنها "بسلوكات وطنية" في حق الأوروبيين (الأعداء الشخصيين للجزائريين وفي

حق اليهود غير المستفيدين من حماية جيدة من قوات الأمن التي تعاني من نقص الوسائل).

وقبل أن يتم التعرف عليهم بوضوح وتتم مراقبتهم، ساهموا في إيجاد هذا الجو المشحون بالقلق والخوف وحتى الهلع والذي يفسر الرحيل المستعجل والفوضوي مع فقدان الأمل لآلاف الفرنسيين اليهود وغير اليهود.

ففي أواخر جوان 1962 غادر 142000 يهودي الجزائر للإقامة بفرنسا وفي أكتوبر 1962 لم يبق من اليهود بالجزائر سوى 25000 يعيش 6000 منهم بمدينة الجزائر وأغلبهم كان يستعد للرحيل.

وابتداء من هذا التاريخ انفصل مصيرهم عن مصير الجزائريين واندمجوا في تاريخ فرنسا المعاصرة في فصل "المرحلين من الجزائر".

والكثير من اليهود الذين رحلوا خلال صيف 1962 لا يدرون بعد أن رحيلهم سيكون نهائيا وقد عاد البعض لتسوية بعض مسائلهم واجتناب تصنيف ممتلكاتهم في خانة "فارغة".

لكنهم غير مستعدين لتلقي التغيير العميق الذي بدأ يجتاح المجتمع والذهنيات.

فتأثير المؤسسات الفرنسية ونمط العيش بها قوي جداً وبديهي بالنسبة لهم مما يجعلهم عاجزين عن إيجاد مكان لهم في هذه الجزائر الجزائرية الجديدة المستقلة.

❺. قانون العدد

سيعرف عدد السكان اليهود بالجزائر نموا ديمغرافيا كبيرا بفضل التحسن في الظروف الصحية والحفاظ على نسبة الولادات مرتفعة فقد تضاعف عددهم ثلاث مرات في ظرف 50 سنة مابين 1881 و1931.

وهناك معطيات جزئية بالنسبة للسنوات التي تلت الاحتلال الفرنسي للبلاد، فهكذا قدر عدد اليهود بالجزائر العاصمة عام 1838 بـ 6065 نسمة أما بونا (عنابة) 293، وهران 5637 ومستغانم 698 نسمة.

وفي عام 1813 كانت تعد تلمسان 1508 يهودي، قسنطينة 3105، المدية 625، مليانة 112، وأعطى إحصاء 1851 عدد 21000 يهودي عبر كامل التراب الذي تديره فرنسا، وبعدها ستتسارع وتيرة النمو لتصل عام 1881: 35663 يهوديا أي 1,1% من مجموع السكان، وفي عام 1901: 57132 (1,2%)، عام 1921: 73967 (1,3%)، عام 1931: 110127 (1,7 %).

وخلال سنة 1941 أظهرت الأعداد التي قدمتها إدارة فيشي في إطار قانون الأحوال الجديد المعد لليهود ركودا في النمو.

فكان العدد المقدم 111021 يهودي فرنسي و 6625 يهودي أجنبي، ويمكن تفسير هذه الوضعية أيضا بحركة الهجرة نحو فرنسا الناشئة ابتداء من القرن XX.

فنسبة 17% من اليهود المجندين لسنتي 1905 - 1907 قصدوا فرنسا بعد تأديتهم الخدمة العسكرية، ونعلم أيضا أنه في عام 1942 كان 10000 يهودي قدموا من الجزائر مقيمين بالمغرب.



نساء يهوديات في الساحة الداخلية للبيت





في الأسفل تميمة من الورق المطبوع بوهران لحماية المولود الجديد

يتم تعليقها في غرفة الصغير

ويمكن تقدير عدد السكان اليهود بالجزائر عشية الاستقلال عام 1962 بحوالي 150000 نسمة، وكانت تضم البنية العائلية بصفة تقليدية عددا مرتفعا من الأطفال، ففي عام 1931 كانت تضم 49% من العائلات أربعة أطفال أو أكثر (45% من العائلات عام 1941).

وأظهرت الإحصائيات التي أجريت في نهاية القرن XIX وجود سكان يهود عبر حوالي ستين منطقة دون حساب مناطق بني مزاب.

إلا أنه يبقى أن هؤلاء السكان متمركزون في 3 مدن رئيسية للبلاد بمدينة الجزائر ووهران وقسنطينة: بنسبة 40% عام 1881 و 57% عام 1921 و 52% عام 1931.

وقد ساهم السكان اليهود الحضريون في معظمهم في جهد تنمية الاقتصاد الاستعماري، وفي عام 1914 سجل تواجد اليهود في 88 منطقة من المناطق الوهرانية وهي المقاطعة التي تشهد أكبر تركيز لليهود وبـ 88 مركز من منطقة مدينة الجزائر وبـ 61 منطقة من المناطق القسنطينية و بـ 16 من واحات الجنوب.

	السكان اليهود عام 1941 حسب المقاطعات والدوائر		
المقاطعات والدوائر	السكان اليهود		
	الفرنسيون	الأجانب	المجموع
الجزائر	30258	732	30990
المدية	1284	54	1338
مليانة	1367	7	1374
أورلينس فيل (الشلف)	855	5	860
تيزي وزو	179	1	180
وهران	26798	2714	29512
معسكر	3189	175	3364
مستغانم	2868	63	2931
سيدي بلعباس	2971	168	3159
تلمسان	7934	259	8193
تيارت	3179	75	3254
قسنطينة	14099	155	14254
باتنة	1961	17	1978
عنابة	3139	87	3226
بجاية	774	2	776
قالمة	1509	18	1527
فليب فيل (سكيكدة)	665	13	668
سطيف	3152	33	3185
منطقة الجنوب	4330	1785	6115
المجموع العام	110 501	6383	116884

أنصاف جزائريين

- أنصاف عرب -

❶. التمزق

❷. قسنطينة يا بلادي

❸. الكاتون – التريدة والمهراس

❹. كوب الماء

❺. المقدس

❶. التمزق

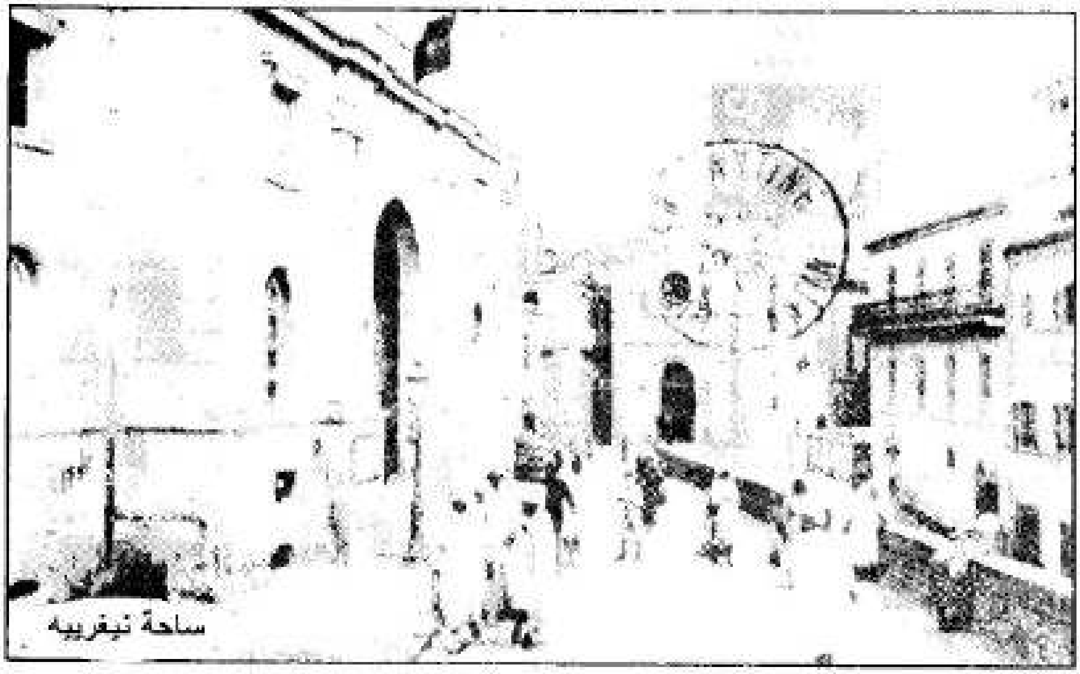
إن اليهود كأنصاف جزائريين وأنصاف فرنسيين ولدوا بتقاليد وعادات وفلكلور بربري وعاشوا بثقافة ومعرفة ومثل عليا فرنسية فهم ينتمون للمجتمع الجزائري كما ينتمون للمجتمع الأوروبي ويشكلون جالية ثالثة ولا يمكن الاعتراض على وجودها.

جالية عقدت الصلة بين المسيحيين والمسلمين، جالية نجحت في إستخلاص حصيلة غنية من تجارب الشرق والغرب.

وفجأة اندلعت حرب الجزائر في نوفمبر 1954، وجاءت لتزعزع هذا التوازن الهش .

فبينما كانت جاليتان تواجهان بعضهما البعض، كانت الجالية اليهودية تتساءل: أي موقف تقفه؟ فهل تسير على خطى إخوانها القدامى وتشارك في الكفاح إلى جانبهم من أجل جزائر مستقلة؟ أم أنها تتذكر لهم أو تجبر على ذلك باسم "فرنسا المحررة" وبالتالي اللحاق بالجهة الأخرى؟ وأخيرا كيف يمكن تجاوز التناقض الذي يزداد افتضاحا يوم بعد يوم ويشكله الانتماء إلى شعبين هما اليوم أعداء؟

فالإلتزام السياسي اليهودي ليس في الحقيقة بالأمر الهين، فحتى وإن تصرف بصفة فردية فتحركاته ستفسر باسم يهوديته، ونفس الأمر بالنسبة لليهودي الجزائري سيترجم في شكل تام، فتأكيد حساسيته اليهودية والمحافظة على جزائريته والبقاء وفيا لفرنسا التي هو "خاضع لها قضائيا وسياسيا واجتماعيا" يعد ضربا من ضروب المخاطرة.



ساحة نيغريبه



حفل ختان بمستغانم عام 1955





سوق الحي اليهودي شارع أوسترليتز في بداية القرن

ففي الفاتح نوفمبر 1954 لما "أدركت الجزائر بكاملها وبدهشة كبيرة" أن سبعين اعتداء تم ارتكابه خلال تلك الليلة، لم يكن شعور اليهود مختلفا عن شعور جميع السكان، فالفلجعة كبيرة، وحتى وإن بدى الإستياء واضحا فإن القلق الحقيقي لم يكن ليظهر بعد.

فكان الحديث آنذاك عن "أحداث" دون التفكير ولو لوهلة أن المسار المشروع فيه سرا خلال خريف السلم الأخير هذا، يحمل في طياته أشد الحروب الإستقلالية دموية.

ومع ذلك سيدرك يهود الجزائر منذ الوهلة الأولى أن "الوضعية" كما كان يحلو للبعض تسميتها بإحتشام ستثقل كاهلهم أكثر من غيرهم وبدت لهم على وجه الخصوص أنها صعبة العيش.

فابتداء من سنة 1956 "طالبت" جبهة التحرير الوطني التي اعتبرت اليهود أبناء هذا البلد على قدم مساواة مع المسلمين بهم "كإخوة جزائريين" وحاولت دمجهم في الحركة الثورية.

وكانت التبريرات المقدمة بهذا الشأن متوفرة لإقناع "المواطنين الأعزاء" كالتذكير بموقف فيشي تجاه اليهود والخطر المحدق بهم نتيجة صعود حركة "بوجاد" وكذلك عودة الفاشية ... وكانت بكاملها تدور دائما حول نفس الفكرة "إحياء الأخوة الجزائرية التي حطمها مجيء الاستعمار" والبناء معا جزائر جديدة "حرة وأخوية حقيقة".

وإن كانت الفكرة قد بقيت دون صدى عند الأغلبية الساحقة من اليهود الذين فضلوا اتباع تعليمات الحذر التي بثها قادة الجالية فإن رسالة جبهة التحرير الوطني أمالت مع ذلك البعض منهم إلى صفها.

فهل كان الدافع هو الشعور العميق بالانتماء إلى الأمة الجزائرية؟ أم التربية والثقافة الخاصة؟ أم الإحساس القريب من إحساس المسلمين؟ فالأسباب الكفيلة بدفع اليهود للالتحاق بصفوف جبهة التحرير الوطني

عديلة، والرغبة "النابعة من أعماق القلب" في البقاء جزائريا كذلك سبب لا يقل أهمية عن غيره من الأسباب.

"فهل نستطيع أن ننكر أسماءنا التي هي في أغلبها أسماء عربية؟ وهل علينا أن نرفض تفهم آبائنا الذين يتمسكون بعادات وتقاليد وموسيقى جزائرية؟

وهل نختار نحن الغربة في بقاع أخرى بينما قبور أسلافنا موجودة بالجزائر؟.

في الحقيقة هناك القليل من اليهود الذين تبنوا قضية جبهة التحرير الوطني، بينما الأغلبية منهم صدموا لمحاولة إلحاقهم بجهة معينة على حساب أبسط أسس احترام الكائن البشري.

فالجالية اليهودية قابلت بالرفض الوصايا التي حاولت جبهة التحرير الوطني فرضها عليها باسم الإيديولوجية وقابلت بنفس الرفض أيضا وصايا الجبهة المتطرفة، لأنه وبكثير من الدهشة أصبح منبوذوا الأمس الذين تحملوا الإهانات ومكائد المعاداة للسامية اليوم "مطلوب ودهم" من نفس هؤلاء الفرنسيين الذين كانوا قبل فترة وجيزة يوجهون لهم الاتهامات.

ولكن اليهود ليسوا بالمغفلين وسيبقون يقظين خلال المراحل الكبرى التي ستعيشها فرنسا خلال ثماني سنوات من الحرب.

فتاريخ 13 ماي 1958 الذي أدخل البلاد في أزمته الوزارية العشرين جعلهم شديدي التحفظ، فلجان الإنقاذ العامة التي برزت في كل أنحاء الجزائر احتاط اليهود منها حتى بعد أن "اتصلت" بهم هذه الأخيرة للانضمام إليها، وتشبثوا بموقف الحذر.

وفي حقيقة الأمر كيف لأشخاص داخل لجان الإنقاذ العامة ذوي ماض مشكوك فيه وغالبا ما عرفوا بعدائهم الشديد للسامية أن يكسبوا ثقتهم ؟ زد

على ذلك لماذا على اليهود أن يتخذوا موقفا متمردا تجاه الجمهورية التي كانوا دائما في خدمتها.

فبعض اليهود دون شك شارك في حركة العصيان، ولكن ولا واحد من التجمعات اليهودية المنظمة دعمتها. فالأمانة تجاه فرنسا تبقى كاملة ونفس هذا الاحترام للشرعية جعلهم يصفقون لديغول عند توليه منصب القيادة في الفاتح جانفي من عام 1958.

فعبارته المدوية "لقد أدركت ما تريدون" التي أطلقها أمام جمهور هائج طمأنتهم هم أيضا. وكما كان الحال بالنسبة للعديد من الأقدام السود فقد بدا شارل ديغول لليهود "أكثر وعيا لتأكيد سياسته، وأكثر نزاهة لتنفيذها وأكثر قوة لإتمامها".

ولكن في أقل من سنتين تطور الوضع بشكل كبير وهز الخطاب عن حق تقرير المصير الذي ألقاه اللواء في سبتمبر 1959 الكثير من الأذهان.

أفلا يكون ديغول هو أيضا مستهترا؟

فالفوضى أصبحت عارمة لدى جميع الأقدام السود ولدى اليهود أيضا، لكن هؤلاء لن يلتحقوا لمجرد هذا السبب بصف المتمردين. صحيح أنه في جانفي 1960 أعلن عدد من الشباب "المتحمسين" عن رغبتهم في الصعود على المتاريس والتلويح بالراية الزرقاء والبيضاء بلون إسرائيل، لكن الأمين العام تدخل باسم اللجنة اليهودية الجزائرية للدراسات الاجتماعية لإقناعهم بالتخلي عن الفكرة قائلا: "يمكنكم فعل ما تريدون بصفة فردية ولكنكم إذا أقدمتم على شيء كهذا بصفتكم يهود، فأنتم ستلزمون كل الجالية بتصرفكم هذا مع ما قد يترتب عنه من أخطار".

فكونها أقلية خاصة ضمن السكان الأوربيين كان على الجالية اليهودية توخي الحذر الكبير واجتناب أن تعرض تصرفات البعض منهم أمن الجميع للخطر. فلجنة اليهود الجزائريين للدراسات الاجتماعية تؤدي بهذا الشأن دورا

ذا أهمية، فمع كونها لسان حال سياسي ليهود الجزائر فهي تعمل على إبقاء روح اليقظة بين اليهود وهي مهمة تؤديها على أتم وجه.

فاللجنة هي التي تتخذ زمام المبادرة في حالة وقوع مشكلة مماثلة وتتدخل لدى السلطات كلما اقتضت الضرورة ذلك وتسعى خاصة إلى الإعلان عن مشاعر الجالية عبر أعمدة الصحيفة الشهرية الإعلامية اليهودية.

ومع تأكدها من أن الرأي المعبر عنه يتفق ورأي أكبر عدد من اليهود إلاّ أن اللجنة لا تنصب نفسها كممثل وحيد لهذه الجالية مادامت هذه الأخيرة غنية بآرائها السياسية المختلفة.

اشتراكيون وشيوعيون وديغوليون ... نجد أن اليهود شاركوا في كل ميولات الحياة السياسية، ولكن وعلى الرغم من إختلاف آرائهم فإن ميلهم بالأحرى كان تحرريا، ولكن دون قبول الكفاح من أجل استقلال الجزائر. ألم يكونوا هم السباقين للمطالبة بمساواة أكبر؟ الأكثر عددا في نضال من أجل ترقية حقيقية للسكان المسلمين؟ إضافة إلى أنه خلال استفتاء أول جانفي 1961 عن حق تقرير المصير ألم تكن أكبر نسبة تصويت "بنعم" لصالح ديغول في مكاتب الاقتراع المنصوبة بالأحياء اليهودية؟.

ولكن شهرا بعد تأزم الوضع وكونهم مستهدفين من جبهة التحرير الوطني التي لامتهم بطريقتها على عدم دعمها ومستهدفين من "الفرنسيين" الذين ضاعفوا تجاههم مظاهر العداء للسامية عانى اليهود كثيرا من الإرهاب.

وأسبوعا بعد أسبوع ازدادت صعوبة فهم ومتابعة ديغول في تصريحاته، فهو تارة يتكلم عن "الجزائر الجزائرية" وتارة يذكر"الدولة الجزائرية السيدة" فهل أصبح الاستقلال أمرا محتوما؟.

إضافة إلى ذلك عاد خوف قديم ليطوف على الساحة ويضاف الخوف الموجود: ماذا لو أنه لحظة الرحيل لم يتم إدماج اليهود في جموع الأوروبيين؟ وماذا لو كان الأمر مثل ما حدث عام 1940 وتقرر فجأة أن اليهود ليسوا

مواطنين بصفة كاملة فهذا الجزء الذي لا يستند في بدايته إلى أي مبرر قوي وجد دافعا له في مارس 1960، فعند نقله بأمانة حديثا دار بينه وبين اللواء ديغول، ذكر غي موليه في صحيفة ديمقراطية 60 "حقوق الجاليات العربية والشاوية والمزابية واليهودية والفرنسية" فكيف يمكن أن يتعلق الأمر بالتمييز بين اليهود والفرنسيين؟ فهل تم الاتفاق مرة أخرى على إلغاء مرسوم كريميو؟.

لقد كانت الصدمة كبيرة على القادة اليهود بالجزائر وعلى الرغم من أن غي موليه عندما ووجه بأسئلتهم وأخذ يتساءل إن كان قد استوعب كلام اللواء فإن المرارة والقلق كانا قد حلا في أوساط الجالية.

فخلال بداية الستينيات وباقتراب نهاية الجزائر الفرنسية بدا الاستقلال أمرا محتوما، وهكذا انتاب القلق اليهود أكثر من غيرهم. فالتحق البعض منهم من الذين فقدوا الأمل بصفوف المنظمة العسكرية السرية بعد انقلاب الجنرالات، أما الأغلبية الباقية منهم فقدمت الاشتراكات وعلّقت الراية الثلاثية الألوان بالنوافذ وشاركت في أيام الطناجر الاحتجاجية ..... ولكنهم بقوا معتدلين وحذرين.

وبدا المستقبل بالأرض الجزائرية للجميع غير مؤكد أكثر فأكثر، مادام لا يمكن تجاوز العراقيل المرتبطة بوجود جالية إسرائيلية بجزائر مستقلة. فكيف يمكن قبول التحول إلى مواطن في دولة عربية قد يكون لها يوما ما موقفا معاديا لإسرائيل؟ وكيف يمكن العيش في بلد سيكون فيه التعريب والأسلمة في جميع المجالات حقيقة وهذا دون التنكر لشخصيته الفرنسية ؟ وفي هذه الحالة كيف يمكنه تأكيد يهوديته؟ ومما لاشك فيه أن الحرب غيرت من هوية يهودي الجزائر ومع يهوديته الراسخة في أعماقه، وكانت الحياة الثقافية آنذاك تعرف ازدهارا لم تشهده من قبل، إلا أنه كان يشعر أنه أقل جزائرية عندما أدرك أن الرابطة التي كانت في السابق بين اليهود والعرب سائرة نحو الزوال وأن انتماءه للفرنسية.

وكباقي السكان لم يعد هناك خيار أمام اليهود، فقد أعلن عن استقلال الجزائر في 5 جويلية 1962 ومع ذلك نصف مليون من الفرنسيين كان قد رحل عنها ومن بين هؤلاء اللاجئين نجد كل اليهود تقريبا. فقد عاشت الجالية اليهودية الحرب كتمزق طويل، ومع أنها تحمل فكرة تحررية في أعماقها إلا أنها رفضت الالتزامات المتطرفة من جزائر مستقلة ومعربة وقضية المنظمة العسكرية السرية وكل سبل الإرهاب .....

ومع ذلك يبقى في أعماق القلوب شعور بالضعف وانطباع في بعض الأحيان أليم لديهم لعدم تمكنهم من تأدية دور وسيط بين عالمين يتواجهان.

❷. قسنطينة يا بلادي

"إنهم يذكرون عن هذه المدينة كما لو كانت فردوسهم ...."

شهادة على وقع المرارة "ما عساني أقول وأية عبارة أختار؟"

هذه افتتاحية إحدى الاعترافات العديدة ليوم كيبور، فكيف يمكننا ألا نستحضرها في الأذهان لحظة ذكر التي لم يعد لها وجود، تلك التي أصبحت اليوم وحيدة على جلمود نسيانها وفي نفس الوقت حاضرة بل قريبة منا عالقة بذواتنا، شاغلة لأذهاننا محتلة لذا كرتنا، هي قسنطينة الواجبة الوجود؟

لم يعد لها اليوم وجود، أورشيلم الشرق، فجدرانها هدمت وطرقها وطئتها أقدام غريبة وبيوتها تعدى على حرمتها محتلون جدد.

فلم تعد، تلك المدينة المقدسة.

ماذا نعرف عن تاريخها؟ في حقيقة الأمر النزر القليل، ويمكننا تصور خلال السيطرة العثمانية، حياة البؤس ظاهرا وموضع الفخر باطنا لجالية ذميين تعد بضعة آلاف من البشر وجدوا المساواة في شعائر دينهم التي لم يسمح لهم بممارستها على أتم وجه في مواجهة الكيد اليومي واحتقار الناس.



بائع متجول يهودي من قسنطينة العديد منهم كان يعبر طرق
الجزائر متنقلا من دوار إلى دوار

ومع ذلك فإن التاريخ، أو الأسطورة، يذكر لنا أنه عام 1837 عندما وصلت فرق اللواء لامورسيير إلى أسوارها الطبيعية وقبل أن تتوغل عنوة إلى داخل المدينة المغتصبة التي كانت إحدى آخر أكبر مدن الجزائر مقاومة للغزاة الفرنسيين قاوم اليهود إلى جانب المسلمين هذا الغزو.

ومثل كثير من أبناء الإسلام سيغادر أبناء إسرائيل مدينتهم التي أصبحت مدنسة بوجود من اعتقد أنه أحضر في حشوده الحضارة متشبثا بصحة ما أقدم عليه ومحتقرا تقاليد عريقة لشعوب ذوي ذاكرة عنيدة. وعند هذه النقطة يجدر بنا أن نذكر بموقف اليهودية الفرنسية الفخورة بتحررها الذي لا يزيد عمره عن خمسين سنة والراغبة بكل دماثة إيصال أنوار الحضارة إلى أهالي هذه الأقطار المظلمة. فهل نفتح اليوم جدالا بشأن أوهام؟ أم نقوم بتوبيخ أشباح ؟ ومع ذلك فإن المبعوثين الإسرائيليين الفرنسيين سيصفون بضمير حي "الحالة الأخلاقية والسياسية لإسرائيلي الجزائر".

وستنتابهم الحيرة بخصوص توفير "وسائل تحسينها" كما يظهر ذلك في تقرير ألتاراس الشهير لسنة 1842.

فلا يمكننا مقاومة الرغبة المحزنة في ذكر بعض الدرر التي تقول الكثير عن وجهة نظر خيرية ستتحول فيما بعد إلى عرقية قبل أن تتخذ شكل الإيديولوجية هنا وهناك في مناطق أخرى، فنجد "أن هناك أعمالا حقيرة تسجل على أخلاق الطبقات الاجتماعية الدنيا وهناك أيضا البؤس الذي هو نتيجة حتمية لوضعية حضارية أكثر تعقيدا وحرب لم تنفك تهزّ جاليتنا منذ اثنا عشرة سنة".

وفيما يتعلق بقسنطينة فقد قدم تقرير للمجتمع الديني بفرنسا عام 1850 يصف الحالة البائسة التي يعيشها حوالي أربعة آلاف يهودي بالمدينة والآفات الأخلاقية المحدقة بالفتيات الشابات الخادمات بالبيوت والحمية الدينية التي تحرك جالية بأكملها فخورة ببيعها التسع، وهنا يستحسن ذكر هذه العبارات: "..... لنتعرف بحقيقة الأمر ولو كانت محزنة، فقسنطينة أكثر انقساما

من مدينة الجزائر أين تبرز العظمة والكرامة المتصلتين للخدمة الدينية من خلال غيابها الكلي ....".

ومع ذلك فإن هؤلاء اليهود بحاجة إلى تعليمهم حب فرنسا وترسيخه في أذهانهم، حب ليسوا بحاجة ماسة إليه في الوقت "فهل يعملون وهل يعترفون بما هم مدينون به لفرنسا مقابل حسن صنيعها معهم؟ ويعترف السيد غوغنهايم بذلك من خلال تصريح يقول فيه " قد لا أستطيع تأكيد الأمر بصفة إيجابية".

وبالتالي يلقى الأمر في هذه الحالة على عاتق الشباب [من أجل الفهم] إذا ما انصبت الجهود على الشرح لهم ودفعهم لفهم هذا الفرق. فهذا الشعور بالفرق اللطيف في أن تدمجك فرنسا، لن يكف عن تدفيع مولدي هذا البلد ثمنه ....

- وبعد نصف قرن وبينما تم تعويض الحاخامات وغيرهم من المقدمين الأصليين بشباب إيلياسيين خرجين جدد من مجمع ميتز بفرنسا المتميزين بأقمصتهم السوداء وأوجه وأطواق بيضاء نجدها غوناور الحاخام الأكبر لقسنطينة يذكر في رسالة وجهها إلى الحاخام الأعظم زادوك كاهن بتاريخ 16 ديسمبر 1901 الحقائق التالية: "أن جروح الطبقة الفقيرة تتمثل عند الرجال في الكسل وإدمان شرب الخمر وعند النساء في الرغبة المفرطة في كسب الحلي ... أما الشابات من النساء فمعظمهن خادمات في البيوت ويستحسن العمل عند غير اليهود، ولكم أن تتصوروا الفساد الذي يترتب عن ذلك.

فخلال هذا الأسبوع أوقفت الشرطة شابات يهوديات في مواخير ... ولكنك إذا حضرت قداس المعبد ودروس التعليم الديني فستشعر بحزن كبير، فمن الوهلة الأولى مصباحان أو ثلاثة بحضور عشرة من الملتزمين، بينما تعج محلات الحلاقين وباعة الخمور بالناس إلى غاية الساعة 10 ...."

ومع ذلك لا يمكننا أن نظلمها في كل الأحوال، فاليهودية بقسنطينة المحصورة في الدائرة الضيقة الوخيمة "للكاشارا" التي أودعها صالح باي ابتداء

من القرن XVIII شهدت انفتاح أبواب التحرر أمامها وأبواب التعليم العمومي على وجه الخصوص، وعرفت صعودا بخطوات عملاقة نحو أعلى السلم الاجتماعي وبلغت قمته خلال جيلين أو ثلاثة.

فلم يضح بأي مبدأ أساسي، بل برزت طريقة جديدة في إثبات يهوديته وتأقلمت مع طريقة أصلية للعيش بالهوية الفرنسية وتجند اليهود في حرب 14 - 18 بدون أي تردد.

وغادر يهود المنطقة القسنطينية حوانيت الحرف التقليدية وعمّروا المصانع والورشات والمكاتب وبعدها بفترة قليلة الكليات، تم اكتشاف هنا وهناك الرأسمالية أو حتى الشيوعية ولكن دون نسيان الطريق المؤدي إلى البيعة.

كما علمتهم روح العداء للسامية لدى الأقدام السود، وهي أشد خساسة من روح العداء لدى سكان الحاضرة، الدفاع عن الذات والتنظيم ولمن علمتهم أيضا وزن أصواتهم الانتخابية التي عرف سياسيون محنكون كيفية استغلالها.

أهالي إسرائيليين :

عندما حدثت في 5 أوت 1934 الفتنة التي أودت بحياة 25 يهوديا واثنين من المسلمين وخلقت عشرات الجرحى وتحطم على إثرها المئات من المحلات. انفتح ذلك اليوم جرح لن يندمل بعد ذلك أبدا وعلى الرغم من أفضل أيام التعايش العميق حقيقة مع الذين كنا- ومن سخرية- التاريخ ندعوهم "الأهالي" مع أننا لا نفرق وضعيتنا عن وضعيتهم شيئا وقد أسرع فيشي شخصيا ليذكرنا بالحقيقة نفسها فإن الجرح كان يقدح دما من جديد ....

وسرعان ما زاد صدع آخر من إضعاف الإيمان بفرنسا الجمهورية والحرة والمتمثلة في صدور قانون أحوال شخصية خاص باليهود وإلغاء مرسوم كريميو الذي نتج عنه طرد يهود الجزائر من المدارس والوظائف العمومية

وكذلك إبعاد الشباب اليهودي البالغ سن التجنيد للمشاركة في الحرب إلى معتقلات الجنوب الجزائري وتحت الحراسة المشددة للفيلق الأجنبي.

وسيحارب ببسالة كل هؤلاء الذين تعرضوا للإقصاء على أرضهم بمجرد أن أعاد لهم ديغول راية أسقطتها أيد فرنسية أكثر نقاوة".

قبل أن يتعرضوا بعد ذلك بقليل بالسخرية لمن خان ثقتهم فيه، ثقة عمياء وضعوها في رجل 18 جوان الذي صرح قائلا: "لقد أدركت ما تريدون" فهل أدركوا هم في أي اتجاه كانت تعصف ريح التاريخ الهوجاء العاتية؟

"ومع ذلك فآباؤنا الأمجاد كانوا يستحقون المشاهدة وهم يشاركون في الحفلات الوطنية عارضين بتبختر ميدالياتهم على صدورهم، وسلاحهم على أطرافهم، مرتدين بدلاتهم العسكرية الأنيقة التابعة للوحدات الإقليمية. ففرنسا لم تكن جديرة بهم هذا كل ما في الأمر".

وماذا لو لم يرحلوا ؟ :

أيتها اليهودية الحميمة للمنطقة القسنطينية التي كانت تعج بها أزقتها وتتفاوت الأصوات بأدعيتها داخل البيع لم يعد لها وجود اليوم فالمنطقة القسنطينية أو "قسنطينة" كما يطلق عليها اليوم هناك أصبحت موطنا للمسلمين فقط، وهذا ما لم يحدث من قبل أبدا وحتى وإن اعتبرت صخرتها منبعًا لروح الإسلام والمقاومة الجزائرية، فقسنطينة كانت في نفس الوقت يهودية ومسلمة وهنا كان يتنافس إسرائيل وإسماعيل في العقيدة.

واليوم لم يبق من قسنطينة اليهود شيء اللهم إلا أضرحة مقبرة معرضة لنهش الرياح والدهر. مراصد منسية وغير نافعة أمام قساوة صحراء النسيان.

وأي أهمية لقسنطينة بدون يهودها؟" وماذا لو لم يرحلوا؟" عبارة أطلقها كاتب جزائري معاصر من النادرين بين أمثاله الذين يذكرون ولم من باب القدح في قسنطينة التي كانت تدوي آنذاك بألف صيحة وضحكة ودمعة والتي كانت تعج بها سوق العسل ليلة الشباط والأعياد.

واليوم لا داعي لتكرار القول بشأنها، فقسنطينة قد محت كل أثر لوجودنا حتى الأدق منه، بل محت حق نعمة الحاننا.

وبقيت الذاكرة الحانية لبعض الشيوخ وبعض النساء والجيران تحتفظ بالأثر ما فتئ يزول يوما بعد يوم للحياة المشتركة والحفلات تحت إيقاع الموسيقى الساحرة والحزينة للمالوف.

وحتى نطرد الشعور الكئيب بالحسرة علينا أن نتذكر مرة أخرى ما كنا عليه من قبل، علينا أن نعيد إلى أذهاننا المنازل المفتوحة على وسط الدار، وسط الحياة الأهم، والأسواق والساحات المتناسقة والصاخبة والمأدبات الدائمة للإحتفال بالحياة وإبعاد شبح الموت وكذلك الطرق الدينية والخيرية الصغيرة التي كانت ترفع شعار "فلتجهل يمناك ما تقدمه يسراك" والمجتمعات الصوفية وقراءة الزهار والمزامير وطواف المنتصر "لسيمحات تاراه" التي تنحني أمامها النساء، ومازالت صورتهن عالقة بذهني، وترسن المواكب البهية بمياه زهر أشجار البرتقال وكذلك الأمسيات الطويلة الجادة للتحالف التي يعلق خلالها عن "ألف بيت" وهو الإقرار الأعظم، الر ي.

ونذكر كذلك مواكب الأطفال الرافعين لأطباق تنوء بهم من الخبز والفطائر وأطواق الحلوى نحو الأفران وألعاب الشارع يوم "بوريم" عندما تتدحرج مربعات النرد بصوتها المكتوم على الأرصفة وموكب "بار ميتسفاح" مول تفيلين "محاطا بحاشيته من اللصوص المتصنعين ولياء البحر منقوشة بدقة على جنبهم والركبتين مخدوشتين جراء المعارك العديدة التي خاضوها" بالبيت المحطم" بشارع غواند أو البعثات الانتحارية إلى وديان رومال.

نعم نستحضر بين أعيننا وللمرة الأخيرة أناقة أمهاتنا وأخواتنا وبنات عمنا اللواتي نتأملهن سرا عندما يحركن سواعدهن الممتلئة ساعة أدائهن رقصة المنديل ويدرن عجوزهن الثقيلة بحركة دائرية بطيئة والتي أودعت فينا وإلى الأبد متطلبا حسيا يجعلنا نهتز اليوم أيضا خلال لقاءات حميمية في حفلات

عرس أو عند سماعنا صرير (آلة) كمنجة سيلفات غروناسيا والد أونريكو ماسياس.

"الشيخ ريمون":

"موسيقى قسنطينة التي هي بمثابة الدعاء لم يعد لها وجود سوى في الأسطوانات العريقة المستعملة حتى الصواف للشيخ ريمون.

فلا وجود لها إلا في صوته الرائع والعجيب الذي ربما كان سببا في مقتله. فهو الراسخ الإيمان المحبوب لدى الجميع والمبارك من الرب والذي سواء دعي للغناء بالعبرية أو العربية استجاب.

كيف لنا أن ننسى هذه الشخصية التي اختارت مكانا وسطا بين التأنق والشناعة، الشبيهة بهيئة "مرلوس" لفترة ما قبل الحرب التي اشتهر بها آباؤنا بقبعاتهم المتقنة الصنع (بورسالينو) والبذلات على المقاس المفصلة مرتين في السنة في "بيساح" و "روش حاشاناح" متذوقين ومنصتين لمقاطع رائعة من ترنمات منشد جيد "ليتحيلم" وشرب الينسون لصبيحة يوم السبت ومستمتعين بمقابلات مساء يوم الأحد.

وحتما فإننا نبدو منزوين على أنفسنا أمام هؤلاء الأبطال الذين اختاروا حياة التواضع "وما عسانا نقول عن جلالة أحبارنا الوحيدين دون غيرهم بالجزائر الذين بقوا أوفياء للباسهم التركي العربي العريق والرائع؟ فهل نقبل اليوم أيضا أكفهم بنفس الخوف والارتعاش اللذان كنا نشعر بهما حين كنا نقبلها ونحن أطفال؟.

"أنا لأحبكم يا يهود ويا قسنطينة، أنتم الذين اعتبركم "إخوانكم في الدين" بالدوائر الجزائرية أو بالأحرى الخاضعين للرهبنة الفرنسية "متوحشين" و"متخلفين".

أحبكم لأنكم لم تخونوا العهد، ولأنكم مازلتم اليوم أيضا تمثلون نكهة المهجر الذي أبعدتم إليه.

أحب الذين مازالوا يحفظون باللهجة التي هذّبناها نحن أبناؤكم على مقاعد الجامعات، أحب تطيراتكم وأحب احتفالاتكم النسكية والتعبدية، أحب ثقتكم في إله بدأنا نحن أبناؤكم ننساه شيئا فشيئا مع أن المسافة بيننا وبينكم ليست بعيدة، هو الذي كان يؤثر على ذواتنا الصغيرة كل قوة وجوده الدائم.

أحب مكابرتكم الراسخة التي تستندون إليها دفء الذاكرة والحياة حتى في مساكنكم المتواضعة بالضاحية في الحفاظ على الفروق الطفيفة لتقاليدنا.

أحب رفضكم صقل تراثنا بمجموعة تقاليد اليهودية الفرنسية المختصرة وأحب وبكلمة جامعة بمجرد أن ينتمي ثلاث قسنطينين لجالية واحدة لا مكان لشعيرة أخرى سوى التي كانت ترفع الأصوات بها قديما في "الصلاة".

أحبكم أنتم يهود قسنطينة لأنكم أورثتموني طريقة أكون بها يهوديا لم تتوفر لدى أي شتات يهودي آخر، فهي مباشرة وواضحة وبدون مغالاة ولا عراقيل ودون جحد أيضا.

ومن هذا المنطلق لا يهم إن كنا متباعدين ولا يهم إن سلبت منا مدينتنا فحيث نحن الآن وكل واحد من موقعه أعدنا بناء قسنطينة بشكل أفضل لقد عظمناها.

فهي بداخلنا وأصبحت أيضا بداخل أبنائنا الذين لن يتذوقوا أبدا طعم بطيخة سرقت من طاولة تاجر غلبه النعاس وعصير عنب مقطوف من كروم بستان "بوليسيا" ولن يقرؤوا بنفس الرهبة المقدسة الخطابات السوداء للأنبياء الأشداء تحت الرطوبة الشديدة لفصل الصيف تحت وقع التوبيخات القلقة للهبر غاستون.

ولن يتفوقوا عبر الحقول والمستنقعات التي تحد منطقة "بيل فو" للمشاركة في معارك ساخرة ضد "عرب" الدواوير، ولن يعرفوا ما معنى الحرب و الفزع في الظلمة في انتظار طويل لعودة أب تأخر في الرجوع إلى

بيت، ربما فوجئ باعتداء ولن يروا أول ميت ملقا عند أقدامهم، وهم الذين اعتقدوا دائما أن سن الطفولة يحميهم من مأساة الكبار غير المفهومة.

ودون شك يشعر هؤلاء في بعض الأمسيات ودائما تحت وقع موسيقى ريمون التي تخترق القلوب وتشجن النفوس عندما كنا نطلق العنان لدموعنا دون خجل بل في سكينة وصفاء، أننا كنا أمراء وراء جدران مدينتنا.

قسنطينة الواجبة الوجود، لقد كانت كذلك أكثر من أي مدينة أخرى وهذا حتى تحتفظ اليهودية الجزائرية المدمجة بالقوة في اليهودية الفرنسية والملحقة بها قلبا وقالبا بشيء من تجذرها العتيق بالأرض الجزائرية ولا تبتعد بسرعة عن ماضيها البربري حتى وإن كان الأمر محتوما.

"إلي فات مات "(كل ماض بعيد) هكذا يقول المثل العربي، لكن الأمر غير مؤكد، فنحن نعلم أن وجودنا القديم في هذه الرقعة سيستمر طويلا وأن نظرتنا ستجوب لفترة أطوال في فراغ المتاهة التي تؤدي إلى سلحة الفطائر، وأن أقدامنا ستبقى تطأ قارعة طريق شارع "كارامان" وشارع فرنسا، كما كنا نعرف تخطيها جيدا بخطانا الواسعة عندما كنا نتبختر في مملكتنا ونحن نرشق بنظراتنا الفتيات المبتهجات.

نحن مازلنا نذكر أناشيدنا وألحاننا والنغمة حية اليوم أكثر من ذي قبل، وهذا هو الأهم عندنا.

فكل جمال قسنطينة اليهودية كان يبرز في هذه اللحظة، فالفجر على وشك البزوغ وشعلة الشموع تترنح ولكن الأعين على الرغم من تعبها مازالت تحتفظ ببريقها.

شيخ ريمون، رجاء تناول عودك من جديد وزدنا طربا، أنشدنا ...".

❸. الكاتون و التريدة والمهراس

إن لوازم الحياة اليومية تظهر من خلال ضرورتها الوظيفية فقط، وعندما لا تدعو الحاجة إليها تبدو وكأنها خرساء أو مجرد أوان للزينة. ولكن

الانتقالات الكبرى تعيد لها صوتها، فتشرع لوازم الحياة اليومية في رواية تاريخ البشر وتتحول بذلك إلى أبطال يصنعون التاريخ.

لقد شهدت البيوت اليهودية بالجزائر مرور وتعاقب الثقافات التي سجلت مرورها على هذه البلاد عبر تاريخها القديم.

فالطرق المعتادة في التحضير واللف والطهي والعجن والغسل والهرس والطحن هي نتاج عالم ثقافي متنوع يماثل عالم الانتاجات الأدبية أو الفنية (الرسم).

فأواني المطبخ تحتل مكانة بارزة في هذه المجموعة من اللوازم الرواية ويعد الكانون أحد أبهاها.

وتقنية استعماله بسيطة وعملية، ففي هذا الفرن الصغير المصنوع من الطين المطهي بأرجله الثلاث توضع جمرات الفحم التي ينفلت دخانها عبر فتحة مقابلة، ثم توضع عليه قدور بها أكلات متباه أو "التفينة" الشباطية لتطهو لساعات طوال.

فتقنية الطهي هذه كانت معروفة في حوض البحر الأبيض المتوسط منذ القدم والرومان حتما كانوا يعرفونها أيضا باسم آخر، بما أن ابيسيوس أشار في دراسته عن فن الطبخ إلى "الترمسبوديوم" وهو موقد يوقد بالجمر يشبه الكانون.

وكلمة "تفنية" التي تشير إلى أكلة كانت تطهى فيما سبق على الكانون وتعني "الدفن" تقترح تقنية قديمة للطهي سابقة للكانون ثلاثي الأرجل وتتمثل في وضع الأغذية النيئة في فرن محفور في الأرض يتم بعدها ملؤه بالجمرات وهي تقنية ما تزال تمارس اليوم في بعض مناطق إفريقيا.

وعلى هذا النحو يمكننا القول أن الكانون أداة "عصرية"، فالبيوت اليهودية كانت تستعمله بكثرة إلى غاية الحرب العالمية الثانية، وكان استعماله شائعا على وجه الخصوص في المدن الصغيرة ولدى العائلات المحرومة من إمكانية الحصول على أجهزة أكثر تطورا.

ثم تواصل استعمال الكانون في طهي أطعمة وأطباق تقليدية "لشاباط" والاحتفالات الكبيرة و"التفنية" و"التريدة" و "المطلوع".

فكان الكانون يشارك في الاحتفال بالأعياد الدينية وكان يشغل تقريبا وعلى وجه الاستثناء كل الفترة المقدسة ويستعمل في تحضير الطبق المقدس.

فمن لا يتذكر هذه الحجرة الصغيرة المجمرة الموضوعة في زاوية من رواق البيت أو الشرفة ويظل حاضرا خلال الأربع والعشرين ساعة لشاباط؟.

بعدها عبر الكانون البحر الأبيض المتوسط، وغالبا ما كان هو و"الكسرة" (الجفنة) وهي آلة تحضير أكلة الكسكسي والمهراس النحاسي حيث تهرس البهارات والكسكاس من أندر اللوازم التي تبعت الإنسان ولزمته في ترحاله. وكان تاريخهم العريق سببا في الاحتفاظ بهم ولكن بعقلية مختلفة عن استعمالهم الابتدائي فقد أصبحت هذه الأواني عبارة عن شعار. لقد كان "الكانون" الذي استعمله اليهود بالجزائر جزءًا من العالم الثقافي لبلاد المغرب التي ساهمت فيه العائلات اليهودية بشكل كبير. وكونه يحمل اسما عربيا إلى غاية اليوم ويتم استعماله حسب تقنيات الموطن الأصلي فإنه يجسد تلك الوحدة الثقافية اليهودية العربية مثله مثل مجموعة أخرى من الأدوات ذات الاستعمال اليومي كعلب تبغ العطوس و"الدربوكة" المودعة في خزانة الأمتعة الواسعة في انتظار حفل الزواج المقبل لاستعمالها والتي كانت دليلا على انتماء اليهود التلقائي في حركتهم للثقافة المحلية.

وإلى جانب مجموعة الأدوات هذه ذات الاستعمال اليومي هناك اللوازم المقدسة للبيت "كاليزوزوت" التي تعلق على أطر الأبواب وكذلك قنديل "شاباط" المنزلي الصنع والمتمثل في كوب يملأ ثلثاه ماء والثلث الآخر زيتا يطوف على سطحه فتيل يشتغل فهذه اللوازم ذات الاستعمال الديني المحض ألحق بها الكانون مؤخرا ودوّن في السجل المقدس إلى جانب الطاجين وغيره كالكسرة التي اقتصر استعمالها اليوم على صناعة أطباق تستهلك خلال الأعياد.

فهذه الأدوات عنوان زمن وطقوس دينية وبركات وإشارات تحدد الهوية الاجتماعية والثقافية فهي ترسم وتيرة الحركات وتحدد شكل الأوضاع.

ومن بين مظاهر التأقلم مع العالم الثقافي الغربي نجد التغيرات التي حدثت على مستوى العالم المادي ليهود الجزائر وأثرت أيضا على وضعية الجسد.

فاستعمال الكانون يتطلب وضعية جالسة لذلك كان يرتبط وجوده ولمدة طويلة بوجود المقعد المنخفض المستطيل الشكل الذي تستعمله النساء عند طهي أطعمتهن مع تحريك "المروحا" وهي المروحة المستعملة لتسعير لهيب الجمر لزيادة الحرارة المنبعثة منه.

فالأواني لا تعرف الكذب، فهي تقدم المعنى كاملا، فلا شيء تسهو عنه ولا حتى التناقضات والتمزقات الجلية لتاريخ تتنازعه عدة لغات.

البيت اليهودي :

لم يكن بجزائر القرن XX "منزل يهودي" يجسد الشكل النموذجي للبيت اليهودي، فهذا الأخير كان يشهد توزيعا متدرجا للعائلات ضمن التسلسل الاجتماعي.

فيهود الأوساط الشعبية، الحرفيون منهم والتجار الصغار والموظفون البسطاء والعمال كانوا يقطنون عامة في أحياء يغلب عليها السكن الجماعي ونجد ذلك على وجه الخصوص في المدن الصغيرة والمتوسطة للمناطق الداخلية للبلاد كسطيف وتلمسان وعنابة وجلفة وعين تموشنت ... ففي البيوت ذات الطابع الأندلسيّ لهذه الأحياء كان تسلسل الغرف التي تتعايش بها عدة عائلات يحيط بالساحة الداخلية.

هذا هو إذا شكل سكن حضري تعيش تحت سقفه عائلات يهودية غالبا ما تتقاسم حياتها الأسرية مع عائلات مسلمة من نفس الطبقة الاجتماعية بحيث لا يحمي الخصوصيات العائلية سوى ستار خفيف يفصل الغرف عن بعضها البعض.

وكان الباب الخارجي هو الباب الوحيد للدار فإذا أغلق حجب أهلها الموزعين حول الساحة عن أنظار الغرباء. لذلك كانت الساحة مركزا ومسرحا لأهم الأعمال المنزلية الجماعية، فالنسوة يدعكن الغسيل جنبا إلى جنب ويحضّرن مخابز أزيم لمناسبة "بيساح" (قبل أن ينتقل خبزه إلى المخابز الصناعية) وتهرسن البهارات مجتمعات.

وإذا فرغن من هذه الأعمال يلتقين للحديث والراحة ويجلسن على مقاعدهن المنخفضة وفناجين القهوة بين أيديهن.

بوسط الدار كانت الساحة تجمع وتجسد الروح الجماعية والأعمال المشتركة.

ولا يحتوي هذا النوع من البيوت إلا على طابق واحد، وهنا بهذا الطابق على طول الغرف كانت الشرفة مسرحا للقاءات حميمة متشابهة كعلبة الورق وروايات لقصص شعبية.

فقد كان الحاضر الدائم على الشرفة وخلال الأمسيات الرطبة للصيف "أدجحا "(جحا) بطل الروايات الخيالية الشعبية.

أما خلال فصل الشتاء فكانت نفس الشرفة تستغل لرص أحواض من مادة الميناء المملوءة بالخضر والفواكه الأخرى الجافة المحفوظة في الجو البارد.

وضمن هذه الأعمال المنزلية الجماعية أو بالأحرى الشعبية كان من الصعب على الأسرار الجسدية أن تتأقلم مع هذا التجاوز الحي.

فالإقامة في شقق فردية متيسر فقط بعد التدرج في السلم الاجتماعي حيث يمكن الغسل يوميا لكامل الجسد بعد الاعتزال في غرفة حمام تحتوي على حوض حمام ومرحاض أو مرش.

ولكن الأمر مختلف تماما في السكن الجماعي حيث يتم تغسيل الأطفال وغسل الأطراف "البارزة" من الجسد في زاوية من المطبخ.

وكانت الزيارة الأسبوعية للحمام تسمح بإتمام الغسل المختصر الذي تم في البيت في مساحة ضيقة لحوض.

وفي هذا الجو العائلي أين لا تدع أية مساحة مجالا للفردية الجسدية كانت الأسطح المشمسة تتيح منظرا ملونا لعرض الفلفل وأنواع الخضر الأخرى للتجفيف بالقرب من الألبسة الداخلية المغسولة والمنشورة هنا والتي لا يدرك حدودها العائلية سوى متعود على هذه الطقوس الأسبوعية الطهارة.

إلا أن المسافة اختصرت بسرعة بين الدعك اليدوي والغسالة التي بدأت تدخل تدريجيا إلى البيوت خلال الخمسينيات وهذا بعد الصعود شيئا فشيئا في السلم الاجتماعي.

وكان الأثر الرئيسي للارتقاء الاجتماعي ليهود الجزائر وسط القرن XX اتخاذ الحياة العائلية طابع الفردية والخصوصية.

ففي الثلاجة التي سجلت حضورها أيضا في البيوت تم كذلك تجميد المبادلات الاجتماعية.

الأعياد والأفراح :

في سماء زرقاء صافية ارتخى غطاء الذكريات فبرزت فجأة صور وذكريات بعيدة ليهوديات الجزائر.

فإثارة هذه الذكريات عبر شهاداتهن الحقيقية والأخاذة التي لا يتخللها شك هي بالنسبة للأجيال القادمة نقطة حاسمة لتجديد العهد بتقليد عريق والمتمثل في تناقل الموروث الثقافي الذي ورثته الأمهات الحاليات عن السابقات وستورثه للاحقات.

فهذا الأثر المكتوب يدل دلالة واضحة على أن تاريخ هذه النسوة يضرب بأعماقه في ذكرياتهن الحيّة.

وبذكرهن تعود إلى أذهاننا نظراتهن وأيديهن وأصواتهن ... هذه النظرات التي تكاد تكون حية وإرادية في بعض الأحيان وهذه الأيدي التي لا تكاد تتوقف عن النشاط تقريبا وهذه الأصوات الجهورية والرخيمة في آن واحد، الزاجرة تارة والشعبية تارة أخرى تنسق بين الحركات وتعابير الوجه.

فتذكر هذه النسوة لماضيهن لا يكاد يخلو من التأثر حتى وإن أخذت الرواية طابع الهزل أو السخرية أحيانا وأغلبهن يتذكرن حياتهن هناك بعطف شديد وحنين.

ودون شك أن هذه النسوة أحسسن بالسعادة لتمكنهن من إخراج هذه الصور والذكريات من براثن النسيان وبعث هذه المشاعر التي غطاها الزمن أو أضعفها.









عند الخروج من "ميكبي" غطت الشابة رأسها بفوطة من الحرير وردية اللون وهي تمسك بين يديها طاسة، وعند رجليها صحون" حمام أخرى ومحبس (إناء الحمام)

إن أول ما يلفت الإنتباه في هذا المجال هو العيد بمعناه الواسع بموكبه البهي ووفرته وبألوانه وأطباقه المتنوعة والخاصة وبموسيقاه وعطوره.

والعيد أيضا هو تلك الحركة الكثيرة والمكثفة السابقة له التي يشهدها التحضير الجماعي والحماسي لاستقباله وأحيائه.

وهو أيضا العائلة والتضامن والقبيلة، فالجماعة برمتها تتجند لذلك وتحتل المرأة ضمن هذا الجمع مكانة هامة، فهي تنظم وتحضر وتساعد وتسدل النصح.

ولا يترك أي تفصيل من هذه التظاهرة السعيدة للصدفة فحتى الخياطة تستقدم إلى البيت لتفصيل الملابس الجديدة التي سترتدى بهذه المناسبة.

فوتيرة الاحتفالات تتأكد بالولادات (بريتميلا للأبناء) و (بار - ميتسفاح للبنات مع أن هذه الأخيرة كانت قليلة الإنتشار) والخطوبة والزواج ولكنها تتعدد أيضا بالأعياد الدينية التي يتم إحياؤها في جميع العائلات تقريبا (سواء كانت شديدة التقيد بالتعاليم الدينية أم لا) "كيوم كيبور" و"بيساح" و "بوريم".

فهي الأعياد الثلاثة الكبرى التي تذكرها هذه النساء على وجه التفضيل، "فيوم كيبور" يرتبط في ذاكرتهن بذبح الحاخام للدجاج و "بيساح" بعملية التنظيف الكبيرة للبيت و "النفس"، أما "بوريم" فله علاقة بعادة تبادل الحلوى السنوي بهذه المناسبة.

فهذه التقاليد والمعتقدات المنقولة شفويا تدعمها علة أمثال وأقوال كثيرا ما كان لفظها عربيا مثل "لعميرة" (نفسي) و "نابيس" (أتحمل ألمك) و "كابارا" (أموت من أجلك).

وهذه النسوة اللواتي أصبح أغلبهن اليوم جدات يندهشن لتمكنهن من الاحتفاظ في كلامهن اليومي بتعابير وأمثال موطنهن الأول هناك...

وهذا الماضي المطبوع بالجمال والرقة والأفراح على الرغم من ظروفهن الصعبة كربات بيوت يحتوي جانبا مظلما يتعلق بالمحظورات والممنوعات الخاصة بالحياة الجنسية وحق الأمومة.

وبذكرهن لماضيهن فهن يتذكرن حياءهن الكبير الذي ربما يتحسرن عليه اليوم.

❹. كوب الماء

هناك من المسائل ما لا نسأل أنفسنا عن سرها ولا يتبادر إلى ذهن أحد منا الاستفسار عنها. هذا ما في الأمر. فهذه الإجابة استوفت منذ زمن بعيد حاجة السؤال.

ولم يكن الأمر بالقوة بل كان جد طبيعيا وهو جواب تم تناقله عبر قرون بحكم العادة والاطمئنان لأنه لم يكن بوسع أحد إيجاد جواب آخر لسؤال مفرغ من محتواه: "هكذا هو الأمر وهكذا كان دائما !".

ونفس الحكم ينطبق على قصة كوب الماء المسكوب لحظة الرحيل. "ففي كل مرة تقرر الرحيل لبعض الوقت إلى جهة معينة، يجب أن يلقي أحد على آثارك كوب الماء".

هكذا تحولت الحركة إلى عادة واستمر العمل بها، ففي كل مرة وخلال مناسبة مماثلة تقام العادة بنفس الطريقة وبكل بساطة، فساعة الرحيل يتقدم أحد الأشخاص وغالبا ما تكون الأم وتلقي بكوب الماء، هكذا كان الأمر دائما واستمر على هذه الحال. إلا أنه في بعض الأحيان تعترينا رغبة في فهم المقصود من وراء هذه الحركة: "وضعت له والدته قدمه حافية على عتبة البيت ورشتها ببعض الماء وقالت له [هذا حتى تتذكر قدمك هذه العتبة وتعود بك إليها]".

والاعتقاد المشترك هو أن كوب الماء له علاقة بالذاكرة والبركة وربما أشياء أخرى...

وذاك الذي كان يردد: "في كل لحظة من لحظات رحيلي وبينما أتخطى السلم نزولا ستلقي خلفي محتوى إبريق ماء، إنها عادة الغاية منها إعادة الشخص العزيز وهي شائعة لدى الشعوب اللاتينية والبربرية ولكن لا أحد استطاع أن يكتشف لي عن أصلها".

وبقي أصلها مجهولا عندنا وعند غيرنا، اللهم إلا بعض الاقتراحات لتقريب معنى هذه العادة وتذوق قصة "كوب الماء" ....

- كوب الماء لحظة رحيلك ؟ لضمان عودتك، لنتأكد من ذلك إنه مجرد اطمئنان.

- وكل مرة يرحل شخص إلى وجهة بعيدة ولفترة طويلة علينا أن نلقي في آثره كوب ماء.

- نعم، بهذه الطريقة نتأكد من عودته ويتأكد هو أيضا... فالماء المنثور على آثار أقدام الشخص العزيز ينشيء رابطة وثيقة لا يمكن فصلها.

- ولماذا الماء بالتحديد وليس ورودا أو حفنة دقيق مثلا؟

- إن الماء هنا يرمز للبحر في حركة أمواجه الدورية، فهي تعود دائما بعد رحيلها، وهي كذلك بعد تبخرها تعود للظهور وبالتالي رش الماء على آثار أقدامك يضمن عودتك يوما ما إلى موطنك الأصلي.

فكوب الماء هذا هو البحر الذي سيعيدك والحريص على سداد خطاك والمرفق وحاميك مثله مثل البحر الذي انفلق يوما ما لأجدادنا ثم عاد إلى مكانته الأولى على أعقابهم فضمن سيرهم قدما وضمن لهم النجاة.

وكوب الماء هذا هو حافة طريقك وبإلقائه يُنارُ لك الطريق من الوهلة الأولى وتوسع آفاقها ويتم ضمانها أمامك ومن خلفك كوب الماء هذا هو العودة مقدار ما هو السير قدما قدر المستطاع في هذه الحياة إنه الضمان لحرية حركتك وسلاستها ويسرها إنه صفاء خطواتك المؤكد أنه حيويتها.

ألا يبعث الماء الذي يسقي الأرض الحياة فيها، أو ليست قاعدة الإنسان "نبات" أيضا؟

فهذا الماء بمثابة الوحي، فهو يرشد خطاه ويضمن تواصلها، وقبل ذلك هو خلاصة من كل قيد، فهو إشارة وتوقيع وختم رفيع يختم به سطح الأرض بحركة فجائية ومفتوحة كما يختم الحلف المبرم.

فهو شاهد على تلك اللحظة التي تخطو فيها الخطوة الأولى ويثبتها كما يقال عند الحديث عن الصورة.

فالحركة نفسها أي إلقاء كوب الماء تتم بنفس سرعة وميض آلة التصوير وتطبق نفس المبدأ خلال هنيهة تسلب من الزمن لاتخاذ أحسن إجراء وضمان دوامه.

فهذه الحركة يجب تصورها أثناء أدائها فهي ليست إحتفالا بل حركة، حركة في غاية البساطة والعظمة الحقة، حركة مجردة وسمعاء في نفس الوقت (فالمكلف بالحركة يأخذ مسافته ليلقى كوب الماء)، فبساطتها تضاهي سحرها. إنها فضائل الماء نفسها ... صحيح أننا قد نميل إلى الورد والدقيق لكن إختيار الماء كان أمرا بديهيا.

- وصحيح أن الحركة قد توافق المعاني التي قد تحملها إياها ولكن من بإمكانه تأكيد أثرها؟

- ويمكننا أن نعد خيبات أملنا نسينا أن نلقي عليهم كوب الماء أو من شعر بسلبه من ذويه وللأبد ... لأنه خرج قبل الأوان ودون علم ذويه (ويوم جمعة أيضا).

ولكن حري بك أن تسمع من قال: "في يوم من الأيام بينما قررت الرحيل بعيدا وقفت أمي بفناء الطابق تراقب خطواتي وفي اللحظة التي اعتقدت أنني دخلت غرفة المصعد ألقت باتجاهي كوب الماء بينما استدرت أنا نحوها لتحيتها لآخر مرة، فاستقبلت الماء بوجهي فتبللت صدقني لم أر في حياتي عودة أسرع من عودتي، كانت مباشرة نحو البيت.

- صحيح أنا متأكد من ذلك .. ولكن قل لي عندما يغادر آخر فرد من أفراد العائلة البيت فمن يقتفي آثاره ليلقي وراءه بكوب الماء؟.

- اعلم أنه يجوز تلقين الجيران ذلك.

[المكبي والفوطة والطاسة] :

كثيرا ما كان الاحتفال بالزواج ينطلق بعادة نسوية تجمع حول الخطيبة قريناتها اللواتي بلغن سن الزواج، فكن يجتمعن "بالمكبي" (حمام طقسي) ويكشفن عن أمنياتهن لعرسهن المقبل.

وخلال هذه المرحلة التمهيدية أيضا كان يتم عرض جهاز الخطيبة لحماتها، فتعرض هنا كل ما سيستعمل كمتاع شخصي للعروس المقبلة من

ألبسة وألبسة داخلية لكل فصل وأفرشة منزلية طرّزتها بنفسها ووضعت عليها الأحرف الأولى من اسمها والحلي المتوارثة جلة عن أم وكانت تعرض أيضا الأواني التي لا غنى عنها خلال الاستحمام الطقسي كالفوطة وغيرها من "أثواب الحمام" المطرّزة والمحبس (حوض) والطاسة المستعملة في نضح الماء على الجسد في الحمام وعلبة الصابون والعطور، وأخيرا مجموعة الأواني النحاسية المتكونة من صينيات ومهاريس ... إلخ.

وخلال عرض الجهاز تكلف "مختصة" غالبا ما تكون خطّابة هي أيضا، بتقييم هذا الأخير ويمكنها أن تتحصل على تعويض بقطع نقدية معتبرة في حالة ما إذا زادت بحذاقة من قيمة الجهاز، لأن هذه القيمة تسمح لعائلة الخطيب من تقدير الوضع الاجتماعي للعروس وقدرتها على عدم "تكليف زوجها المستقبلي الكثير".

ويختتم التقييم مبدئيا بتناول حلويات تكون رطابتها بشارة خير لمستقبل الوحدة الموثوقة بين العريسين.

وبعدها يشرع في احتفالات الزواج المعروفة وترافقها عادة "الحناء" المشار إليها من قبل، فتحمل عائلة الخطيب سلة للخطيبة تحتوي على الحلوى الملبسة والعطور والحلي وعدة أزواج من الأخفية كرمز لتخطي عتبة بيت الزوجية.

وكما جرت العادة لدى جاليات يهودية عربية أخرى، فإن عادة الحناء التي تعرف أيضا باسم " تانيا " بقسنطينة كانت فرصة لذكر بعض الأدعية والبشارات التي تحفظ العروسين وهذا عند تخضيب كفي العروس بالحناء.

ويعتقد أن لهذه النبتة فضائل سحرية خيرة وبركة.

ولكي يرمز للرباط بين الخطيبة وعائلتها الجديدة توضع في رحى كف الزوجة المقبلة بباطن عجينة الحناء قطعة ذهبية تربط بغطاء رأس تمنحها لها والدة الخطيب.

فعادة الحناء التي تقام عادة يوم الأربعاء أو الخميس مساء كانت فرصة لا بتهاج موسيقي وغذائي حيث تقدم وجبة الكسكسي ولحوم مشوية وحلويات مرفوقة بألحان فرق موسيقية محلية.

وكانت الخطيبة تكسى "قندورة" (فستانا) وردية ثم فستانا أبيضا لإحياء الزواج المدني في نفس اليوم.

ونجد أن اللون الأبيض الذي هو لون مأتمي في التقاليد العبرية كان وراء إدخاله على عادات الزواج الفكر الغربي، بينما كانت فساتين العروس في السابق زاهية الألوان.

تخصص بعض العائلات صبيحة اليوم الموالي - يوم الجمعة عادة - لعادة رائعة تدعى "مزرح" بالمنطقة القسنطينية وتتمثل في خروج العروس إلى غابة مجاورة حيث يرافقها أقاربها في خروجها.

أما نهاية الأسبوع فتخصص للاحتفالات الدينية المحضة ويوم الجمعة بعد الزوال قبل "شاباط" يرافق الخطيبة إلى الحمام الطقسي أقاربها وكذلك حماتها المقبلة وبعض أهلها من النساء.

وخلال حمام التزكية "تأبيلا" يكون تناول الحلويات فرصة لتعريف المزكاة بالسلوك المطلوب منها في بيت الزوجية.

وتشهد نهاية الشباط الزواجي شعيرة تبريك العروس وفي مساء يوم السبت يضفي طابع القداسة على العهد الذي التزمت به العائلتان.

وتتخذ الخاتمة هذه في الأعراس القسنطينية شكل حركة رمزية تتمثل في مدّ أب العروس لسرادق مرتجل - وفي بعض الأحيان مجرد خرقة فوق رأس ابنته.

وأخيرا يكون الاحتفال الديني بالزواج يوم الأحد، أول أيام الأسبوع العبري وتمنح الطقوس ذات المصادر المختلفة بركة البيعة فيلتقي الجميع بعدها حول مأدبة كبيرة. ولكن هذا الاحتفال الديني استبدل اليوم بلحتفال دنيوي بحت.

❺. المقدس

لقد عاش الرجل اليهودي خلال قرون عدة حياة طبعها حبوٌ من التدين المفرط والاستقامة الشديدة.

وقد أثر هذا التدين المفرط على كل تصرفات حياته اليومية، - في البيعة موضع صلاته التي يتوجه إليها ثلاث مرات في اليوم والموجودة غالبا في بيته ويتفرد للصلاة الطقسية ودراسة الزهار والتلمود والإنجيل، ويخصص به وقتا للاغتسال المقدس.

- ويظهر الأثر أيضا بالبيت من خلال الطقوس الغذائية واستراحة شاباط وإحياء الأعياد والمناسبات العامة كالزواج والولادة ...

- وأخيرا عن طريق المراجع الثابتة للتاريخ اليهودي وللإنجيل وللعودة المنتظرة إلى الأرض المقدسة (وهي الفكرة التي نجدها أيضا في ألعاب الأطفال).

وبكل هذه التصرفات نجده نظم وقنن عالمه ورسم حدود حاضره وماضيه ومستقبله ووضع إطارات مرجعية ثابتة هي دينية وإجتماعية في نفس الوقت.

وضمن جو هذه الثقافة فإن كل تصرف ديني هو في أول الأمر جماعي، ويمكننا أن نؤكد أن اليهودي المتدين يعيش داخل ثلاث حلقات:

- الأولى حلقة علاقاته مع العالم العلوي والقوى فوق الطبيعية، سواء تعلق الأمر بالدين أو بمعتقداته السحرية.
- الثانية حلقة حقوقه و التزاماته تجاه الجماعة.
- الثالثة حلقة حقوقه والتزاماته تجاه عائلته.

وهكذا نجد أن كل عالمه وهويته محصوران في هذه الحلقات الثلاث، ألا وهي: الدين والجماعة والعائلة.

وتمنح الأسبقية للتعاليم الدينية والطقوس على حساب الذاتية والأسبقية للجماعة على الفرد وكذلك الأسبقية للمصلحة العامة على المصلحة الشخصية.

.... والحرام :

إن كلمة "خرام" التي تعني حرفيا "الخطيئة" وبمفهوم واسع "الممنوع إتيانه" تمثل بصفة عامة كل ما يمس العفة سواء على مستوى العائلة أو الطاولة أو الجسد.

فالقانون الديني يأمر بإحترام هذه العفة بكثير من الصرامة.

والأمر كذلك بالإبتعاد عن الاتصال النجس وعدم خلطة بالشعب لأنه رجس يقترف في حق الله.

وإن لم يحترم هذا المنع فلن يقتصر أثره على تدنيس الفرد فحسب بل قد يتعداه إلى الجماعة بأسرها.

فالممنوع لدى يهودي شمال إفريقيا له بعد جسدي وحسي للعفة والدس ويخص كذلك المرأة بما أنها حافظة للبيت والتقاليد من جهة ولكون جسدها يدنسه دم الحيض بانتظام من جهة أخرى.

ويظهر هذا البعد من خلال الأهمية التي تحضى بها الطقوس وهي طقوس طهارة هدفها القضاء على كل دنس عالق بالجسد _ حمام طقسي أو "ميخفي" الذي تنظمه قواعد العفة العائلية أو النيدا وكذا مختلف صور الصيام).

حالة النيدا

يكون الكلام عن "النيدا" عندما يحدث نزف (حيض أو غيره) بالرحم وينقل الدم منه نحو قناة المهبل.

فهذه الحالة تدخل ضمن قوانين العفة العائلية التي تنص عليها العقيدة اليهودية والمطبقة بصرامة بين أفراد الجالية اليهودية لإفريقيا الشمالية.

هذه القوانين تخص الطهارة الدينية المتعلقة بالعادة الشهرية والحمل والولادة أي الحياة الجنسية للمرأة.

وتعني كلمة "نيدا" المنفصلة، وقد قننت التوراة خلال الانفصال تصرف الزوجين وعلاقتهما ببعضها البعض بحيث يمتنعان عن كل اتصال جنسي ولا تكون بينهما تصرفات حميمية ولا اتصالات صميمية.

ويفرض هذا التصرف على المرأة النوم على سرير منفصل عن سرير زوجها واجتناب كل اتصال جسدي حتى خلال النهار وعليها أن تضع على الطاولة حين تناول الطعام أداة تذكر الاثنين أن الوجبة غير حميمية وبالتالي يمتنع عن الأكل في صحن واحد والشرب من كوب واحد أيضا ويوضع على الطاولة متاع شخصي يكاد لا يرى ويكون نوعا ما بمثابة إشارة تواطؤ كشمعدان صغير ينقل مثلا من مكان إلى آخر من الطاولة.

ويجتنب أيضا الجلوس جنبا إلى جنب وأخيرا يمنع الجلوس على سرير الزوجة حتى وإن كانت غائبة.



طقوس ذبح الدجاج لاحتفال "كابارا" لعيد "كيبور"



الساحة الداخلية لمنزل يهودي ببسكرة

الخاتمة

أخيرا تجلت الأمور ووقع ستار الخجل.

فلنكتب التاريخ ولنذكر الأحداث حتى نتمكن من الاطلاع والفهم والحب والرفض وحتى التشكيك.

ومن خلال ملامح تاريخية نجد أن اليهود قد وقفوا موقفا معا كما لموقف الأقدام السود، فهم لم يفروا: إنهم متسترون، إنهم موجودون بيننا، فنحن نعثر عليهم من خلال تساؤلاتنا فقد يكون لنا أصدقاء مشتركون من اليهود ولكننا قد نجهل ذلك، فعائلاتهم أعادت تشكيل نفسها على شكل شتات.

صحيح أن الخلية الاجتماعية اليهودية تسير بطريقة تختلف عن طريقة تسيير خليتنا الاجتماعية وهذا بسبب الأثر الخاص للدين، لذلك نجد أن اليهودي يجب "اقتراحه" وتمثيله في صورة مجتمعة السري، هذا المجتمع الذي يشبه الماسونية.

وقرونا بعد ذلك انصهر اليهود في المجتمع الجزائري، ولو نظرنا عن قرب إلى التأثير اليهودي الفرنسي في منح الألقاب لوجدنا أثرا لهذا الانصهار "فقد جاء في فلسفة المستعمر أن تشكيل الحالة المدنية هو عمل يهدف من ورائه إلى إسقاط الجنسية، والمصلحة كل المصلحة كانت في تحضير أرضية الصهر، بمعنى آخر فرنسة بكل جرأة أسماء عائلات الأهالي لتشجيع الزواج المختلط".

لقد وفر الإسلام ببلاد المغرب كمصدر لمسار واسع لإبداع أسماء الإعلام مخزونا كبيرا من هذه الأسماء تحمل في غالبيتها الطابع الديني كالرحمان (الذي يرحم) والقدير (صاحب القدرة الكاملة) والجبار (صاحب القوة والقدرة) ...

وفي الجهة المقابلة أحدثت الفرنسة التهويدية كوارث كبيرة ويعتمد لتحقيق هذا الهدف أيضا على الكتاب المقدس للتمكن من إسقاط الجنسية ونذكر في هذا الصدد على سبيل المثال بعض الأسماء التي تعرضت للتحريف فنجد:

أحمد - أميدي، خميس - كاميل، باكر - ألبير، بن عمار - برنار، شارل - شارل، لحسن - لنسل، مريم - ماري - ماريان، جنات - جانيت - معول - مرسيل، جدّي - جادي، نعيمة - ناأومي، عثمان - أومونت - أومانت - فريدي - فريداي، راينة - رين، سليمان - سيمون، تومي - توماس، قاسي - كاسيس، ليلى - ليلي - ليليا، شادلية - شاتال، موسى - موريس - مراد - موري - مورين، حالو - هيلي، علجة - إيليز، فرج - الفريد، هني - هنري، رمضان - ريموند، صغير - بوتي.

"يعبر اللقب في الاعتقاد التوراتي عن جانب من ذات الشخص، وإسم من أسماء الله مرادف للذات الإلهية" فهذه الدراسة التي صدرت بيومية الوطن بتاريخ 13 جانفي 1999 تحدد بالتدقيق مستوى التدخل الذي يجب أن يؤخذ بكل جدية بعين الاعتبار.

ومرة أخرى نؤكد بإصرار على الفرق بين اليهودي والصهيوني حتى لا يكون الخلط بينهما، ومشكلته العميقة تجد مصدرها في هذا التساؤل، لأن اليهودي قبل سنة 1962 لم يحدث مشكلة في المجتمع الجزائري، وقبل 1967 كان الحديث عن اليهود دون أي اندفاع، ولكن فكرة الجامعة العربية التي كانت وليدة الإنهزامات الأليمة للجيوش العربية في فلسطين كان لها بعد 1967 أثر سلبي فضيع على الذهنيات.

ففكرة الجامعة العربية تولد عنها تطرف نحن ندفع ثمنه اليوم غاليا، فسار المجتمع دون مراحل انتقالية، فانتقلنا من الشعور بالألم إلى العنف دون أن نعرف السبب في أغلب الأحيان فالشباب يرددون عبارة "عادي" عندما يتعلق الأمر بظواهر تبدو لنا غريبة.

لكن هذا الوضع يجب أن لا ينسينا من جهة أخرى أن العديد من اليهود حاولوا تدمير الجزائر، ذاكرتنا يجب أن تبقى حية عندما يتعلق الأمر بـ: جاك لازاروس وإبراهيم دانينوس وجيرمن بن حمو وإيدموند فرج.

ومن أجل فهم أفضل للتاريخ يجب عدم التحكم للأهواء وقراءة وسماع بن يمين سطورا المتحدث الرسمي باسم التاريخ الجزائري أو القراءة للكتاب ريشارعيون.

وعند ما نلقي نظرة على المخطوطات نجد من الأجدر والأنفع تسجيل العدد الهام لما حرر من مذكرات بخصوص الجزائر.

كتلك الروايات عن حملة مدينة الجزائر لسنة 1830 التي دونها شخصيات تحمل ألقابا أو شغلت منصبا في الجيش الذي قاد هذه الحملة، وفي هذا الصدد مراسلات إلى مؤرخ وصفي للبحرية الفرنسية من ضباط أو ملاحين بسطاء نذكر منها مثالين:

- رواية 4 جويلية 1830: "نحن ننتظر في هذا المكان قدوم اليهود فهم يقولون عن أنفسهم أنهم ضحايا استبداد الداي، إنهم أناس يجب إعالتهم من خزينة الدولة".

في هذه الرواية كما نلاحظ يستعمل اليهود فن المراوغة ويحوّلون بعض الصعوبة في المعيشة إلى بؤس وحرمان كبيرين فهم دائما الفقراء، المستبد بهم، الضعفاء والمضطهدين.

- ورواية 26 أوت 1830 جاء فيها: "اليهود هم من كان وراء عمليات النهب التي حدثت في الأيام الأولى من الاحتلال، فكانوا يسكّرون الجنود ثم يدلونهم على الأشياء التي عليهم سرقتها والتي يشترونها منهم على الفور".

في هذه الرسالة الثانية يبرز وجه آخر من الحيلة والخداع والمهارة في التجارة.

ومع كل هذا فإن النص التالي ليهودي هو الذي حرك شجون اليهود والجالية اليهودية تجاه هذه الأرض، فاليهودي يقول في ندائه:

"لكل الصورة التي يرى بها اليهودي واليهود هم كغيرهم من الناس نحن يهود الجزائر عرفنا بسرعة وفي وقت مبكر أننا يهود وفي نفس الوقت وبنفس السرعة أننا فرنسيون أو بالأحرى فرنسيو الجزائر أي أقدام سود، ولكن سرعة قولنا أقدام سود لا تنسينا أصلنا اليهودي حتى نثبت أننا أكثر ارتباطا بالجزائر من غيرنا من الأقدام السود، فأنا جزائري أكثر منهم ولست أقل منهم قيمة كفرنسي.

فعوض أن نبحث عن خصوصيتنا في هوية محدودة لنهتم بتعلد تجذرنا الذي يشكل رباطا متشعبا".



سليخان غريناسيا، هنا على الصورة ماسكا آلة الكمان، أبقى حية تقاليد الفولكلور الموسيقي القسنطيني بدواوينه الأربعة الكبرى: المالوف القادم من إسبانيا الذي يروي المعارك البطولية السابقة، - الحوزي حيث ينتصر الخير بفضل القدرة الإلهية الكاملة، - الزجوب التونسي على شرف المرأة والطبيعة، والمعجوز، عبارة عن أغاني راقصة بلسان الجنوب مكتوبة بمناسبة قضاء فصل الشتاء في هذه المناطق



نقل أونريكو ماسياس إلى الأغنية الفرنسية، الإيقاعات العربية الأندلسية التـي تعلمهـا على يد أبيه سيلفان غريناسيا، وريموندليريس.

من معلم بالمنطقة القسنطينية أصبح بعد الاستقلال عندليب إحياء الشعور بالحنين إلى البلد المفقود والتأقلم مع فرنسا والمصالحة اليهودية العربية بالنسبة للأقدام السود

قائمة المصطلحات

- **آدا أو رادا**: العادة.
- **ألياه**: "الصعود" يشير إلى هجرة اليهود إلى إسرائيل.
- **بلكاشوت**: أشعار طقسية تمجد المنفى والخلاص.
- **بركة**: الحظ.
- **بار ميتسفاح**: حرفيا "ابن الوصية"، احتفال يؤكد الأغلبية الدينية لطفل يبلغ الثالثة عشر من عمره.
- **يات ميتسفاح**: احتفال الأغلبية الدينية للشابة.
- **بستل**: مورّق محشو باللحم.
- **بيت حاميدريش**: "بيت دراسة"، مدرسة دينية.
- **بناي بريث**: "ابن التحالف" أخوية يهودية منظمة على شكل محافل أسس بنيويورك عام 1843.
- **بريت ميلا**: ختان.
- **كاش**: مطابقة للقواعد الغذائية اليهودية.
- **شاماش**: حارس البيعة.
- **شميرة**: تعويذة.
- **كوهانيم**: أسقف.
- **ديان (الجمع: ديانيم)**: قاض بالمحكمة الدينية.
- **دربوكة**: طبلة مصنوعة من قاعدة طينية مطهية يمدد عليها جلد.
- **ذمة**: قانون أحوال "المحمي" متعلق بالشريعة الإسلامية الذميون أهل الكتاب: اليهود والنصارى.
- **جواق**: ناي مصنوع من القصب.

- **قابالي**: أمين الخزينة أو حارس البيعة.
- **قندورة**: لباس طويل مصنوع من القماش الخفيف.
- **قاون (الجمع قاونيم أو قيونيم)**: رؤساء أكاديميات بابل ما بين القرن VI والقرن XIII.
- **غريبة**: "من لم تكن من البلد أصلا" الاسم الذي أطلق على بيعة عنابة وسفر التوراة الذي كانت تحتفظ به.
- **غوي (الجمع غوييم أو غويم)**: "المشركين" عبارة يشار بها إلى غير اليهود.
- **غنيزاه**: إيداع كتب مستعملة أو كل نص مكتوب بأحرف عبرية.
- **غيت**: عقد طلاق.
- **هاغاداه**: رواية الخروج من مصر تردد خلال طقوس يوم الفصح.
- **حاخام** (الجمع حاخاميم): حكيم، حاخام.
- **حايك**: لحاف، ستار.
- **حاخشارا**: تحضير الرواد للذهاب إلى إسرائيل.
- **حالاخه (الجمع حالاخوت)**: الشريعة اليهودية.
- **حانا**: الحناء.
- **حانوكاه**: عيد يحتفل فيه خلال فصل الشتاء بانتصار الضعفاء على الإغريق الذين خربوا هيكل أورشليم (164 قبل عهدنا) خلال ثمانية أيام كل مساء توقد نار جديدة على مصباح حانوكاه.
- **حاسيد**: تقي.
- **حفراه كاديشا**: "الطريقة القديسية"، جمعية تتكفل بالمحتضرين وتنفيذ طقوس الدفن.
- **هيلولة**: احتفال يقام يوم "لاغ با – أومير" على أضرحة الحاخامات المبجلين.
- **كاديش**: صلاة الأموات.

- **كانون:** فرن مصنوع من الطين المطهي يركب على قوائم.
- **كابارا:** تضحية استغفار تنفذ تقليديا يوم الفصح الكبير على ديك (بالنسبة للرجال) أو دجاجة (بالنسبة للنساء).
- **كسرة:** إناء كبير دائري يحضر فيه الكسكسي.
- **كيتاب:** طقوس بمناسبة أول تمليقة شعر والتي تحدد دخول الطفل الصغير في طور التعليم.
- **كيتوبا (الجمع كيتوبرت):** عقد الزواج.
- **خامسة "خمسة" بالعربية:** تميمة في شكل كف اليد.
- **كيدوش:** دعاء يردد في بداية شاباط وأيام الأعياد على كوب من الخمر.
- **كيبور:** أنظر يوم كيبور.
- **كوفية:** قبعة مقرنة تضعها النساء اليهوديات.
- **محبس:** حوض صغير.
- **محزور:** كتاب الأدعية للاحتفالات.
- **مقروط:** حلوى مقلية مصنوعة من السميد والتمر.
- **ماتسا (الجمع ميزوزوت):** لفيفة صغيرة في الرف بها نص عبري يوضح على الدعامة اليمنى لأبواب المنازل، وبصفة عامة الغمد الذي يحتوي اللفيفة.
- **ميدراش:** تفسير ودراسة المعاني المخفية للكتاب المقدس.
- **ميكي (أو ميكفي):** حمام شعائري.
- **ميموتة:** عيد السيفارديم يحتفل فيه بنهاية فترة الفصح.
- **منهاج (الجمع منهاجيم):** عادة دينية "ميسنة": جزء من التلمود تضبط الشريعة اليهودية.
- **مقدم:** قائد الأمة اليهودية.
- **عود:** الآلة الموسيقية المعروضة.

- **باراشا**: قسم من أقسام الكتاب المقدس.
- **بايتان**: مؤلف "بييوتيم" الناطق باسم الجالية.
- **بيساح**: عيد الفصح اليهودي.
- **بييوتيم**: أشعار طقوسية.
- **بوريم**: عيد يحتفل فيه حسب كتاب "إستير" بانتصار اليهود في بلاد الفرس القديمة على مؤامرة حامان.
- **ريسبونسا**: إجابة ترسلها السلطات الدينية تتعلق بالشريعة اليهودية .
- **روش هاشانا**: السنة اليهودية الجديدة.
- **سارمة**: قبعة مسننة تضعها النساء اليهوديات.
- **سيدار**: "الأمر" طقوس أكلة عيد الفصح.
- **سفر التوراة**: لفيفة مخطوطة للشريعة اليهودية تقرأ علنا على الحضور في البيعة.
- **شاباط**: فترة راحة تبدأ من غروب شمس يوم الجمعة وتنتهي يوم السبت بحلول الليل.
- **شافووت**: عيد العنصرة يحل في اليوم الخميس بعد عيد الفصح.
- **شوفار**: قرون كبش ينفخ فيها في بعض المناسبات الاحتفالية.
- **شوهيت**: جزّار شعائري.
- **شول أو صلا**: بيعة.
- **سيمحات توراة**: "سعادة التوراة" حفل اختتام القراءة السنوية لأسفار موسى الخمسة تميزه الرقصات والأناشيد.
- **سوقة**: بيت خشبي يصنع للاحتفال بـ "سقوط".
- **سقوط**: عيد "الأكواخ" في فصل الخريف يذكر بمسيرة اليهود في صحراء سيناء.
- **طاجين**: قدير لحمي يخلط لمدة طويلة.

- **تالث**: وشاح للصلاة.
- **تلمود**: تفسير ديني يتكون من "الميشة" و "غيمارة".
- **تلمود توراة**: مدرسة ابتدائية يهودية.
- **تاقانوت**: أوامر دينية.
- **طيبة**: منصة في وسط البيعة للمرتل أو الحاخام.
- **تافيلين**: "تميمة"، مكعب جلدي يحتوي لفائف ورق التوراة يحملها الرجال اليهود الذين تعدت سنهم الثالثة عشر بواسطة سيور.
- **تيحيليم**: المزامير.
- **تفينة**: حساء شاباط.
- **تيشابي أف**: يهود من أهالي الجزائر في مقابلة اليهود الإسبان.
- **التوراة**: الكتب الخمسة لأسفار موسى وبصفة عامة جميع التشريع اليهودي.
- **توبيشفات**: عيد الأشجار ويحتفل به خلال اليوم الخامس من شهر شيفاق (يناير - فبراير).
- **بيشيفاه**: مدرسة تلمودية عليا.
- **يوم كيبور**: يوم الفصح الكبير، وهو أكثر الأيام شهرة واحتفالا به في الرزنامة اليهودية ويكون في أول السنة.
- **زوهار**: "كتاب الإشراق" تأليف لصوفي يهودي، ينتسب لشيمون بار يوهاي، محرر خلال القرن XII.

الفهرس

IV اليهود العرب، اليهود الجزائريون، اليهود الفرنسيون

V في ظل الحركة الوطنية

VI أنصاف جزائريين، أنصاف عرب

يهود الجزائر 2000 سنة من الوجود...

الكتاب الذي بين أيديكم كان إنجازه صعبا، صعبا نظرا للموضوع الذي يعالجه، ومتعبا للصبر الذي يتطلبه ومقلقا نظرا للوثائق الطويلة المتعلقة بيهود الجزائر.

فعندما يسأل أحدنا محيطه المباشر عن إمكانية ميلاد علاقة جزائرية إسرائيلية، أول جواب يتلقاه عن سؤاله هو الدهشة. فهل من الصعب النطق بهذه الأحرف السبع؟

لماذا كل ما يتعلق باليهود يثير الجميع من أبسط الناس في الشارع إلى السياسي المولع؟

فإن سألت هذه الملايين من الشباب المولودين بعد **1962** فستعتريهم الدهشة عندما يعرفون أن آباءهم وأجدادهم قد عاشوا لفترة طويلة إلى جانب اليهود في جو بهيج.

وبعد الدهشة تقرأ تعبيرا آخر للوجه لدى الشخص الذي سئل، تقرأ هذا العجز عن تفسير هذا التشوش الذي يشعر به الواحد منا في رأسه بمجرد الحديث عن اليهود.

فهل هذا انبثاق لمحنة تجد جذورها في التاريخ البعيد؟ هذا ما سيؤكده الذين جعلوا من التاريخ مصدرا للقيم الانتقائية.

فهل التعايش مع اليهود مجرد هرطقة؟ "نعم إذا انطلقنا من مبدأ أنهم مازالوا يحتلون الأراضي المقدسة بالقدس، أورشليم، وهم أعداؤنا، ويبقى الهدف إذا هو التحطيم المباشر لهؤلاء الناس".

ردمك 978-9961-48-474-6
رإق 161/2008
9 789961 484746